

رواية

فكري الخولي

الرحلة

الجزء الأول

مختارات الكرمة



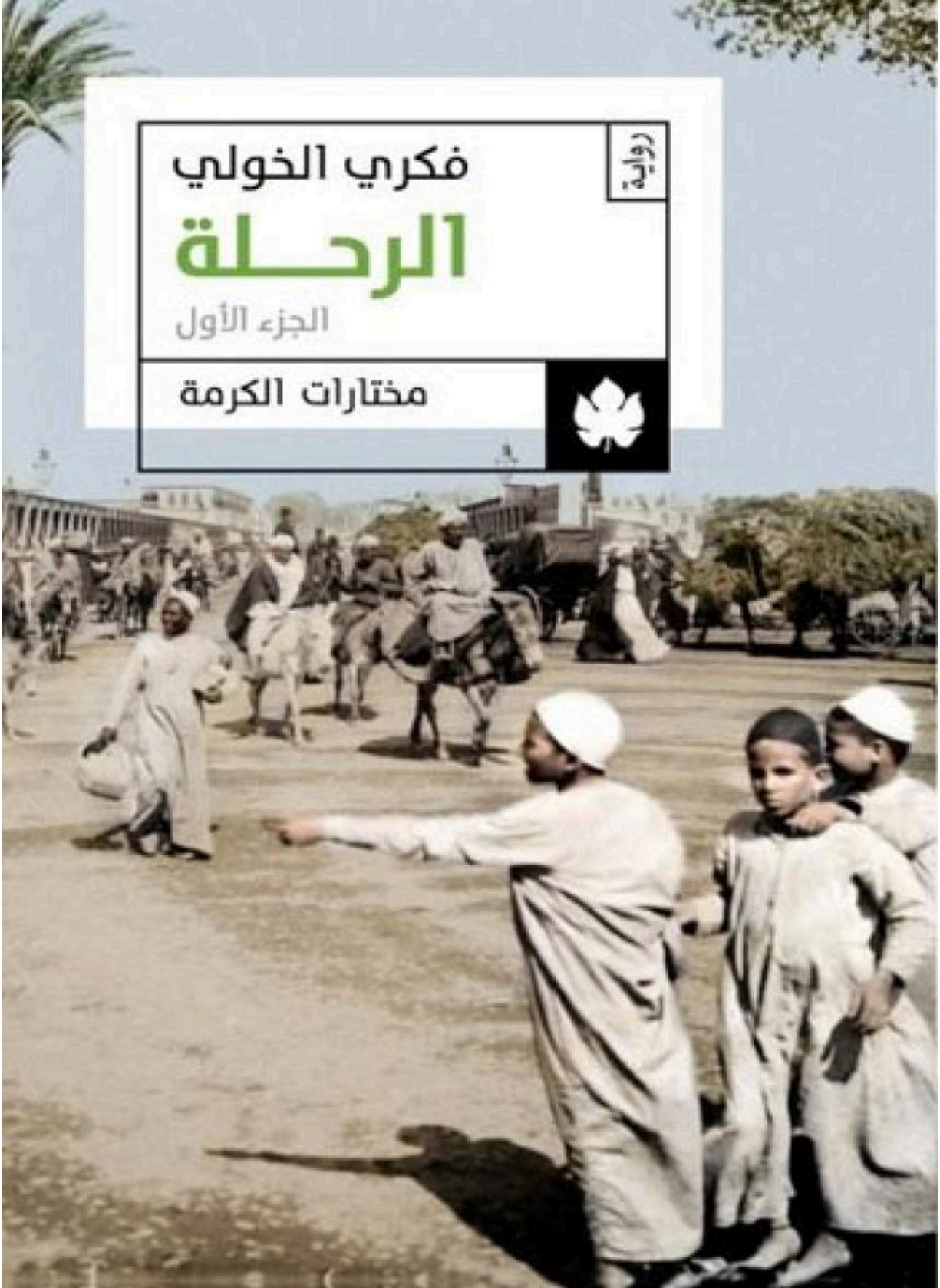
فكري الخولي

رواية

الرحلة

الجزء الأول

مختارات الكرمة





الرحلة

الجزء الأول

فكري الخولي

{IMG_PLACEHOLDER}

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع:

www.facebook.com/alkarmabooks حقوق النشر © فكري الخولي ١٩٨٧

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

الخولي، فكري.

الرحلة / فكري الخولي – القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.

٣٥٢ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٤٦٧٢٩٣

١ – القصص العربية.

أ – العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥ / ١١٢٦١

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

صورة الغلاف: Library of Congress, Prints & Photographs Division,

LC-DIG-matpc-09544

تقديم

بقلم: صلاح حافظ

لم يسبق في تاريخ الرواية العربية عمل من هذا الطراز!

فنحن أَلِفنا - في عالم الرواية - أن نرى الفلاح بعين ابن عمه الذي تعلّم في المدينة واحترف الكتابة، وأن نرى العامل بعين «المثقف الثوري» الذي انحاز لقضيته، بعد أن عرف أنه إنسان مثله.

لكننا لم نقرأ قَطُّ رواية بقلم فلاح، أو بقلم عامل، يُصور فيها حياته كما يراها بعينه.. ويتيح لنا أن نراه كما يرى هو نفسه.

وهذا الذي لم نقرأه قَطُّ هو ما ينفرد به هذا العمل الروائي الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ أدبنا العربي.

فهنا لا يكتب محمد حسين هيكل باشا عن «زينب» الفلاحة الجميلة النبيلة، وقربتها الجاهلة التي تضطهد عواطف العذارى الجميلات. وهنا لا يكتب وكيل النيابة توفيق الحكيم عن لغز «ريم» التي يختلج رمش عينها فينبسط ظلّه على فدان. وهنا أيضًا لا يصف حياة العمال نجيب محفوظ من مقعد القهوة أو شرفة البيت من وراء المشربية. ولا يسرد الحكايات من قاع المدينة الدكتور يوسف إدريس.. مستعيّنًا بالسماعة وكشف الأشعة قبل أن يتولى وصف الحالة.

هنا يتولى جميع هذه المهام صاحب الشأن نفسه!

هنا الفلاح يروي قصته بلسانه، والعامل يُسجل سيرته بقلمه، ولا يستعين
بـ«خبراء أجنب» من أساتذة القلم المتطوعين باسمه.

وقد لا يكون هذا شيئًا جديدًا في أوروبا.. حيث ينشر الجميع ما يكتبون، ويقرأ
الجميع كل ما يُنشر.

لكنه في مصر، وفي بلادنا العربية، زلزال!

بل هو زلزال مرتين:

* مرة لأن الكاتب عامل. وليس من تقاليدنا أن يكتب العمال روايات، أو يحكوا
للناس ما مروا به من تجارب.

* ومرة لأن هذا الكاتب، العامل، وضع الذين كتبوا عن الفلاحين والعمال في
موقف بالغ الحرج، فكل سطر في روايته الفذة حقيقة عايشها بنفسه، وكل
هذه الحقائق أبلغ من كل ما صوروا من خيالاتهم التي بذلوا غاية الجهد
والإخلاص في تأليفها!

وفي اعتقادي أنه سيمضي وقت طويل جدًّا قبل أن يظهر عمل أدبي مُشابه
في مصر والبلاد العربية.

فالأدب عندنا حرفة للخاصة، والقلم له أهله. ولا يتصور الناشر العربي أن
ينشر «يوميات ساعي بريد» إذا كان كاتبها ساعي بريد بالفعل. أو «آخر أيام
ابنتي» إذا كانت الكاتبة ربة بيت تحكي تجربتها في المستشفى إلى جوار
سرير ابنتها الراحلة، فالسيرة الذاتية للإنسان العادي لا تعتبر عندنا مادة
صالحة للنشر، ولا تضاف إلى رصيد الأدب.. ما لم يكن صاحبها من أهل القلم
المعتمدين.

وقد كانت هذه النظرة «الكهنوتية» للأدب - ولا تزال - سببًا في حرمان المكتبة العربية المعاصرة من ذخيرة هائلة من كنوز التجربة الإنسانية.

وليس صدفة أن تبدو مكتبتنا العربية هذه بالغة الفقر أمام مكتبات العالم المعاصر، فثلاثة أرباع ما تنشر مكتبات العالم اليوم من طراز «الأدب المباشر»، أي التجربة التي يكتبها صاحبها بنفسه، ويضيفها إلى حصيلة المعرفة الإنسانية بقلمه، ومكتبتنا ترفض الاعتراف أصلًا بهذا الطراز من الأدب، ولا تسمح لنفسها بنشره، لأن كُتابه «دخلاء» يقحمون أنفسهم على أهل القلم، ويمارسون مهنة الكتابة بدون ترخيص!

وليس صدفة أن يكون أدب المحترفين نفسه، في عالمنا العربي، بالغ الفقر أمام الآداب المعاصرة، فالأديب المحترف الأجنبي يتزود بذخيرة هائلة مما تنشر المطابع للأقلام غير المحترفة، ويتعلم منها، ويتشكل بها وجدانه، وتتعمق بها نظرتة، ويستمد منها الوقود الذي يجعله لسان عصره ومجتمعه، بينما الأديب المحترف العربي لا يملك مثل هذا المرجع، ولا يفهم عصره إلا في حدود تجربته الشخصية المحدودة القاصرة، لأن تجارب غير المحترفين لا يُتاح لها أن تُنشر، ولا يُتاح له أن يطلع عليها. وهذا هو السبب في أنني أعتبر نشر هذه الرواية نقطة تحول في تاريخ الأدب العربي المعاصر، وحدثًا جديدًا تمامًا على مساره.

فنشر الرواية، في حد ذاته، إعلان عن سقوط «الكهنوت الأدبي» الذي حرّم على غير المحترفين حق التعبير.

ونشر الرواية، في حد ذاته أيضًا، دعوة إلى كل عربي أن يُسجل تجربته بلا حرج ولا تردد ولا تكلف.. لا لصالح القارئ وحده، وإنما أيضًا لصالح الأديب

المحترف.

لكن قيمة الرواية لا تتلخص في هذه الاعتبارات وحدها، إنما هي تتمتع - فوق هذه الاعتبارات - بتكامل فني فريد، مستمد من فطرة فنية نادرة، يتمتع بها مؤلفها العامل الفلاح: فكري الخولي.

وقد كنت شخصيًا أحد الذين قرأوا هذه الرواية قبل أن تُكتب، لأن صاحبها كان سجينًا معي في منفى «الواحات الخارجة»، وكان يرويها ببساطة، جزءًا بعد جزء، ومشهدًا بعد مشهد، على امتداد شهور وأعوام. وكان يمكن أن يُعيد رواية أي مشهد فيها حين نرجوه أن يفعل، ودون أن يبذل أي جهد. فهي لم تكن مؤلفاته، وإنما كانت حياته. ولعلي كنت أحد الذين حرّضوه على أن يُسجل على الورق ما كان يرويّه لنا.

ولماذا حرّضته؟

لأنني وجدت ما يرويّه يغطي مرحلة مهمة تمامًا في تاريخ مصر المعاصرة. وهي المرحلة التي نشأت فيها الصناعة المصرية الحديثة أيام طلعت حرب، وشركات المحلة.

ففي مختلف بلدان العالم التي سبقتنا إلى الثورة الصناعية، سجل الأدب صورة المجتمع الذي عاصر هذه الثورة، وسجل الآلام والآثام والضحايا الذين قامت الصناعة على أكتافهم. وبرز في هذا المجال أدباء عظماء مثل «تشارلز ديكنز» وغيره وغيره.

أما الآلام المصرية، والآثام المصرية، والضحايا المصرية، التي صاحبت عصر النهضة الصناعية المصرية.. فقد تجاهلها الأدب المصري تمامًا. وكان طبيعيًا

أن يتجاهلها، لأن الصناعة في مصر نشأت في صراع مع صناعة الاستعمار الأجنبي، فكان طابعها الوطني يمنع الرأي العام المصري، والعمال المصريين، من التشهير بآثامها.

والآن وقد زال هذا الاعتبار، فإن تاريخ نشأة الصناعة المصرية الحديثة، والآلام التي صاحبته، والضحايا الذين سقطوا في سبيل أن تدور عجلاتها.. أصبح ممكناً، وواجباً أن يعرفه الجميع.

وهذه الرواية تؤدي هذا الواجب. وصفحاتها هي أول تسجيل أدبي - بل هي التسجيل الأدبي الوحيد - لميلاد الصناعة المصرية الحديثة، وللهازات التي أحدثها هذا الميلاد في قرى مصر ومدنها وقيمها، بقلم معاصر يروي التجربة من واقع التجربة.

وعندما أقول «التسجيل الأدبي الوحيد»، فإنني أقصد التسجيل الذي أتيح له أن ينشر.

فالواقع أن في مكتبي نصوصاً أخرى كانت تستحق النشر منذ سنوات، ومنها نصوص كتبها «محمد شطا» أحد زعماء عمال النسيج المصريين في الأربعينيات، وتركها لي قائلاً: «لعلها تلهمك بعض موضوعات قصصك». لكن هذه النصوص لا تزال مع الأسف في درج مكتبي، ولم أستفد بها.

ثم جاء فكري الخولي يصرف نظري تمامًا عن الاستفادة بها، وأمرني بأن أنسحب من الساحة، لأن العامل الذي كنت سأتكلم باسمه قرر أن يتكلم هو بنفسه، وأن يكتب بقلمه.

وعجيب أن فكري الخولي لم يكن في حاجة إلى دراسة فن الأدب، ولم يتلق دروسًا في التعبير.. لكي يصوغ هذا العمل الأدبي النادر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الأدب العربي.

وقد يعود جزء من هذا النجاح إلى أنه في حقيقة الأمر فنان موهوب. وقد يعود جزء منه إلى أنه عاش حياة بالغة الخصب، تستحق أن تُروى، وتجتذب انتباه المستمعين.

لكنني أعتقد أن جاذبية هذا العمل الأدبي، وأهميته، تعود إلى صدقه، وإلى أنه من طراز «الأدب المباشر» الذي يروي تجربة الإنسان كما تجري في الحياة، وينافس المحترفين بصدق البسطاء.

والدليل على الصفحات التالية.. بقلم المؤلف الذي لم يخترع كلمة من خياله:
فكري الخولي!

إهداء

إلى ابنتي فوزية..

كلمة لا بد منها..

أقولها الآن ردًّا على العديد والعديد من الأسئلة، التي تدور الآن في أذهانكم،
حول موقعي.. ولا رد لي إلا أن أُسجل كل حياتي في هذا الكتاب؛ لكي تعلموا
لماذا اخترت هذا الطريق.

فكري الخولي

الخروج من القرية

كان أبي يشتغل بناءً في بلدتنا والبلاد المجاورة. وكثيرًا ما كان يسمع الأمهات ينادين على أبنائهن في أكثر البلاد بأسماء: محمد، وإبراهيم، وعلي، والسيد، وعمر. كانت هذه هي الأسماء المألوفة لديه. وأثناء عمل أبي، حضر أحد المقاولين من مصر واتفق مع كثير من عمال البناء، ومن بينهم والدي، على العمل في مصر. وهذه كانت أول مرة يتغرب فيها أبي عن بلدتنا. وذهب أبي للعمل في مصر. وذات يوم، وهو واقف على إحدى سقالات البناء في الدور الرابع، سمع إحدى الأمهات تنادي: «يا فكري، يا ولد.. تعال كلم أبوك». سمع أبي هذا ولم يُصدّق.. لم يُصدّق أن هناك ولدًا بهذا الاسم. وتوقفت يداه عن العمل، وأخذ ينظر من فوق العمارة دون أن يُصدّق، وظل في ذهول إلى أن سمع الأم تحضن ابنها وتقول: «يا واد يا فكري.. كنت فين يا ولد». وقال والدي لنفسه: «أصل إحنا في مصر، ومصر كلها متعلمين، وعشان كده فيه أسامي زي دي».

«يا واد يا فكري.. تعال يا واد كلم».

دق الاسم في أذنه، واستمر يردده، وقال لنفسه: «نادرين عليّ لأسمي هذا الاسم في بلدنا».

وانتهت مأمورية أبي في مصر، وعاد إلى بلدنا، وقال أبي لأمي: «أنا جيت لكي هدية من مصر.. جيت لك اسم فكري.. لو جيت ولد سميّه فكري.. اسم من مصر».

وأعجبت أُمِّي هي الأخرى بهذا الاسم، لأنها لم تسمع به من قبل. وفي ٢٦ فبراير سنة ١٩١٧ ولدت أُمِّي، وسعد أبي بمولدي وتسميتي بهذا الاسم لأول مرة في قرينتنا. ومرض أبي بعد ولادتي بشهرين، ودخل المستشفى. وكلما زارته أُمِّي كان يقول لها: «اتوصي بفكري.. علِّميه عشان يبقى زي الناس اللي في مصر».

ثم مات أبي بعد ولادتي بثلاثة أشهر!

وعملت أُمِّي بالوصية، فخصتني دون إخواني بالرعاية والاهتمام. ولأنها كانت تحب أبي، أحببني، ولم تنزلني من فوق كتفها. وكانت كلما تعبت، أعطتني لإحدى إخوانتي: زينب، أو حُسن، أو خسكية. وتربيت في أحضانهن الأربعة. وبعد أن بلغت من العمر ست سنوات، حاولت أُمِّي أن تعلمني، وكانت دائماً تقول لي: «أنا عايزاك تبقى زي الناس اللي في مصر.. أنا عايزاك تبقى أحسن من إخوانك وأحسن من أولاد البلد كلهم. إللي بيتعلم بيشتغل كاتب ويتوظف، واللي ما بيتعلِّمش بيشتغل خدّام وفواعلي وبشيل على الحمير جدا العمدة. أنا عايزاك تبقى سيد نفسك».

وأحسست بالعاطفة، عاطفة أُمِّي، وعاطفة إخواني نحوي، كما أحسست بعاطفة كثير من نساء قرينتنا وشبابها، لأنهم كانوا يحبون أبي كما كانوا يحبون أُمِّي، ولأن أبي مات بعد ولادتي بثلاثة أشهر، ولأني نشأت يتيمًا بلا أب.

وعملًا بما قالته أُمِّي ذهبت إلى الكُتّاب في قرينتنا. وفي الكُتّاب تعرفت على الولد الغريب والولد السيد الصفطي، ونمت بيننا صداقة. وكثيرًا ما كنا نذهب إلى البحر، وتتسلق أشجار النخيل وأشجار التوت بعد خروجنا من الكُتّاب كل يوم. وفي ليالي كثيرة يأتيان إلى بيتنا ونلعب جميعًا مع أختي خسكية وأختي

حُسْنُ ألعاب «جمال الملحّة» و«حط الحمام - شال الحمام»، وكنت أرى السعادة بادية على وجه أمي وهي ترى أختي حُسْن تحملني على ظهرها، وتلف بي مثل الجمل على الفرن حول إخوانتي. وكلما رأت أختي خسكية وأختي حُسْن السعادة على وجه أمي كانت كل منهما تتفانى في إرضائي. وكلما ذهبت أختي حُسْن إلى الغيط أحضرت لي معها «الذرة المشوي» وعقل عيدان الذرة المسكرة كالقصب. وكلما ذهبت أختي خسكية مع أمي لبيع البطاطا أو الخس أو البصل في سوق محلة مرحوم أو في طنطا أحضرت لي معها الحلاوة الطحينية والعيش الخاص والفلافل. وهذا كان يسعدني ويدفعني إلى ملازمة أمي، فأينما ذهبت أمسكت بذيلها. كنت أذهب مع أمي وهي ذاهبة تطلب بهائم عمي السيد الصعيدي وتتفق معه على حرث فدان الغلة. وكثيرًا ما كنت أسمع أمي وهي جالسة مع عمي محمود الصعيدي وعمي محمد مشعل وعمي السيد أبو الذهب وعمي محمد الصراف وخالتي نظلة وأم الولد الغريب، كنت أسمعهم يتحدثون عن الإنجليز، وسوقهم الرجالة إلى السلطة قسرًا، واستيلائهم على الجمال والحمير، كما كنت أسمع أمي تقول عن الإنجليز: «لما كانوا يبيعوا البلد راكبين الحصنة، النسوان كانوا يستخبوا ويقفلوا على أنفسهم البيان لأحسن الإنجليز لو شافوا واحدة كانوا ياخذوها ويعتدوا عليها».

وكنت أسمع عن سعد، وعن المظاهرات ضد الإنجليز. وكنت أسمع الرجالة والنسوان وهم يدعون للوفد ولسعد باشا أن ينصره على الإنجليز.. كما كنت أسمع الشباب والعيال وهم يقولون: «يا عزيز يا عزيز كبة تضيع الإنجليز»، وكنت أردد هذا مع الأطفال كلما ذهبت إلى الكُتّاب، كما كنا نردد: «الله حي، سعد جاي، ضرب البمبمة في ط... العمدة وهو جاي».

وأذكر أنني كنت أسير بجانب أمي وعدد كبير من نسوان بلدنا وهن يزغردن لسعد وللدستور، وكان الرجال يهتفون للوفد لأنه عاد للحكم. لم أكن أعي ما يدور حولي، ولكنني كنت أردد تلك الأغاني لأنني أرى إخواني والعيال والشبان يرددونها في الحوار والعتف. وكان هذا يضايق عمدة بلدنا ويدفعه إلى الحقد على الرجال وعلى الشبان الذين يهتفون للدستور، لأنه كان عدلياً «من أنصار عدلي باشا». وكان يدفعه حقه هذا إلى إرسال الرجال والشبان إلى بلاد بعيدة في أيام الفيضانات للعمل في الجسور. وكنت أرى أمي وهي تبكي لأخذ أخي إبراهيم، كما كنت أراها وهي تقف فوق سطح منزلنا، وتنكش شعرها، وتتطلع إلى السماء وتدعي على العمدة الذي أخذ أخي وأرسله إلى البلاد البعيدة. وكانت المدة التي يقضونها بعيداً عن القرية تتراوح بين ثلاثة أشهر وستة أشهر بلا أجر. وكان هذا يضايق أمي وكل الأمهات، لأن تغيب الشبان طوال تلك المدة يتلف الكثير من الحاصلات المزروعة.

لم يكن العمدة يأخذ إلا الرجال والشبان القادرين على الزراعة، وهذا يدفع الأمهات إلى الولوجة والصوات والدعاء على العمدة وعلى عدلي وعلى الإنجليز الذين يخربون بيوتنا ويأخذون أبناءنا. كما كان ذلك يدفع الأمهات والزوجات إلى العمل في الزراعة بدلاً من الرجال. وكنت أذهب مع أمي لجمع القطن، وتكسير القصل، وجمع الفول، وتقليع البطاطا. وكثيراً ما كنت أذهب مع أمي يوم الخميس والجمعة إلى الجبانة لزيارة أبي، وأراها تحتضن التربة وتقول: «أنا عملت بالوصية.. أنا رايحة أعلمه، أنا رايحة أخليه زي الناس اللي في مصر زي انت ما قلت.. اقرا يا واد سورة الفاتحة.. سمع أبوك». وتستمر أمي في ترديد هذا وهي تحتضن التربة وتحتضني، إلى أن يأتي إخواني إبراهيم ومحمد وزينب لأخذها عنوة وهي تبكي.

وكنت كلما طلبت من أمي قرشًا وأنا ذاهب إلى الكُتَّاب أعطتني، ولم تؤخر لي طلبًا. كنت أشتري بالقرش حلاوة من رجل كان يأتي عند الكُتَّاب وينادي: «حلاوة زمان يا ملين».

وفي يوم من أيام الصيف لم أذهب إلى الكُتَّاب بسبب مشاجرة تمت بالليل مع الأطفال، فُطعت فيها ملابسني. وفي الظهر، جلست أمي أمام منزلنا وخلعت عني كل ملابسني لخياطتها، وجلست بجانبها عارِبًا كما ولدتني. وسمعت الرجل وهو يقول: «حلاوة زمان يا ملين»، وجرَّ جنوني وطلبت القرش من أمي، ولكنها تباطأت، فقذفتها بزلطة كانت بجانبني، ورأيت الدم ينزف بغزارة من فمها، فحريت، وجرت هي ورأيت تصرخ باكية إلى أن لحقت بي في أحد غيطان الذرة بجانب بيتنا. وفي غضب، قلعت أمي أحد عيدان الذرة، وانهالت ضربًا على جسدي العاري إلى أن تورَّم. ولم تكتفِ بذلك، بل جرَّتني برجلي على الأرض إلى أن دخلنا منزلنا. ولم تنتبه أمي إلى ما حل بي إلا على صرخات النساء اللاتي جنن لنجدتي.. هالها جسدي الذي تحوَّل إلى قطع زرقاء والدماء تنزف منه، ولم أعد أسمع منها إلا همهمة الكلمات وقد انكفأت عليَّ وأخذتني في حضنها وهي تقول: «الحقوني، الواد حيموت يا خلق هوه.. آه يا ابني.. إلهي كان ينشل دراعي».

ولما أفقت وجدت نفسي في حضن أختي خسكية وأختي حُسن وزينب وخالاتي والولد الغريب والولد السيد الصفطي ونسوان كثيرة وعيال زملائي في الكُتَّاب، وكنت أتقل بين أحضان خالاتي وإخواتي وأمي، وكانوا يعطونني حلاوة وكراملة، ويسقونني لبنًا، ويعطونني كحكًا. ورأيت أمي وهي تبكي وتقول: «الحمد لله»، وخالتي عفا الله وخالاتي وهن يقلن: «هاتي نرقيه - حسدونا الناس». وكانت أختي خسكية وهي تحضني تقول: «آه يا بنت الكلب

يا امه، ضربت اخويا.. آه يا اخويا، واد يا فكري، خد القرش ده واصحى
لإخواتك».

وبقيت في أحضان إخواتي وأمي وخالاتي أستمتع بالرعاية والعطف إلى أن
شُفيت وعُدت إلى الكُتَّاب وختمت سورة ياسين وفرحت أُمِّي لنجاحي.

وتزوجت أختي حُسن، كما تزوج أخي محمد. وكانت أُمِّي هي التي سعت لذلك
لأنها كانت محتاجة لواحدة بدلاً من أختي لمساعدتها في البيت، تقوم بما
كانت تقوم به أختي. وتربت بيني وبين زوجة أخي ألفة. ولم تكن تذهب إلى
منزل والدها إلا وتأخذني معها، وتعطيني مما كانت تعطيه لها أمها، وتطعمني
بحنان.

وفي الأيام الأولى لعام ١٩٢٨، ذهبت إلى الكُتَّاب كعادتي، وإذا بمشاخ البلد
يأتون ويطلبون منا الذهاب إلى دوار العمدة. وهناك وجدت أُمِّي وإخواتي
وكثيرًا من نساء قربتنا والشبان والرجال والعيال. وطلب منا العمدة الجلوس،
ووقف واحد أفندي مع العمدة، وتكلم بصوت عال:

- يا أهالي كفر الحما، إحنا جينا عشان نتكلم معاكم. بنك مصر عمل مصنع
يغزل القطن اللي انتم بتزرعوه ويعمل منه القماش اللي انتم بتلبسوه.. كنا
زمان بنزرع القطن ليأخذه منا الإنجليز.. إحنا النهارده بنزرع القطن وحنحوله
إلى قماش، إحنا اللي حنزرع القطن وحنغزله وحنسجه عشان يبقى كل
شيء من مصر.. صناعة وطنية. ابعثوا بأبنائكم عشان يتعلموا صنعة، ولما
حيتعلموا حياخدوا أجر كويس.

وتكلم العمدة هو الآخر في هذا الاتجاه، وقال:

- اليه رايع ييجي بعد أسبوع ويجيب معاه عربية لوري وياخد معاه كل الناس
اللي عايزين يروحوا وبشتغلوا في المصنع.

وفي اليوم الذي حدده العمدة جاءت العربات إلى بلدتنا واتلمت الناس عند
الجامع لتوديع المسافرين للعمل في المصنع الجديد. وكان كل واحد وهو جاي
جايب معاه قفة مليانة عيش ومخلل، وكل أم تاخذ ابنها المسافر في حضنها
وتوصيه بأن ياخذ باله من نفسه. وجلست أنا بجوار الواد الغريب والواد السيد
الصفطي، جلست بجانبهما أبكي لأنهما مسافران. ووضعوا كل القفف، وركبوا
العربات، وكل الناس اتلمت حوالينهم، ويقولون لهم «مع السلامة»، ومشيت
العربات، وسار حولها الرجال والنسوان بيكين، وجريت أنا الآخر مع النسوان
والرجال عشان الواد الغريب والواد السيد الصفطي.

وجاءت أمي خلفي تقول: «تعال، أنا عايزاك تتعلم زي أبوك ما قال». وأخذتني
معها وهي تقول: «بكرة ييجوا تاني، ما تزعلش». وعدنا إلى منزلنا. وفي
الصباح، ذهبت إلى الكُتَّاب، ولم أجد الواد الغريب ولا الواد السيد الصفطي.
وعدت إلى البيت أفكر في أصدقائي الذين تعودت أن أراهم في الكُتَّاب
وأراهم معي على البحر. ولم يطل بي التفكير طويلاً ففكرت أن أهرب وأروح
المحلة.

وذات صباح، طلبت مني أمي أن أحرس البيت لأنها رايحة السوق مع زوجة
أخي لشراء بعض الأشياء الخاصة بالمنزل، وأعطتني خزانة طويلة لأمنع بها
الفراخ من الخروج، وطلبت مني أن أحط الأكل للبهائم كلما جاعوا، وقالت
لي: «أنا رايحة أجيب لك عيش وحلاوة طحينية. إوعى حد ياخذ حاجة، إوعى
البهائم، إوعى الفراخ». قالت لي أمي هذا وتركتني ذاهبة إلى السوق ومعها
زوجة أخي وأختي. وبقيت وحدي أمام باب منزلنا.. الباب مفتوح، والفراخ

رايحة وجاية وسط الحوش. وجلست أنا أمام الباب أتأمل كل ما في منزلنا، وعاودني مرة أخرى التفكير في الولد الغريب والولد السيد الصفطي، زمانهم بيشتغلوا على المكنة اللي الراجل جه وقال عليها.

ولم يطل بي التفكير، وأخذت الخرزانة، وتركت الباب مفتوحًا على البهايم، ومشيت على السكة اللي رايحة على الغيط. وعلى رأس الغيط دفست الخرزانة في الأرض وأهلت عليها التراب. ومشيت أسأل كل من أقابله: «فين طنطا؟».

ولما وصلت طنطا سألت على سكة المحلة الكبيرة فدلني الناس على السكة، وقالوا لي: «امشي بجانب السكة الحديد، وتأتك ماشي لحد ما توصل». وواصلت السير بجانب شريط السكة الحديد. وقرصني الجوع وأنا ماشي إلى أن وصلت بلدًا اسمها «الرجدية»، وهي أول بلد بعد طنطا. وبجانب هذه القرية وجدت مصلية فجلست بجانبها أبكي، وتطلعت خلفي فوجدت المسافة بيني وبين طنطا كبيرة، فبكييت لأنني لم أعود الشحاتة ولم يسبق لي أن شحت. وتذكرت أمي والفراخ والبهايم.. زمان الناس سرقوا كل حاجة في البيت.. دلوقت أمي بتلطم.

وكلما تذكرت هذا ازداد خوفي من أمي، وازددت بكاءً بجوار المصلية. وبقيت على هذه الحال حتى أذان الظهر، وعند خروج المصلين رأني أحد الرجال فقال:

- مالك يا ولد بتعيط؟ إنت مينين؟ تعال معايا.

وأخذني معاه إلى البيت وقال لامرأته:

- هاتي للولد ده ياكل.. إنت منين يا واد؟

قلت:

- أنا من كفر الحما مركز طنطا.

- وإيه اللي جابك هنا؟!

قلت:

- أنا رايح المحلة الكبرى.

قال:

- ليه؟

- أصل الولد الغريب والولد السيد الصفطي راحوا يشتغلوا هناك وسابوني!

- وانت مالك بيهم؟ همّ قرابيك؟

- لا، همّ كانوا معايا في الكُتّاب.

قال:

- أمك عارفة؟

- لا.

- يعني انت هربان، هربان من أمك!

وصاحت زوجته:

- الله يلعن العيال وبلعن خلفهم! زمان أمك داخة عليك! إيه اللي موديك المحلة؟! عربية تهرسك ولّا حاجة! هات الحمار وخذه قدامك ووديه لأمه ينونا ثواب.

هنا تذكرت البيت اللي أنا سايبه، والفراخ اللي زمان الديابة كلتهم. وارتعدت فرائصي خوفًا من عودتي. وانتهزت فرصة انشغالهم في حل الحمار وأخذت بعضي ودورت الجري على بّره، والراجل يجري ورايا، وامراته تقول: «امسك يا جدع يا اللي ماشي، امسك يا جدع، الولد ده. الولد ده هربان من أمه.. الله يقطع العيال وخلفهم.. امسكي يا بت يا اللي جاية، امسكي الولد ده». ولكني طرت كالريح خوفًا من أمي.

وأخيرًا هدأت من سيرتي، وكلمات الولية ترن في أذني: «الله يقطع العيال وخلفهم.. زمان أمك داخة عليك». وواصلت طريقتي متجهًا نحو المحلة الكبرى. ومن بعيد رأيت المداخن، ورأيت الدخان يتصاعد منها.

وكلما اقتربت رأيت المباني العالية والدخان يملأ السماء وقلت لنفسني: «هنا يكون المصنع، هنا سوف ألتقي بالواد الغريب والواد السيد الصفطي».

الليلة الأولى في المحلة

اقتربت من مشارف المدينة. وفي أول طريقي إليها رأيت ناسًا كثيرين يملأون الشوارع. ناس زي الناس اللي شفتهم في بلدنا.. لابسين هدوم زي اللي بلبسها.. هدوم بلدي وصداري زي اللي إخواني بلبسوها. ورأيت عيالًا صغيرين كل واحد ماسك طرف جلابية الثاني وعاملين قطار زي اللي بنعمله في بلدنا. ومشيت أدقق في وجوه كل الناس، أتقل من رصيف إلى رصيف، باحثًا عن الواد الغريب والواد السيد الصفطي. وسألت بعض الناس: - فين

المحلة؟

- هي دي.

- وفين المصنع؟

- تانك ماشي في الشارع ده على طول، وحوّد في أول حوادية وامشي على طول يقابلك المصنع.

وصلت المصنع. وأمام بابه الكبير رأيت ناسًا كثيرين، كثيرين جدًّا، ترش الملح ما ينزلش! ووقفت أنظر في الوجوه، وجوه كل الواقفين باحثًا عن الواد الغريب والواد السيد الصفطي. وأحسست بإرهاق شديد من كثرة السير، فجلست على الأرض أستريح، فوجدت أقدامي متورمة. جلست أستريح وأنا أنظر في وجوه كل اللي جاين واللي رايعين. طال تأملي، وأحسست بالجوع يمزق أحشائي. أحسست بالغرابة عن أمي وإخواني. ووقفت أتأمل الوجوه من حولي وأتفرّسها. ورحت أحدث نفسي: «حاكل مينين؟ أشحت؟! أنا عمري ما شحت.. وأنا م فين؟!».

وقطع تأملاتي صوت صفارة لم أحتمل سماعها لشدة قوتها. وفتح باب المصنع الكبير. ودخل كل الناس اللي كانوا واقفين أمامه. ووجدت نفسي تسوقني الجموع إلى داخل العنابر. ورأيت ناس كثيرة تزق عربيات مليانة قطن، وناس واقفة على مكن كبير، وعيال تزق عربيات مليانة بكر. كنت لا أتطلع إلى المكان بقدر ما كنت أتطلع في وجوه كل من يقابلني باحثًا عن الولد الغريب والولد السيد الصفطي. دخلت كل العنابر فلم أجد أثرًا لأحدهما، فخرجت، ووقفت في حوش المصنع أتطلع في وجوه كل الناس الرايحين والجايين. وأوشكت الشمس على الغروب، وأنا واقف أتطلع إلى السماء تارة وإلى الوجوه تارة أخرى بعيون زائغة متطلعة إلى ما وراء الأفق. وجال بخاطري ما كان يردده أخي من أغاني الحنين إلى الأهل: يا عم دا انا غريب والغربة كايداني

والقلب والبين والأيام كايداني

أفكار قاتمة سوداء! وكدت أياس فلم أستطع منع الدموع من عيني. فجأة تبددت الأحزان والمخاوف، واختلطت الدموع بالابتسامات عندما وجدت يدًا توضع فوق عيني من الخلف، وبدًا أخرى تحتضني. كانت الأيدي هي أيدي من جئت من أجلهما. وبقينا لحظات كل منا ينظر إلى الآخر ودموع الفرح باللقاء تتساقط! وبعد فترة صمت، قال الولد الغريب: - إنت جاي مينين؟

- من البلد.

- جاي إزاي؟

- جاي ماشي.

- ماشي؟! يا نهار أسود! أمك عارفة؟

- أبدًا.

- رحنا في داهية. طيب تعال. إحنا رايعين نكلم الريس عشان يشغلك معانا. إحنا بنشتغل الأسبوع ده بالليل من الساعة ٨ للساعة ٧ صباحًا. والأسبوع اللي جاي بنشتغل بالنهار، من الساعة ٧ للساعة ٨ بالليل. إحنا بنشتغل على مكن بيغزل القطن. عملوا لنا قرش صاغ في اليوم، ولما تتعلم رايعين يزودونا. الريس قال لنا كده. إنت جعان؟

- ميت من الجوع.

- خد كل الأول.

أثناء الأكل سمعت صفارة، ولم أستطع إلا أن أسد أذنيّ من شدتها. فقال الولد الغريب: - الصفارة دي هي اللي بتنادي على العيال. دلوقت الساعة ٨، ودي آخر صفارة.

وأخذني فدخلت معه عنبر الغزل، ووجدته مليئًا بالعيال الصغار في مثل سني، لا يزيد عمر الواحد عن ١٠ أو ١١ سنة. وقفت كالتائه، أنظر إلى المكن تارة وإلى الأولاد تارة أخرى وهم يتدافعون جماعات، وفي يدي كل منهم أسطوانة مليئة بالبكر. وكان هناك آخرون يركبون البكر على الماكينات. وإلى جوار صندوق من الخشب وقفت أنظر إلى كل هذا دون أن أتحرك من الخوف.. شيء لم أراه قبل ذلك في حياتي. المكن طويل مرصوص، كل مكنة بجوار الأخرى في شكل جميل. والأطفال واقفون بين المكن بملابسهم المخططة الملطخة بالزيوت وهم يروحون ويجيئون، وكلما سقطت بكرة أسرعوا

يركبونها. ولكل ماكينة سير من الجلد طوله أكثر من عشرة أمتار يدور حول طارة. وإذا نظرت إلى السقف لا تستطيع أن تراه من كثرة السيور. وضجيج الآلات يجبر الجميع على سد آذانهم بالقطن. واختفت لغة مناداة العمال بالاسم وحلت محلها لغة الإشارة بالأيدي. وإذا أراد أحد العمال زميلًا زعق بصوت جهوري: «هوه.. هوه»، فيتطلع الجميع إليه، فيطلب العامل من يريد بالإشارة. كل هذا وأنا واقف في مكاني تائه. وإذا برئيس العمل يأتي ويطلب أن أسجل اسمي في دفتر كان بيده، وطلب مني أن أعمل مع الأطفال في تقليع المواسير من مكن الغزل.

وتقدمت وأنا في ذهول. وكلما نظرت إلى المكن وهو يدور لم أستطع الاقتراب منه. وعلى بعد، وقفت أنظر إلى الأولاد وهم يركبون البكر. ناداني المباشر ووقف يعلمني ويشجعني على الاقتراب من المكن شيئًا فشيئًا، إلى أن دخلت الطمأنينة قلبي، واقتربت من المكن. وشجعني على ذلك من سبقني من الأطفال، فاندفعت إلى العمل بحماس بدافع الغيرة. واندمجت في العمل إلى أن تمكنت من وضع يدي على بكرة وتركيبها والمكنة دايرة. وزاد هذا من ثقتي بنفسي، وبدد جزءًا من خوفي ومن الرهبة التي كانت مسيطرة عليّ. واندفعت ألتقط كل بكرة من أي مكنة وأركبها مكانها.

وفي النصف الثاني من الليل كان التعب قد أنهكني وأنا أغالب النوم. وحاولت المقاومة بوضع رأسي تحت حنفية ماء خوفًا من الرؤساء، ولكن دون جدوى، فجفوني قد تشابكت وغلبها النعاس مرة أخرى. فذهبت نحو صندوق البكر الكبير، ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت الصندوق خاليًا من البكر ومرصوص بداخله بدلًا من البكر أطفال نائمون، فألقيت بنفسي معهم ونمت. ولم أصح إلا على جرادل المياه التي انصبت علينا وأغرقت ملابسنا. صحونا

مدعورين، وإذا بالرؤساء أمامنا، فعاد كل منا إلى ماكينته جربًا. وبجوار إحدى الماكينات خلعت كل ملابسني، والتف الأطفال حولي وساعدوني على عصرها ونشرها على جوانب المكنة، وأنظارنا تتطلع إلى الرؤساء وهم يتمتمون بكلام لا نسمعه. وبجانب المكنة وقفت أنظر إلى الطرقات وفرائصي ترتعد من شدة البرد. ورأيت الأطفال وهم يجيئون ويروحون وقد هدهم التعب. رأيتهم وبأيدي كل منهم أسطوانة مليئة بالمواسير، وهم يسيرون ببطء متهاكين يتساندون على الحائط وعلى جوانب المكنة، وجفونهم قد تشابكت. ورأيت المباشرين يسيرون وفي أيديهم جرادل مليئة بالزهرة المبللة يلمطخون بها وجوه كل طفل نائم أو على وشك النوم. ورأيت الأطفال يتدافعون إلى دورة المياه بالعشرات لغسل الزهرة عن وجوههم. وحاولت التغلب على النعاس، ثم لبست ملابسني بعد أن بدأت تجف.

وانطلقت أتجول بين مكنة وأخرى. وكلما تجولت رأيت الوجوه تتطلع إلى السماء في انتظار طلوع الفجر. ومع بزوغ الشمس كانت السعادة بادية على الوجوه. سعادة بانتهاء الليل وانقضاء ساعات عمله الطويلة المنهكة.

استقبل العمال النهار بلغة المصنع: «هوه.. هوه.. هوه». صيحات تهز الجدران، وتطغى على زئير السيور وضجيج الآلات وهي تتردد من آلاف الحناجر في فرح واستبشار. رويدًا رويدًا بدأ نور الصباح الساطع يطغى على نور الكهرباء، واتجهت الأنظار نحو عقارب الساعة المعلقة على الحائط انتظارًا لتوقف عقاربها عند السابعة، وكلما اقتربت من الموعد هدأت النفوس.

وعدوت أبحث عن الواد الغريب وعن الواد السيد الصفطي وسط ذلك الحشد الهائل من الأطفال خوفًا من أن أتوه. عدوت نحو دورة المياه، وهناك وجدت عشرات الأطفال يضعون رؤوسهم تحت حنفيات المياه، وآخرين يمشطون

شعورهم استعدادًا للخروج، ووجدت الواد الغريب والواد السيد الصفطي، فأخذاني معهما، وتوجهت إلى باب العنبر. كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة السابعة. وفتح باب العنبر. وتلاقت الوجوه، وجوه عمال الليل مع وجوه عمال النهار. وتلاقت الأيدي بالسلامات. وبدأت عمليات تسليم الممكن. كل منهم يسلم الآخر: «كل شيء تمام».

وعدوت أنا والواد الغريب والواد السيد الصفطي في طريقنا إلى خارج المصنع.

الجثة المحشورة بين السقف والطاردة

خرجنا من المصنع، وقلت للولد الغريب:

- على البيت؟

- إحنا ملناش بيت.

- يا نهار أسود.. ملكمش بيت ازاي؟!

- أصل إحنا ما عندناش فلوس نسكن بيها.. لما جم وخذونا من بلدنا قالوا إن الشركة حتريحنا وتوفر السكن. إحنا صدقناهم. ولما جينا هنا قعدونا في حوش المصنع مع آلاف العمال اللي جابوهم من كل البلاد، وبعدها قالوا خلاص، شوفولكم سكن خارج الشركة. ولم يمهلونا، وطرّدونا بعد عشرة أيام من وصولنا. فخرجنا وكل واحد يحمل أمتعته، وسرنا في شوارع المحلة. كل جماعة من بلد واحد أجروا حجرة بخمسة وعشرين قرش في الشهر، وأصحاب البيوت هنا بيسكنوا العمال «بالراس»، إيجار الراس قرش صاغ واحد في الشهر. كل ٢٥ شخص يسكنون مع بعض، وأحيانًا ٣٠. ومعظم الجماعة من بلد واحد أو من بلاد متجاورة أو من مديرية واحدة. ولم تتمكن من إيجار حجرة لأننا لم نجد عددًا كبيرًا من بلدنا. كنا في بداية مجيئنا عشرة، ولم يبق منا غيري أنا والولد السيد الصفطي، ومعناش فلوس نأجر بيها حجرة، وجلسنا على الرصيف، وتجمع الناس حولنا، وأخذنا راجل طيب صاحب طابونة اسمه محمد الطباخ، وقال تعالوا معايا يا ولاد على الفرن لغاية ما تشوفوا سكن. في أسبوع عمل الليل ننام بالنهار على البحر تحت الشجرة، أما أسبوع النهار فننام في الطابونة.

قلت:

- إحنا حنموت بالطريقة دي.

فقال:

- فاضل ١٨ يوم على العيد. إن ما كانوش يعطونا زيادة نبقى نروح وما نجيش بعد العيد.

وصلنا إلى البحر. وقرب المستشفى الأميري، وتحت ظل شجرة صفصاف
قال الولد الغريب:

- هذا هو بيتنا المؤقت، اقعد.

كان الإنهاك يهد جسمي، فنمت نومًا عميقًا لم أصحُ منه إلا على أصوات
صرخات نساء. نظرت من حولي فرأيت عشرات النساء وكل واحدة تحمل
صفاً من الحلل والأواني، والكل منهنك في تنظيفها في المياه بالقرب من
بيتنا المؤقت. ورأيت عشرات من الشبان والأطفال عراة كما ولدتهم أمهاتهم
يسيروا على الشاطئ، ويتمرغون في الرمال، ويقفزون في البحر،
وبعكسون النساء ويرشونهن بالماء. وهذا ما دفع النساء إلى الصراخ
والشتيمة:

- يا ولاد الكلب يا شركاوية، من نهار ما جيتوا غلितوا علينا المش.

غلितوا علينا السكن. كنا مستريحين. كانت الواحدة تسكن في أوضة وجنب
منها عشر أوض فاضيين. وكان اللي عندها بيت تتحایل علينا عشان نسكن

عندها. النهارده بيطلبوا منا نعزل عشان يسكنوها بالراس. البيت بحاله كان
زمان بعشرة صاغ النهارده بيسكنوه بجنيه!

ومن نهار ولاد الكلب دول ما جم واحنا ما احناش عارفين ناكل! كانت الواحدة
منا بتروح السوق تشتري قفة البدنجان بقرشين صاغ، وكانوا يتحايلوا علينا.
النهارده مش ممكن نشترها إلا بستة أو بسبعة صاغ!

إلهي تنخرب!

وتواصل سيل الدعوات والشتائم ضد الشركة وضد العمال، واللي حدفهم إلى
هنا. وبقيت في مكاني مضطجعًا، أسمع وأنا مكاني تحت شجرة الصفصاف
إلى أن غلبنى النعاس مرة أخرى. ولم نصحُ هذه المرة إلا قرب بداية الوردية.

ونحن في طريقنا إلى المصنع، قال الولد الغريب موجّهًا كلامه إليّ:

- إنت عملت إيه إمبراح في الشغل؟ عرفت تشتغل على المكنة؟

- لسه. أنا عرفت بس أركب البكرة والمكنة دايرة.

- المباشر ما ضربكش؟

- لا. بس أنا لما كبس عليّ النوم رحت على صندوق البكر لقيت عيال كثيرة
مترصّة فنمت جنبهم، ولم نصحُ إلا على جرادل المياه تدلق علينا من
الرؤساء.

فقال الولد الغريب:

- إنت خايب. أصل العيال دول جداد. إحنا بنهرب في عنابر تانية وبنام.. وأول الكاتب ما يبجي ويكتب الأسماء بنزوغ على عنبر البرم وعنبر السحب وعنبر الكرد وعنبر التنظيف وعنبر النسيج، ولما نتعب من اللف نبجي تحت أي حيلة أو صندوق وبنام.. إحنا رايعين ناخذك معنا ونفرجك.

قلت:

- أنا عاوز أشوف مكن النسيج.

وكنا قد وصلنا إلى بوابة المصنع ونحن نشق طريقنا وسط زحام الآلاف الواقفة في انتظار توقف عقارب الساعة على الثامنة مساء، وهو موعد بدء العمل. وحولنا الباعة من الرجال والنساء يصيحون بصوت يصم الآذان: «القوطة المخللة بالتوم... البدنجان المخلل المحشي بالبهارات.. الجبنة البلدي.. الفجل والكرات...». أصوات لا تهدأ، كل واحدة وكل واحد عايز يخلص. الكل عايز يبيع قبل ما تدخل الجموع إلى العمل.

زعت صفارة الدخول في الثامنة مساء، وبدأ العمال يدخلون كلُّ متجه إلى عنبره، وفي يد كل واحد منديل مربوط على العيش، وفي اليد الأخرى ما اشتراه عند باب المصنع: بدنجان مخلل كل اثنين بمليم، أو كوم من القوطة المخللة كل ثلاثة باتنين مليم. ووصلنا إلى عنبر الغزل، واستقبلنا العمال بلغة المصنع: «هوه.. هوه.. هوه».. صيحات تغطي على زئير السيور وضجيج الآلات ابتهاجًا بانتهاء يوم العمل.

وأخذ الرؤساء يوزعون العمل: مجموعة تسمى عمال التقلية، وهم من العمال الجدد. ومجموعة أخرى تجلب لهم البكر. وعمال آخرون لكنس الأرض ولم المواسير من تحت المكن. وكنت أنا ضمن عمال التقلية. وكنت جادًا في أن

أتعلم الصنعة لأن العمال القدامى كانوا يتآمرون على العمال الجدد. وكان هذا يدفعني إلى أن أتعلم بسرعة تركيب المواسير ورش المكنة وتدويرها. وكنت أجري نحو كل عامل يدور المكنة كلما توقفت، وكلما دورت المكنة مرة أخرى كان هذا دافعًا جديدًا لي.

وبدأت أسأل الأطفال عن بلادهم، منهم من قال أنا من «الباجور منوفية»، ومنهم من قال من «دمياط»، وثالث من «تلا منوفية»، وآخر من كوم النور. وكانوا هم يسألونني عن بلدي فأقول أنا من «كفر الحما غربية». ونشأت بيني وبين الكثيرين صداقة، وخاصة حين يعلمون أن أبي مات دون أن أراه. ومنهم من ساعدني على تعلم تركيب البكر وتدوير المكن.

وطلب مني الولد الغريب أن أزوغ معه بعيدًا عن العنبر فرفضت، لرغبتني في أن أتعلم سريعًا من كل من تعلم قبلي، فتركني وذهب. ولم يمض وقت طويل حتى حضر المباشر وأخذني لكي أجمع البكر الواقع تحت ظهر المكن. ولرغبتني في سرعة العمل، دخلت تحت المكنة. وعند خروجي وجدت كل ملابسني ملطخة بالشحم والزيوت السوداء، ووقفت مذهولًا لا أقوى على الكلام لأنني لا يوجد معي من يغسل ملابسني. وسرحت بخاطري نحو أمي التي لم تكن تحب أن تراني هكذا، فبكيت. ولم يترك لي المباشر فرصة للتفكير، ولا حتى للبكاء، وأمرني أن أكنس الأرض متظاهراً بعدم رؤية ملابسني.

وفي النصف الثاني من الليل، تهالك جسدي، وغلب النعاس عيني، وحاولت المقاومة خوفًا من الرؤساء بغسل وجهي في دورة المياه، ولكن دون جدوى، والرؤساء في هذه الساعة يشيرون القلق والخوف في النفوس. كانوا يحملون جرادل بها شحم ويسيرون بين المكن وفي الطرقات لدهن وجوه كل

من يغلبهم النعاس، وهم كثيرون. وكان النعاس يغلب كل من لم تتوفر له وسائل الراحة في بيته. وهذا ما كانت تتحدث به العمال:

- أصلنا ما بنامش بالنهار.

- إحنا رايعين ننام فين يا عم. الواحد بينام وحاطط إيده على قفة العيش أحسن تتسرق.

- هو احنا عارفين ننام واحنا عشرين ساكنين مع بعض في أوضة! يلعن أبو دي شغلة! دا الواحد يروح البلد أحسن ولا البهدلة دي.

- تصور أنا ما لقيتش حته أنام فيها امبارح، رحتمت في عربخانة.. «عربخانة بهائم»!

- إنت نمت مع البهائم؟

- أيوه، نمت مع البهائم، شوف يا سيدي. في المحلة فيه سوق التلات، والسوق ده بتيجي له ناس كثير: الحاوي يبجي عشان يظهر مواهبه، والقرداتي يبجي عشان يلعب ألعابه.. كل دول يبجوا يوم الاثنين عشان يحضروا السوق يوم التلات. كل دول بيناموا في العربخانة. وأنا كمان ومعايا ناس كتير لم نجد مكانًا ننام فيه فرحنا ننام في هذه العربخانة مع البهائم.. تصور، ننام مع البهائم! طبعًا مش ممكن نعرف ننام. وبعدين نيجي عشان نشغل ١٢ ساعة. يا عم دي شغلانة منيلة! لازم نيجي هنا ننام! وآخرتها الرؤساء يلطخوا وشنا بالزهرة ويسودوه بالشحم.

- ليه يا عم؟! ضحكوا علينا وجابونا من بلادنا وقالوا احنا حنريحكم. هي دي الراحة؟!

- المباشرين دول أول العمل ما بيبدأ يروحوا موزعين العمال على الممكن
وتبص ما تلاقيهومش. يروحوا يناموا ويشبعوا نوم ويبجوا بعد نص الليل
يضربونا ويبهدلونا بالشحم والزهرة والميه.. دول أندال يروحوا يناموا ويشبعوا
نوم وبعدين يبجوا يشبعوا الرعب فينا.

- هو حد قادر يحوش النوم، النوم سلطان، تعال شوف العيال نايمين فين،
شوف الرعب خلّى الولد حاشر نفسه فين.. في الأسطوانة.. أسطوانة من
بتوع البرم.. ليه عمل كده؟ عشان الليل طويل، ١٢ ساعة.. وهوّ طول النهار
في الشارع فلازم يبجي هنا ينام.

- تعال شوف كمان.. آدي صناديق مكفية.

إللي يشوفها يقول مفيش تحتها حاجة.. تعرف تحتها إيه؟ تحتها عيال نايمين.

قلت:

- دول ممكن يموتوا كده!

قال:

- هو اللي بيموت هنا حد يسأل فيه؟!

قلت:

- إزاي؟! هوّ مفيش قوانين؟! مفيش حكومة؟!

قال:

- حكومة مين يا عم؟ مش شايف الناس عينهم نصف نايمة من التعب ازاي؟
تعال لما نقلع الوش ونرش المكنة.

وبينما نحن منهمكون في العمل وإذا بأطفال ورجال يجرون إلى وسط العنبر وصياحهم يغطي على ضجيج الآلات: «واحد مات! واحد مات! السير خطف واحد! علقه في سقف العنبر! الدم نازل يشرشب! الدم نازل على العنبر!».
وجريت أنا أيضًا في نفس الاتجاه، ووجدت مئات العمال وقد وقفوا صامتين وعيونهم كلها على الجثة وهي محشورة بين السقف والطاردة المركب عليها السير، والدماء تتساقط بغزارة ملطخة المكن المجاور.

وبسرعة، أحضر العمال السلم العالي الخاص بالكهرباء، وانتزعوا الجثة المحشورة بين السقف والطاردة. ولم يتمكنوا من إنزالها برفق، فسقطت من بين أيديهم على الأرض. وازدادت وجوه العمال شحوبًا من هول المنظر، وخاصة بعد أن غطيت الجثة بالخيش.

فقد العمال القدرة على مواصلة العمل. كانت أبصارهم جميعًا معلقة بالجثة، والأعصاب محطمة، والفرع يسود، والقرف يستولي على العمال ويتحول إلى حقد على المكن وعلى السيور.

وتوالت أحداث من هذا النوع تثير الفرع بين العمال: خمسة عمال آخرين من عمال الشلل كانوا يركبون السير فلفهم بين السقف والطاردة، فماتوا بعد أن تحول العنبر إلى بركة من الدماء. والكل أصبح ساخطًا على المصنع وعلى المكن. ويتضاعف السخط كلما حدثت حوادث أخرى من هذا النوع.

وازدادت الهمسات بين العمال:

- المكن لما يخرّب ما يشتغلش إلا لما يزفر بدم بني آدم!

- إحنا زمان لما كانت مكنة الطحين تخرّب، كانوا يسرقوا لها عيل عشان
يدبحوه ويزفروا بيه المكنة، وعشان العفاريّت تنطط، وتنطيط العفاريّت هو
اللي بيدور المكن.

كانت أهالينا ما تخليناش نروح نواحي مكن الطحين.

وآدي احنا النهارده جايين لحد المكن برجلينا!

- الواحد يروح أحسن يشتغل ويحرث الأرض ويطلع غلة أحسن من الشغلة
دي!

- تصور الواحد منا زي الفحل ويشتغل بتلاتة تعريفة من الصبح لحد نص الليل..
الواحد لما يروح وبموت على فرشته أحسن ما يموت غريب.. هو حد عارف
الناس اللي ماتت دفنوها فين؟!

- المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين. وآدي احنا بنشتغل لحد العيد، ولما
نقبض نروح، وإذا كان ربنا قاسم لنا نرجع تاني حنرجع.

أحاديث.. وأحاديث.. والأيام تمر. وكل يوم نرى عربات محملة بالمئات قادمة
من قرى متعددة تملأ الحوش المعد لاستقبال العمال الجدد.

مع الشحاتين

قبل انتهاء يوم من أيام العمل علقت على جدران العنابر وفي الطرقات
إعلانات تقول:

بناء على رأي الفنيين، أصدر المدير العام أوامره بصرف خمسة مليمات
علاوة لكل عمال الغزل والسحب والكرد والتنظيف والشلل، ما عدا عمال
النسيج.

واستقبل العمال هذا المنشور بالتهليل والفرح، وأصبح لا حديث لهم إلا عن
هذه الزيادة. ومنهم من قال: «يلاً يا عم.. بعد الواحد ما كان حيقبض ١٥ قرش
حيقبض ٢٢.٥ قرش».

وآخر: «أهو الواحد دلوقت حيقبض ٣٠ قرش بعد ما كان حيقبض ٢٢.٥ قرش
في الخمستاشر يوم. أهو دلوقت الواحد أصبح عنده أمل، دي بركة العيد».

وثالث: «شيء أحسن من لا شيء».

وقال الولد الغريب:

- إيه رأيك؟ حظك عال.

جاياك علاوة ٥ مليمات أهوه. مش قلناك الريس حيجيب علاوة للعمال..
أهي جات العلاوة يا عم.

قلت:

- علاوة إيه؟ إنتم ما شفتوش العيال اللي ماتوا؟ زمان أمهاتهم بيلطموا.. أنا عايز أسيب العنبر ده، الممكن بتاعه بيموت العيال. الواحد يروح عنبر النسيج أحسن، الممكن فيه صغير وما حدش مات فيه، كمان الأجر هناك أحسن من الغزل. الواحد أجره خمسة وعشرين مليم.. خمسة تعريفة.. ولما أم الواحد تقول له: إنت بتشتغل فين؟ يقول: أنا باشتغل في النسيج، باعمل القماش اللي انتم بتلبسوه. الواحد يشتغل في حاجة مفيدة.

هو الغزل ده حد بيلبسه؟

ورد الولد الغريب:

- ما هو من غير الغزل ما يقاش فيه قماش.

- أنا عارف. بس مكن النسيج مفيش حد بيموت فيه. أنا كرهت عنبر الغزل.
لازم نشوف عنبر تاني!

- طيب لما تيجي بعد العيد، أهو فاضل خمسة أيام على العيد، وحنقبض ونروح ومش عارفين أمك حترضى تخليك تيجي معانا ولّا لأ. زمان أمك داخت عليك. زمانهم فكروا إنك غرقت في البحر وعملوا عليك محزنة.. إحنا ملناش دعوة.
إنت اللي جيت لوحدك.

وسرحت لحظة أفكر في أمي. وكانت وردية الليل قد انتهت ونحن متأهبون للخروج من المصنع. قال الولد الغريب:

- وردية الليل خلصت، وما عدناش حنام ع البحر.

من بُكرة حنشتغل بالنهار من ٧ صباحًا حتى ٨ مساء.

١٣ ساعة في اليوم آهو يا دوب الواحد يصحى من النوم ويروح الشغل وما يجيش إلا نص الليل. بعد ما ياكل يا دوب ينام.

- واحنا رايعين ننام إزاي في الحر ده؟

- نعمل إيه؟ لازم نستحمل ما احنا غلابة معناش فلوس. مش كتر خير الراجل ده اللي بينمنا في الفرن ببلاش. آهم يومين فاضلين ونروح ولما نيجي بعد العيد نشوف لنا سكن.

وكنا قد وصلنا إلى الفرن، فوجدنا ناسًا كثيرين: إلهي بيخبز، واللي بيعجن، واللي ببشيل عيش وبحمل على عربية. وناس كثير داخلين وطالعين: إلهي ببشيري عيش، واللي معاهم صواني وصاجات فيها كحك عشان العيد. واستقبلنا صاحب الفرن قائلاً:

- إنتم جيتوا؟ كنتم فين من زمان؟

- كنا بنشتغل بالليل وننام تحت شجرة الصفصاف على البحر من الصبح لحد المغرب. خلصنا وردية الليل ورايعين نشتغل بالنهار، وجايين عشان ننام هنا على الفرن.

- أهلاً وسهلاً. إنتم عارفين الحته اللي انتم بتناموا فيها. يلاً على هناك. إوعى حد يبجي ناحيتكم من الناس اللي بتنام هنا من الشياطين والشحاتين، وإذا حد جه كلمكم ابقوا تعالوا قولوا لي.

ودخلنا على الفرن فوجدنا ناسًا كثيرة، معظمهم بملابس ممزقة، وبجوار بعضهم زلط من النوع الكبير. ولم تكن هذه المناظر غريبة بالنسبة لي، فقد سبق لي أن رأيت مثل هذه المناظر في بلدنا والبلاد المجاورة. رأيتهم وهم

يحملون الزلط نصف عراة ويخبطون به على صدورهم قائلين: «عشا الغلابة عليك يا رب». وكنت أسير خلفهم عندما كانوا يأتون للشحاة في بلدنا. وكنت أسرق العيش من أمي وأعطيتهم. مثل هذه المناظر لم تكن غريبة، ولكن الشيء الغريب الذي أحزنتني وأبكاني هو أنني لم أكن أتصور ولا أتخيل أنني سوف أنام مثل هذه النومة: مرة على البحر، ومرة على الفرن.. دونما سبب. ودارت بي الدنيا، وحزنت، وازداد حزني كلما نظرت إلى الذين ينامون خلفي وبجانهم أدوات الشقاء التي يكسبون بها قوتهم اليومي. وتساءلت: لماذا لا يعملون معنا في المصنع؟ ولم أقدر أن أوجه إليهم هذا السؤال فنمت.

صحت على صوت الولد الغريب وهو يقول:

- يَلَّا يَلَّا.. إحنا حنقبض النهارده. مفيش شغل، مفيش شغل، فيه إجازة العيد.

وذهبتنا إلى المصنع فوجدت آلاف العمال في انتظار صرف الأجور، فجريت وسط هذا الحشد الهائل أسأل عن عمال الغزل. وبصعوبة، تمكنت من الوصول إلى المكان الذي يتجمعون فيه انتظارًا للرئيس الذي ذهب لإحضار النقود.

وقفت معهم ناظرًا إلى ما حولي من حشود هائلة متجمعة في حلقات: حلقة لعمال الغزل، وأخرى للنسيج، وثالثة للسحب، ورابعة للكرد، وخامسة للبرم، وسادسة لعنبر التنظيف.. الكل متجمع في حوش كبير كان هو بداية العمل في المصنع، معد لاستقبال العمال الجدد الذين لا سكن لهم، وهو الآن ملعب للكرة.

وبدافع المعرفة رحت أتجول بينهم، وكانت الهمسات الدائرة:

- همَّ رايجين يجيبوا لنا الفلوس إمتى؟

- هَمَّ رايحين يموتونا من الجوع؟

- إحنا حنقبض العلاوة ولَّا لأ؟

- هَمَّ رايحين يحسبوا العلاوة من أول المدة ولَّا من أول ما قريناها في المنشور؟

همسات، وهمسات، وأسئلة حائرة.. وآخرون يقولون:

- علاوة إيه يا عم؟ الحمد لله اللي احنا رايحين نروح بالسلامة لإخواتنا وأولادنا، دي عاملة زي المستشفى، الداخلى مفقود والخارج مولود!

- آدي احنا جنبنا مصاريف العيد.

ومن بعيد، رأى العمال الرؤساء وهم يحملون أكياس النقود قادمين في اتجاههم، ولم يتمالك العمال أنفسهم من الفرحة. وبدأ كل رئيس يأخذ مكانه وسط عماله. وقبل بدء الصرف، طلب الرؤساء من العمال الهدوء والوقوف صفوفًا كل وراء الآخر.

وبدأ الزحام في الصفوف، واختل النظام أكثر من مرة، وحدثت تشابكات بالأيدي. الكل مستعجل، الكل عايز يقبض ويروح.

وازدادت الاشتباكات مرة أخرى. وتدخل الخفراء بالعصي، وكثيرًا ما هدد الرؤساء بالتوقف عن الصرف ما لم يحفظ النظام.

وانتهزت حالة الهرج والمرج وتمكنت من الوقوف في الصفوف الأولى بعد جهد شاق، وبعد أن أصابتنى عصي كثيرة على ظهري. وبعد لحظة كنت أمام المختص بصرف الأجر، ومددت يدي فناولني مبلغ بريزتين (٢٠ قرشًا) وثلاثة

قروش صاغ، قيمة عمل ١٥ يومًا. لم أصدق نفسي، ووقفت أمام الرجل في
ذهول. ولم أنتبه إلا على صوت الرئيس وهو يقول:

- إوعى حد ياخذ منك الفلوس.. طبق إيدك عليهم كويس.. إوعى حد يسرقك!
انصرفت. وكلما سرت خطوة فتحت يدي للتأكد من أنني أملك كل هذه النقود.
أول مرة أحصل على هذا القدر من النقود كأجر على عمل أديته.

خرجت من باب المصنع في اتجاه الفرن في انتظار الولد الغريب والولد
السيد الصفطي. وبعد فترة جاء الاثنان. وجلسنا نفكر. وكانت الفرحة بادية
على وجوهنا؛ إنها أول مرة نشعر بأننا حنوح وحنعيد. ودفع كل منا ١٥ قرشًا
لصاحب الفرن، كنا قد أخذناها منه طوال تلك المدة التي قضيناها. وتبقى مع
كل واحد ٨ قروش صاغ. ولما حسبنا كم سيبقى مع كل منا لو سافرنا
بالقطار، ودفعنا ٣ قروش صاغ، قررنا أن نروح من المحلة إلى طنطا سيرًا
على الأقدام، موفرين بذلك ثمن التذكرة لتبقى معنا مصاريف العيد.

عودة الغائب

في النصف الثاني من الليل، وتحت ضوء القمر واصلنا السير. وكانت الرياح الباردة منعشة محببة، والسماء الزرقاء الصافية تنبئ بطلوع الفجر، والبهجة تملأ قلوبنا وتتزايد كلما قطعنا شوطاً أكبر من الطريق الطويل، إلى أن وصلنا طنطا مع شروق الشمس.

ذهب الولد الغريب إلى أخيه العامل في بلدية طنطا. وذهب الولد السيد الصفطي إلى أبيه الجنائني في بيت مدير المديرية. ومضيت وحدي، في استياء، متجولاً من شارع لشارع وسط زحام الذين أتوا من القرى المجاورة لشراء احتياجات العيد. الشوارع ملاءة عربات محملة بندق ولوز، وأخرى بطاطس وقوطة، وقفف ملاءة كرنب، وطشوط ملاءة سمنة، وناس تبيع وناس تشتري، وعربات أخرى ملاءة مناديل حريمي ومناديل رجالي، وصنادل وأحذية للأطفال.

وصلت إلى شارع كفر حصان الذي يوصلني إلى الطريق لبلدتنا، كنت سائراً أتأمل في الوجوه التي تقابلني، ولم أشعر إلا وأيدي ناعمة تقبض عليّ وتمسكني من ملابسني التي طمست الزيوت زهوتها، وهي تقول:

- طبطناك! إنت كنت فين يا واد؟ الدنيا داخت عليك! تعال!

كانت أيدي البت رقية، صديقة أختي، وشعرت برعشة هزت كياني، وتذكرت كل ما كنت قد نسيته، تذكرت أنني تركت باب منزلنا مفتوحاً وهربت. ودارت بي الدنيا، وخفت من المصير وجلست بجانبها، فاطمأنت وإذا بها تنادي: «يا

بت يا زينب، يا بت يا فاطمة، الولد فكري ابن أمك السيدة البناية أهوه، أنا لقيته»، فازداد خوفي فنتشت ملابسي من يدها وجريت.

كان كل شيء بالنسبة لي محيرًا: كيف سأقابل أمي بعد هروبي وتركى الباب مفتوحًا؟ وهل يمكنني ألا أعود إلى البيت؟ وأين أذهب؟ كان الأمر بالنسبة لي غامضًا وغريبًا. وتذكرت الخرزانة التي أعطتها لي أمي عندما طلبت مني أن أحرس البيت وأمنع الفراخ من الخروج للشارع. وقلت لنفسى: «لِمَ لا أذهب لأخذ الخرزانة من الغيط. النهارده وقفة العيد ومفيش حد في الغيط. الكل مشغول: أمي بتطبخ، وأختي زمانها جنب الخياطة».. وسرت في اتجاه الغيط متجنبًا الشوارع التي من المحتمل أن يكون بها ناس من بلدنا خوفًا من القبض عليّ، وأخذني إلى أمي. وأنا في طريقي إلى الغيط رأيت بعض النسوة يحملن على رؤوسهن ما اشترينه للعيد، ويسرن أمامي إلى قريتنا، سرت بعيدًا عنهن بخطوات لتجنبهن، واستمررن في طريقهن يتحدثن عن العيد، وعن هدوم العيال اللي عند الخياطة. وأنا على بُعد خطوات منهن، متطلعًا إلى الغيط، متمنيًا أن أصل وأخذ الخرزانة، إذا بي أجد - على البُعد - أختي آتية من البلد في طريقها إلى الغيط وأمامها حمارنا محملاً بنقلة من السبخ. ولشد ما كانت دهشتي عندما رأيت أختي تلبس ملابس سوداء، الشيء الذي لم أكن أتوقعه. أختي صغيرة، ولم تتعود أن تسير بملابس سوداء، والنهارده وقفة العيد، وكل الناس تشتري حاجات العيد، والعيال جنب الخياطة. أختي ليه لابسة ملابس سوداء؟ وليه معصبة رأسها بطرحة سوداء؟ ماذا حدث؟ ودارت بي الظنون والهواجس، هل مات أحد؟ ومَن هو؟ هل البهايم سُرقت؟

لم يطل بي التفكير، فأختي تقترب، وملامحها تبرز، وتتمتم بكلام غير مسموع، ووقفت تحت شجرة التوت، وإذا بي أجد النسوة اللاتي كنت ماشيًا خلفهن

يقلن بصوت واحد:

- يا بت يا خسكية.. يا بت.. إحنا لقينا أخوكي، إحنا شفناه عند واپور الجبانه،
كان واقف عند واپور الطحين.

لم تنتظر أختي بقية الكلام. قلبت نقلة السبخ في نفس المكان وصاحت
بجنون وكأنها فقدت عقلها:

- فين؟ فين؟

وأطلقت العنان للحمار، وركبت فوقه، وهي تقول: «آه يا اخويا..». وحاولت أن
أخفي نفسي تحت شجرة التوت. وأحسست بعدو الحمار نحوي مسرعًا،
فتخيلت أن أختي قد رأته، فجريت كالريح وسط الأرض الشراقي مطرح
الغلة، لم تكن أختي تتوقع أن تراني، فكانت مفاجأة. ولم تعرفني إلا من
ملابسي، وأطلقت العنان للحمار يجري ورائي في قلب الشراقي، وهي
تزعق:

- يا اخويا.. يا واد يا فكري.. يا واد تعال لأختك... آه يا اخويا، ما تخافش يا واد!
ولم تستطع اللحاق بي لولا أن تعثرت قدمي وسط شق من شقوق الأرض،
فانكفيت على وجهي، وسال دمي.

واصلت أختي صراخها:

- آه يا اخويا.. آه يا اخويا.. قوم لأختك يا وله!

وانكفت عليّ وهي تبكي قائلة:

- قوم يا وله! قوم يا وله!

ورفعتني من على الأرض، ماسحة وجهي بشاشتها السوداء قائلة:

- بص في وش أختك يا وله.. إنت كنت فين؟ بوس أختك يا وله بوس.. آه يا اخويا.. كل الناس النهارده بتعمل كحك، واحنا ما عملناش عشانك. النهارده الوقفة، وكل الناس بتطبخ وفرحانة، وأمك بتفحت في الزريبة وبتشيلني سبخ، كل ده عشانك.. آه يا اخويا! كل العيال جنب الخياطين عشان ياخدوا هدومهم وأمك ما جابتليش، كل ده عشانك!

وراحت قاعة الطرحة السوداء من على رأسها، وهدت الشدة اللي كانت مشدودة بها، وضممتني في حضنها في حنان وهي تقول:

- قوم يا واد اركب قُدامي.. آهو دلوقت بس إحنا حنعيِّد!

أحسست بمعنى العيد عندما وصلت إلى البيت، إلى أحضان أُمي.

وحكيت لأُمي كل ما حدث لي طوال تلك الفترة: حكيت لها عن نومي تحت شجرة الصفصاف على البحر، وعن نومي على الفرن فترة أخرى، وعن المصنع، وعن الممكن. وطلبت من أُمي أن أعود للعمل في المصنع، وكنت واثقًا من أنها ستوافق ولكنها لم تفعل، وقالت لي بغضب:

- إزاي تبعد عني تاني؟! وانا ما نمتش طول ما كنت غايب! كنا حزانى من غيرك!

وبكت أُمي، ولكني ألححت عليها. وأمام إلحاحي، وتدخل كثير من أقاربي، قبلت أُمي، وبدأت تُعد لي احتياجات السفر، وحضرت بعض المأكولات لآخذها

معي، وأعطتني بعض النقود بالاشتراك مع أم الولد الغريب، والولد السيد
الصفطي، أجرة للحجرة التي سنسكن فيها خوفًا علينا من النوم تحت شجرة
الصفصاف أو على الفرن.

وفي يوم السفر، خرجت أُمي مع عدد من أقاربي ومع إخواني لتوديعي..
وطوال الطريق كانت أُمي تبكي وتقول:

- إيه اللي زانقنا على الغربية دي؟! إلهي مكتوب على الجبين لازم تشوفه
العين!

وعلى المحطة، وسط زحام المسافرين، دخل القطار، فركبت، طللت من
الشباك على أُمي وإخواني، وكان الولد الغريب والولد السيد الصفطي
بجانبي، وأُمي تقول:

- خلوا بالكم من نفسكم... إوعوا تروحوا ناحية البحر.. إلهي ترجعوا لنا تاني
بالسلامة!

وفجأة زعق الباجور على السفر فبكت أُمي وقالت:

- إنت حتيجي لنا بعد كام يوم؟

وسار القطار ببطء، وأُمي وإخواني يجرين خلف القطار، ويشاورن ويلوحن
بأيديهن، ولم تستطع أُمي ملاحقة القطار، واختفت عن الأنظار.

بيت عبد المعطي

كان أول عمل عملناه بعد وصولنا إلى المحلة هو البحث عن حجرة للسكن. ولم يكن هذا سهلاً من كثرة الزحام وتحكم أصحاب المنازل. وبعد جهد شاق تمكنا من الحصول على حجرة بمنزل عبد المعطي. وبدأت أشعر بالراحة والطمأنينة. وعندما فرشت حصيرتي بالحجرة أحسست باسترخاء، ونعست من كثرة التعب، ولم أصح إلا على صوت صاحبة المنزل وهي تقول: - الساعة بقت ستة، اغسلوا وشكم يا ولاد واستعدوا للمصنع.

وفي طريقني إلى دورة المياه وجدت نفسي وسط ثلاث حجرات، في كل منها أكثر من ٢٠ ساكنًا، وكلهم في حالة استعداد: إلهي بيطلع عيش من القفة ويلفه في منديله لأخذه للغداء في الشغل، واللي واضع أمامه رغيف وفوقه قطعة من المخلل أو الجينة وعمال ياكل، واللي ماسك مسلة ملضوم فيها دوبارة ويخيط على العيش في القفة خوفًا من الضياع أو السرقة. وكانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف صباحًا، فأخذت منديلي تحت باطني، وبه ثلاثة أرغفة وقطعة من الجبن، هي غداي وفطاري. وخرجت من الحجرة، وإذ بي أجد نفسي وسط هذا العدد الضخم من سكان الغرف المجاورة، ووجدنا أنفسنا نتكلم ونحن في الطريق إلى المصنع، فسألت أحد العمال: - إنت

مينين؟

- من طاطاي.

- وانت؟

- من كوم النور.

- وانت؟

- من تلا.

- بتشتغل فين؟

- في المصنع.

- ما انا عارف.. فين يعني؟

- عتال.

- عتال إيه؟

- ما انتش عارف عتال إيه؟

- لا.

- عتال يعني أشيل قطن على عربية من عنبر التنظيف وأوديه عنبر السحب.

- بتاخذ كام في اليوم؟

- قرشين صاغ بعد العلاوة الأخيرة.

- وانت بتشتغل فين؟

- في الشلل.

- وانت؟

- في النسيج.

- بتاخذ كام؟

- خمسة تعريفة في اليوم.

- إنتم كلكم من بلد واحدة؟

- لا.

- أمال إيه اللي خلاكم تسكنوا مع بعض؟

- مفيش.. إللي خلانا نسكن مع بعض هو إن الواحد ما يقدرش يأجر أوضة لوحده، ولا اتنين ولا ثلاثة.. الأجر ما يكفيش، وعشان كده أصحاب البيوت بيسكنوا بالراس. إللي عندها حته أوضة بتحاول تملها وتحشرها عشان تاخذ فلوس أكثر. كل واحد عاوز يسكن بيمشي ويسأل اللي عندها مكان فاضي يسكن فيه، فتطلع صاحبة البيت، وبتفق معاها، ويخش، وأهو، آدي احنا بتتعرف على بعض.

- كام انتم؟

- إحنا عشرين في كل أوضة.

وصلنا إلى المصنع، ودخل كل منا عنبره بعد غياب استمر أكثر من أسبوع قضيناه في البلد، فوجدنا المكن مليئًا بالزغبار، وكان أول شيء عملناه هو مسحه. وبدأت الموتورات تدور، وتحركت السيور معلنة بدء يوم العمل، وأخذ كل منا مكانه. وبدأ العمال الأكثر مرآة يضعون أيديهم على الفرامل، وفي بطاء شديد تحركت الأيادي نحو تحويل السيور من على البطال إلى العمال

من أجل حماية الخيوط من التقطيع. وكان هذا من مستلزمات تحويل الفرملة
ببطء.

وبدأ عمال التقلية يستعدون لجمع الصناديق المليئة بالمواسير الفارغة،
ووضعها بجوار الممكن استعدادًا لتركيبها بدلًا من المواسير التي ملئت. وعمال
آخرون يوصلونها إلى عنبر اللحمة الذي يوصلها بدوره إلى عنبر النسيج.

وكان العمل يسير بحماس، وخاصة في الساعة الأولى من النهار.
والمباشرون في حركة دائمة خلف العمال يُكروهونهم على العمل تارة،
ويضربونهم تارة أخرى، محاولين بذلك إرضاء رؤسائهم الكبار.

ورويدًا رويدًا يبدأ الحماس يفتر، وخاصة بعد الثالثة ظهرًا، بعد أن يكون التعب
قد نال منهم. فالكثير يجلس على الأرض، وآخرون يتساندون على الحائط،
والبعض يهرب من العمل ويزوغ في عنابر أخرى منتظرين مرور الكاتب الذي
يقيد لهم يومهم. والحركة السريعة تبطئ، والكسل يضرب أطنابه كلما أحس
العمال بالتعب والإرهاق وأحسوا بطول يوم العمل. حتى المباشرين أنفسهم
كانوا ينتهزون فرصة غياب رؤسائهم الكبار ويزوغون بين دواليب الملابس،
معطين الحق لأنفسهم دون خوف، والعمال يراقبونهم، فإذا بدأوا يتحركون
للمرور على الممكن أعطوا لبعضهم الإشارات تفاديًا لأي أذى.

وكثيرًا ما كان الحديث حول الأجور يجري بين العمال: العامل الذي تمرن يرى
أنه صاحب حق في علاوة أكثر، والعامل الذي في حاجة إلى تمرين يرى أيضًا
أنه صاحب حق في علاوة وأن أجره لا يكفي. وتزداد الأحاديث شدة: - يَلَّا يا
عم، هو حد عارف حاجة، إللي بيشتغل زي اللي ما بيشتغلش.

- إلی واقف طول النهار علی المکنة زی الی طول النهار هربان. دول ما بیجوش إلا وقت الکتب ما بیجی! دا الواحد إن ما کانش خایف من ربنا کان یزوغ هو کمان وما یشغلش.

- الواحد ما بیصدق إن النهار یخلص ویروح.

- دا الواحد علی بال ما بیروح ما بیعرفش یشتنی صاحبه خمس دقائق وینام من التعب!

- طول النهار الواحد واقف علی رجليه من الصبح لحد بعد العشاء، من الساعة ٧ الصبح لحد الساعة ٨ باللیل! والواحد رایح یموت! دا ما کانش کده فی البلد، دا فی البلد لما کان الواحد بیشتغل من الصبح لحد الضهر کان بینام أو یستریح، أما هنا فمفیث راحة!

قاربت الساعة الثامنة مساء، وهو موعد انتهاء وردية النهار. وإذا بالولد الغریب والولد السید الصفطی یمسکان بیدي ویقولان: - تعال لما نتشطف علسان الوردية بدأت تخلص. إنت هامك نفسك لیه أوی كده فی الشغل؟! هم رایحین یدوك نیشان؟! دا احنا طول النهار عمالین نلف فی المصنع نتفرج علی النسیج وعلی المکن الی بیبض القماش وبعمل فیہ نقش زی الشیت الی بتلبسه العرایس فی البلد، واتفرجنا علی الدیزل الی بیشغل المصنع كله بالكهرباء، وعلی عنبر الزوی الی ملیان میه والعمال فیہ واقفین لابسین خیش. طول النهار عمالین نتفرج علی كل حاجة وانت واقف مرشوق علی المکنة ما بتتحركش.

قلت:

- أنا عايز أتعلم تدوير المكنة، وأركب البكر المليون وأشيل البكر الفاضي
والمكنة شغالة، زي العيال اللي اتعلموا، علشان المباشرين ما يشغّلونيش
كل ساعة على مكنة. أنا عايز أتمرّن كويس عشان أقف على مكنة على طول
وأسيب الشغلة المهيبة دي، شغلة عامل التقلّيع.

قال الولد الغريب:

- هي دي شغلة؟ دا الواحد ما بيخشش العنبر ده إلا وهو ماسك قلبه بإيده، دا
المكنة عاملة زي الداهية، دا الواحد خايف يبجي ناحيتها، دي كل يوم بتموت
واحد! هو احنا بنهرب من شوية! إيه اللي زانقنا على الشغل؟! ما احنا نيجي
ونقبض زينا زي اللي واقف طول النهار بيشتغل.

قلت:

- طول النهار باسمع كلام زي ده.. يعني لو كل واحد ساب المكنة وهرب، مين
اللي حيدورها؟ ما همّ رايحين يدوروا علينا ويجيبونا.

قال الولد الغريب:

- يا عم.. دا كل يوم العربيات بتحول عيال ورجال من كل البلاد، هي رايحة
تيجي علينا؟ إحنا عايزين نشوف شغلة غير دي. إحنا عايزين نشغل في
النسيج أحسن، هناك ناخذ أجرة أحسن ونبعد عن المكن اللي بيموت كل يوم
عيل.

وتساءلت في نفسي: «لماذا لا أتجاوب معهم في البحث عن عمل أحسن
طالما هذا في الإمكان؟». واقتنعت بالفكرة، وكان عليّ أن أبحث من جانبي.

كنا قد وصلنا إلى المنزل منهوكي القوى من طول يوم العمل. وأخذت طبقًا، وذهبت لشراء فول بخمسة مليمات لثلاثتنا. ولم أتباطأ في الطريق. ولما عدت دهشت عندما وجدت الاثنيين غارقين في النوم تاركين باب الحجرة مفتوحًا، فحاولت إيقافهما، فاستيقظا بعد جهد شاق. وعندما وضعت الأكل بيننا غالبهما النعاس من جديد، وتشابكت جفونهما وهما جالسان ورأساهما يهتران. وكلما قطعنا لقمة محاولين وضعها في الطبق كانت تأتي خارج الطبق على الأرض من شدة النعاس. وناما دون أن يكملا عشاءهما، فأغلقت الحجرة، وأخذت مكاني بجانبهما ونعست بعد أن غطيتهما.

وفي الصباح، توجهت إلى العمل كالعادة. كنت أنتظر مجيء الكاتب بفارغ الصبر لاحتساب يوم العمل في الغزل لأذهب إلى العنابر الأخرى، وبخاصة إلى عنبر النسيج لأبحث عن عمل آخر.

لم يطل انتظاري، فقد حضر الكاتب مبكرًا، وبعد أن قيدت اسمي ذهبت إلى عنبر النسيج.

عالم الممكن

وجدت كل ما في عنبر النسيج مختلفًا: الممكن أصغر من مكن الغزل، والعمال أكبر سنًا، والحركة فيه مختلفة. الممكنة تدور وبها ذراعان كل منهما تحدف المكوك للأخرى بسرعة لا تراها العين، والعمال في حركة، منهم من يقف أمام الممكنة يغير المكوك كلما فرغت ماسورة اللحم، وآخر يقف وراء الممكنة يسلك الخيوط، وعمال آخرون يدفعون أمامهم عربات محملة بلوحات مليئة بمواسير اللحم ويسيرونها بين الممكن لأخذ اللوحات الفارغة ووضع لوحات مليئة بالمواسير محلها. ودفعني حب المعرفة للاقتراب من الممكنة. وسألت أحد العمال الواقفين بجانبها، وقلت: - أنا عايز أشتغل في النسيج.

- روح واتكلم مع الرئيس.

ذهبت إلى الرئيس، وكان يمر بين الممكن، وتحدثت معه شارحًا رغبتني في العمل في النسيج، فقال لي: - إنت سنك صغير.

- بُكرة أكبر.

- لما تكبر ابقى تعال وأنا أشغلك.

- أصل أبويا ميت، وأنا عايز أشتغل في النسيج لأن أجره أحسن، وأنا عايز أساعد أمي.

فنظر إليَّ الرئيس نظرة تأمل، وأخذني من يدي وقال: - طيب تعال...

وشاور لأحد العمال وقال:

- خد الولد ده علمه ازاي يدور المكنة.

وذهبت مع العامل والفرحة تملأ قلبي. ولما اقتربت من المكنة، انتابني الفزع والخوف. كان كل شيء بالنسبة لي جديدًا. كل شيء في المكنة يتحرك. خيوط ملفوفة على «مطوة» مثل الخيوط الملفوفة على بكرة الخيط، ولكن على شكل أكبر، وكل فتلة من تلك الخيوط ملفوفة في سلك في «نبرة»، وبهذا السلك عين مثل عين الإبرة، ومركبة على مكن كله من حديد. وأشد ما كان يدهشني أن المكنة كل ما فيها يتحرك بمجرد أن يعشق العامل الفرملة ويحول السير من على البطال إلى العمال: تروس تتحرك في لف القماش، وذراعان تحدفان المكوك من درج إلى درج، وخيوط تهتز كلما تحرك الدرج.

ونظرت إلى كل الأشياء التي لم أرها من قبل، وانتابني الفزع. وابتعدت عن المكنة واضعًا طرف جليابي بين أسناني، وتلفت حولي، فوجدت بعض العمال ينظرون لي وهم يبتسمون.

اقترب مني أحدهم وقال لي:

- إنت خايف؟ إحنا كنا زيك كده أول ما جينا من البلد، وانت كويس اللي وقفت شوية، دا احنا أول ما جينا من البلد وشفنا المكن دورنا الجري على برّه، وجربوا ورانا عشان يجيونا. ما هي حاجات ما شفناهاش، إحنا ما شفناش غير الفاس والنورج والمحرات، دي حاجات جديدة علينا... طول بالك، بُكرة تتعلم.

إنت منين؟

- أنا من كفر الحما مركز طنطا.

- يعني احنا بلديات.

- وانت منين؟

- من الجعفرية مركز طنطا. تعال لما أوريك المكنة تدور ازاي. امسك الفرملة دي بإيدك الاتنين، واستجمع كل قوتك وزقها مرة واحدة ولا تتركهاش إلا لما تعشق.

فعلت كما قال لي، وكل ما في جسدي يرتجف. ولما نجحت في تعشيق الفرملة، بدأت الرهبة تزول لتحل محلها الطمأنينة، ثم علمني كيف أوقف المكنة في حالة قطع فتلة أو أكثر، وعلمني كيفية ترجيع القماش وفك التروس. وكلما تعلمت شيئاً زاد إيماني بإمكان تعلم الكثير مما لا أعرف. كذلك بدأ يعلمني كيفية أخذ الفتلة في النبرة وتركيبها في المشط، وكان هذا أصعب شيء بالنسبة لي في بداية العمل في النسيج. وبقيت طول اليوم واقفاً على المكنة بجانب العامل الذي كلفه الرئيس بتعليمي.

ولما حضر الكاتب أبلغه العامل أن يضع اسمي في الكشف بناء على تعليمات الرئيس. وقف الكاتب مندهشاً وهو ينظر إليّ في ذهول: - مش معقول!! دا انت قصير، وما انتش طایل تجيب الماسورة من على اللوحة!

ورفض أن يضع اسمي في الكشف، وتشبثت به، كما تشبث به العامل الذي كان يعلمني، وقلنا في نفس واحد: - الرئيس هو اللي قال كده!

فقال:

- طيب، تعال معايا للرئيس.

ونحن في الطريق إلى الرئيس كنت في منتهى الخوف من أن الرئيس قد يسمع كلام الكاتب. وعند الرئيس، وقف الكاتب يحدثه عن صغر سني، وعن

عدم قدرتي على العمل. ووقفت وأنا شاب على ضوافري لأزداد طولاً
أمامهم. وبعد أن فرغ الكاتب من الكلام، شاور لي الريس وقال: - خَلِّي بالك
كوبس، إوعى تتعور، على مهلك وانت بتتعلم، إوعى المكوك ينط في وشك
يخزق عينك. آدي احنا كتيناك في الكشف، ومن اليوم محسوب لك اليومية
خمسة تعريفة.

تركتهم وأنا لا أتمالك نفسي من الفرحة. وفي الطريق إلى المكنة، حدثت
نفسي: «بكرة أمي تعرف إني اشتغلت في النسيج، وتفرح لما تعرف إن
أجري زاد». وعندما وصلت إلى المكنة، شد على إيدي العامل وقال: -
كوبس.. إنت عملت إيه؟

- وقفت على ضوافري وشييت.

- أنا كنت شايفك وانا هنا، دا الكاتب ده أصله واطي.. ملوش شغلة غير قطع
أرزاق الناس.

وأملك أصلها داعية لك. يلاً، أنا عايزك تاخد بالك كوبس. إنت عرفت المكنة،
تبقى تيجي كل يوم هنا. إوعى تتوه. إحنا بلديات، ومن مديرية واحدة، وانا
عايزك تتعلم، أنا حاعلمك كوبس.

وكان اليوم قد انتهى. وفي الطريق، سرت شارد الذهن أفكر في المستقبل
وأمني نفسي بالأحلام. أجري زاد، وحاقبض كوبس، وأجيب مقطع حرير
وجزمة كوبسة وأمشي مع الرجالة، وألبس طربوش، وأحط ريحة وأنا مروح.
ودخلت الأوضة ولم أشعر بطول الطريق من كثرة التفكير فوجدتها مظلمة،
وأشعلت عود كبريت وأضأتها، وجلست في انتظار الولد الغريب والولد السيد
الصفطي. وانتظرت، وطال انتظاري، وبدأ القلق ينتابني عليهما، وتصورت

أنهما قد ماتا، وخرجت من الغرفة وأغلقتها خلفي. وخرجت إلى الشارع أتطلع في وجه كل من يقابلني. وبجانب أحد المنازل، وقفت من كثرة التعب، مستندًا إلى الحائط، وعيناى مرغرغة بالدموع. وعلى البعد لمحتهما يسيران وأيديهما متشابكة، وهما في طريقهما إلى المنزل، جريت نحوهما زاعقًا: «يا واد يا غريب، يا واد يا سيد»، فوقفا يتلفتان حولهما، وإذا بهما يربانني أحتضنهما. ووقفنا لحظة صامتين، والدموع تتساقط من عيوننا. وتشابكت أيدينا في الطريق إلى المنزل، وقال الولد الغريب: - إنت كنت فين؟ إحنا طول النهار بندور عليك، لفينا عليك المصنع، ما خلناش حته إلا ودورنا عليك فيها، أصل النهارده فيه ولد جه جديد من البلد، وما يعرفش حاجة خالص، واقف كده وبص للسير بتاع المكنة لقيه بيتهز ويتطوح، فراح ماسك السير بإيديه بغشومية، فراح لافعة على فوق، وانحشر في السقف، والدم غرق المكنة، والعيال اتلمت وهم يصرخون ويقولون «هوه.. هوه» بصوت عال. وجاء الرؤساء ونزلوا الولد ميت، وكرشنا من جنبه. ولكن احنا شفناهم من بين المكن وهما بيلفوه في الخيش بتاع الشولة. والعيال ملت جرادل ميه وغسلوا الأرض من الدم. وشالوه، ما نعرفش ودوه فين. ومن ساعتها واحنا بندور لحد دلوقت عليك. كنا خايفين أحسن تكون مت! والعيال طول النهار مرعوبة، وما كانوش عايزين يقربوا نواحي المكن، والمباشرين نازلين فيهم ضرب ياخدوهم بالعافية ويوقفوهم على المكن، ويقولون لهم: «إوعى حد يبجي ناحية السير.. كل واحد يحزم هدومه عشان السير ما يشبكش فيها».. طول النهار عمالين ندور عليك.. بيضربوا في العيال والعيال بتعيط لما بقت عنهم زي الدم.. إنت كنت فين أمال؟

قلت:

- أنا رحت اشتغلت في النسيج، وانكتبت في الكشف.

- اشتغلت في النسيج وَلَا كنت هربان هناك؟

- أنا اشتغلت في النسيج، وانكتبت في الكشف، وانحسبت لي اليومية خمسة
تعريفة، وبعدت عن الممكن اللي بيموت كل يوم عيل.

قال، والاهتمام باد على وجهه:

- اشتغلت ازاي؟

فحكيت له ازاي اشتغلت في النسيج، فقال: - يجب أن تأخذنا معاك عشان
نبعد احنا كمان عن الممكن ده، وأجرنا يزيد.. مش احنا من بلد واحدة.. زي ما
شغلناك الأول معانا شغلنا!

- طيب بُكرة تعالوا معايا وانا أكلم الريس عشان يشغلکم.

وفي الصباح، توجهنا إلى العمل. وفي الطريق، التقيت بالآلاف المؤلفة وهي
تسير بخطوات حزينة مؤلمة نحو عالم يجهلون أسرارهم وخباياهم؛ عالم الممكن
الذي لم يروه إلا وهو يقطع في أجسادهم، عالم لم يروه ولم يسمعوا عنه من
قبل. واستطعت، وأنا أسير معهم على نفس الطريق، أن ألمح في وجوههم
ومن خلال نظراتهم الحادة الإصرار على كشف هذا العالم. وفي وسط هذا
الحشد، إذا بيد توضع على كتفي، وكانت هي يد العامل النساج الذي كلفه
الريس بتعليمي. وشد على يدي مرحبًا.

دخلنا العنبر. وعلى المكنة وقف يحدثني عن أهمية أخذ بالي كلما دورت
المكنة أو أوقفته، كما حذرني من وضع يدي على أي قطعة من قطع المكنة

وهي دايرة. وقال: - إلهي بيموت هنا ملوش دية.

- هُوَّ فيه ناس في العنبر ده بتموت؟

- طبعًا.

- إزاي؟

- المكوك لو نط وجه في عين واحد راح يخزقها، ولو نط وجه في صرصور
ودنه راح يموت، ولو واحد غلط وخط إيدته بين التروس تقطعها. كل شيء هنا
ممکن يموت. عمر الواحد هنا على كف عفریت. الواحد بيمشي ويتلفت
حواليه!

- أنا سبت عنبر الغزل علشان بيموت عيال كثير!

- هو الواحد له في نفسه حاجة؟ إذا كان ربنا أمر بالموت هنا حنموت، وإن ما
أمرش مش حيموت حتى لو انحط في النار. ما تشغلش بالك بالموضوع ده،
وخلِّي بالك كويس وانت تتعلم.

وقفت أنظر بانتباه لكل ما في الممكنة من حركة. نظرت إلى التروس وهي
تتحرك في اتجاه دوران القماش، وأنظر للمكوك الذي يحركه ذراعان كل
منهما في اتجاه. ولفت نظري الخيوط الملفوفة على مطوة (كما تسمى في
عرف النسيج)، وهذه الخيوط تسمى السداه. وكان عدد الفتل يزيد أو ينقص
حسب عرض القماش، ولا يقل بأي حال عن أربعة آلاف فتلة، وكل فتلة في
نبرة وموضوعة في المشط. كان عليّ أن أعرف كل ما في الممكنة، وأعرف
كل العيوب التي يمكن أن تحدث أثناء العمل، ومحاولة علاجها. وكان وقوفي
خلف الممكنة يعطيني الفرصة للتطلع إلى أيدي العمال وهي تتحرك بسرعة،

ترفع المكوك من المكنة بعد أن تفرغ ماسورة اللحمة وتركب غيرها بحركة خفيفة مدهشة، واليد الأخرى موضوعة على فرملة المكنة استعدادًا لتدويرها بعد أن تنتهي عملية وضع المكوك في الدرج. وكل هذا لا يستغرق أكثر من ثوان.

وأثناء وقوفي هكذا، إذا بالولد الغريب والولد السيد الصفطي يحضران، ويشاوران لي من بعيد، فذهبت إليهما، وأخذتهما إلى الريس، وتحدثت معه في أمر تشغيلهما معي فقال: - لا، دول صغيرين. أنا شغلتك بس عشان أصلك يتيم وأبوك ميت!

- أصلهم من بلدنا، واحنا ساكنين مع بعض في أوضة، وبنمشي في السكة سوا عشان تتوَّس!

فسكت الريس لحظة، وشاور لأحد العمال وقال: - خد دول علَّهم.

ووجه كلامه لي قائلاً:

- ما عدتش تجيب لي حد تاني من العيال الصغيرين دول. هو احنا حنقرِّد، أنا شغلتهم بس عشان خاطر انكم رايجين تمشوا سوا. يلاَّ روح على الشغل، وخلي بالك.

وعلى المكنة، قال العامل:

- همَّ دول من بلدكم؟ دول عيال صغيرين! إنتم من بلد واحدة؟

- أيوه، إحنا الثلاثة من بلد واحدة وساكنين مع بعض.

- دا انتم عال أوي، يا بختكم، إنتم مرتاحين مع بعض، وبتسكنوا الأوضة وتاخذوا مفتاحها معاكم. دا الواحد منا كل يوم بيروح يلاقي العيش رايح من قفته. كل ليلة الناس بتتخاقق مع بعض، وبننام نومة زي الزفت!

- كنا الأول ننام على البحر. أول ما روحنا البلد وأمهاطنا سمعوا، زعلوا خالص، وادونا فلوس عشان نأجر أوضة ونشوف احنا حننفع ولّا ما ننفعش.

- لا، حتنفعوا. شد حيلك واتجدعن وخلي بالك. إنت لسه لحد دلوقت ما انتش عارف تلضم المكوك. لازم تخلي بالك مني وانا باشتغل. بص لكل حركة باعملها واعمل زيي. خلي عينك على القماش، لما تشوف فتلة تتقطع أو «تلخبط» أو «تشيف»، تروح موقف المكنة على طول.

- وانا حاعرف ازاي؟

قال:

- بص.. القماش ده نظيف؟

- أيوه.

- خلاص.. إذا لقيت حاجة وحشة بتشوه القماش تروح موقف المكنة على طول. لازم عينك تبقى على القماش، وتبقى إيدك رايحة جاية عليه تحسس عشان تعرف إن كان في القماش عيب.

- هو الواحد يفضل واقف وعينه على القماش على طول؟

- أيوه.

- دا الواحد عينيه تتعمي!

- الشغل عايز كده. حنعمل ايه؟

- يا نهار أبيض. اسمع، إنت اتعلمت ازاي؟

- اتعلمت زي ما انا باعلمك كده.

- لكن إيدك سريعة أوي في الشغل زي اللهلوبة، مين اللي علمك؟

- واحد من المحلة، من البلد دي. أصل البلد دي كلها صناعية: عمال بيشتغلوا على الحرير، وعلى النول البلدي. أمال همّ جابوا المصنع هنا ليه؟ علشان البلد دي فيها نسيج من زمان. ناس متعلمين. عشان كده جابوا المصنع في المحلة، عشان يلاقوا ناس يعلموا اللي زي حالاتنا. أول ما جينا لقينا عمال من المحلة همّ اللي بيعلمونا لحد دلوقت.. همّ اللي عاملين أسطوات علينا دلوقت.

- ومين اللي بيلضم الفتل دي كلها في النبر؟

- فيه عنبر بحاله اسم عنبر «اللقي».

- ودول أجرهم أد إيه؟

- المصنع لحد دلوقت مش عاوز يقول لهم على الأجر.

- أمال بيقبضوا ازاي؟

- بيعطوهم سلفة على المدة على أساس أربعة صاغ في اليوم.

- بس؟

- أيوه، ما همّ عندهم أمل ياخدوا أجر أكثر، ما همّ كل يوم والثاني يلموا بعض ويروحوا للريس يطلبوا إنهم يحددوا لهم أجرهم، وكل يوم يقول لهم النهارده، بُكرة.. لحد دلوقت ما عملهمش حاجة. وأهو المصنع كل يوم يلم ناس من كل البلاد واحنا نعلمهم. عمال المحلة علمونا، واحنا بنعلم غيرنا.

- طيب، لما فتل كتيرة تتقطع، بتعمل ايه؟ تعرف تاخدها؟

- لا. لسه إيدي ما خدتش. لسه إيدي ثقيلة. ولكن لما فتل تتقطع ويصعب علينا أخذها نجيب واحد من بتوع اللقي ياخدها، وده من العمال اللي المصنع بيديهم أربعة صاغ في اليوم، العمال المتعلمين.

وطال الحديث واستمر. وإذا بالمكنة تتوقف.

واستمر الحديث بيننا ونحن نغير المكوك، وغفلنا عن إخراج المكوك من الدرج الآخر. ودورنا المكنة، فاصطدم المكوكان معًا وسط رقعة القماش، فاهترت المكنة، وانقلب المشط، وانكسر المكوك وقطع كثيرًا من الفتل.

وقفنا نتطلع مدهوشين. وقال العامل: - شايف.. آدي احنا سهي علينا نطلع المكوك، والمكنة عطلت.

- طيب، حنعمل ايه؟

- مش ممكن نقول نسينا المكوك.

- ليه؟

- يضربونا.

- أآال ءنقول إيه؟

- لازم نشوف ءاآة نعملها عشان الريس ما يضربناش. اسمع، إءنا نطلع الموايك ونركب المشط، ونقطع الءلدة بتاع الءراع، ولما يسألونا إيه اللي ءرى؟ نقول الءلدة انقطعت.

لازم نعمل كده، وإلا يموتونا من الضرب.

لم نضيع الوقت. طلعنا الموايك، وقطعنا ءلدة الءراع. وذهب هو لإءضار عامل اللقي.

الأسطى المحلاوي

بعد قليل، حضر عامل يلبس جلابية من الحرير الإفرنجي، ومربي شعره كربه ومسرحه على ناحية، ومشمر كمامه، وفي إيدته الشمال ساعة فيها حاجة بتلمع، ومركب سنان ذهب ممكن تشوفها كلما تكلم، وعينه زرقه زي عيون القطط، ووجهه أبيض زي الشمع، وقال: - إيه اللي عمل كده؟

- جلدة الدراع انقطعت.

فوقف ينظر إلينا والشرر يتطاير من عينيه. ولم يكن يبدو عليه الاقتناع. وبعد لحظة، حضر آخر، ووقف الاثنان يتحدثان بصوت مسموع: - حنعمل إيه؟ رايحين نستنى كده لحد إمتى لازم نشوف لنا حل.

- كل يوم الحالة بتغلى، وأهالينا قالين دماغنا وبيقولوا لازم تشوفوا لكم حل مع الرؤساء، إن ما جابوش زيادة، سيبوا الشغل وتعالوا اشتغلوا في النول تاني.

- الواحد يا أخي يخش البيت يلاقيه مليون ناس زي النمل، ترش الملح ما ينزلش: ناس لابسة لبد، وناس لابسة طواقي، وناس حافية وعمالين يهرسوا في البيت رايحين جابين زي البهايم. أمي وإخواتي زي المساجين طول النهار في الأوضة، كلما أرادوا الذهب لدورة المياه يلاقوها مليانة، ناس ما بتخلصش، وكلما تحدثت أمي مع صاحبة البيت حول سكن هؤلاء العزاب تقولها: «سيبوا البيت وامشوا».

- إنت عارف أصحاب البيوت بتعمل ليه كده؟ عشان مصلحتهم. دول بيسكنوا في كل أوضة خمسة وعشرين وتلاتين، بينماوا زي السردين، همّ دول ناس؟!!

- أهل البلد طلع دينهم وبيشتكوا وبيقولوا كل حاجة غالية، والسبب جيوش الحوش اللي جايين من كل البلاد.

- الرؤساء لازم يقولوا لنا إذا كانوا حيدونا زيادة وَّلاَ لأ. إحنا لازم نعرف مصيرنا.

- هَمَّ ليه لحد دلوقت مش عايزين يحددوا أجرنا؟

- مش عارف. يمكن عايزين يضحكوا علينا لما نعلم ناس كثير.. أمال إيه سبب المطوحة دي؟

وكلما تطلع الاثنان إلى العمال الواقفين حولهم بملابسهم الزرقاء وأقدامهم الحافية تطاير الشرر من عيونهم. كانوا يعتبرونهم مصدر شقائهم وتعاستهم.

وطول هذه الفترة كنت أتطلع إلى أيديهم وهي تعمل ببطء في ترتيب الفتل في «السماسم» ولضمها في «النبرة» دون حماس. وقلت لزميلي الواقف بجانبني: - لماذا يتهمون على العمال هكذا ويشتمونهم؟

- يعتبرونا غزاة لمدينتهم، كل يوم نسمع شتايم من عائلاتهم في البيوت: «يا ولاد الكلب يا شركاوية.. غلितوا علينا المش.. غلितوا علينا السكن.. الله يلعن أبو المصنع وبوم ما جه هنا.. دي سنة سودة علينا...». شتايم من عيالهم ونسوانهم كل يوم واحنا رايعين دورة الميه.

- إنت شفت أمهات هؤلاء؟

- أيوه شفتهم.

- هَمَّ حلوين وعيونهم زي عيون القطط كده؟

- طبعًا حلوين.. لازم يكونوا حلوين، دول أصلهم من البندر، طول النهار في الضل يغسلوا وشهم يبجي ثلاث مرات في اليوم. طول النهار يلبطوا في الميه أما احنا مش كده.. إحنا فلاحين، طول النهار في الغيط، في الشمس، طول عمرنا من نهار ما اتخلقنا واحنا في الشمس. نضم الغلة في شهر بؤونة في عز الحر.. واحنا كنا طول النهار بنمشي في خط القطن ونجمع في عز الحر، عشان كده الشمس لفحت وشنا. إحنا بنشتغل في الأرض ونجيب لهم كل حاجة وهم قاعدين على ط... في البندر. ليه ما يكونوش حلوين؟ لكن حنعمل إيه؟!

كان يتحدث بهدوء وبآهات مكتومة عندما قال:

- إنهم يحتقرونا! ونسمع كل يوم شتائمهم لنا ولأهلنا! هذا الاحتقار السافر لنا لا يمكن السكوت عليه. دا الواحد في البلد لما كان حد يشتمه كانت تروح فيها رقاب! ناس ما بتختشيش! ويسلطوا علينا العيال يحدفونا بالطوب في الأوضة، العيال الصغيرة بتجر شكلنا، ونسمعهم يقولوا: «غليتوا علينا المش يا ولاد ال...». مش إيه اللي احنا غليناها؟! الواحد مش عارف.. كل ليلة نسمع العيال الصغيرين يشتمونا ويمشوا ورانا يزفونا: «فلاحين النبي أهم».. لحد ما يوصلونا البيت، حنعمل إيه؟ حنتخانق هنا في الغربة دي؟ إحنا جينا هنا عشان نأكل عيش. النسوان همّ اللي بيسلطوا العيال. الواحد لما يخش البيت يلاقي نسوان مترصين جنب بعض، وكل واحدة قدامها حاجة كده معمولة من البوص بيقولوا عليها «دولاب» ويركبوا عليه شلة خيط. ويمسكوا طرف الشلة ويحطوه على حته ماسورة.. يا دوب قد صباع الواحد. وتلف شلة الخيط على مواسير عشان يشغلوا بيها النول اليدوي.. البيوت كلها مليانة أنوال بيشتغلوا

عليها المقاطع الحرير والملايات. طول النهار عمالين يكرهوا، ومن الفجر
بيشتغلوا، قلقوا منا وما حدش يقدر يتكلم معاهم!

والحديث مستمر.. وعقارب الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرًا.

ساعة الغداء

توقفت عقارب الساعة على الثانية عشرة ظهرًا. وقفت الموتورات واحدًا بعد الآخر بعد أن انقطعت عنها الكهرباء، وضجيج الآلات يخفت والسيور تبدأ في التوقف ويسود الهدوء رويدًا رويدًا. هدوء كامل بعد أن توقفت كافة الآلات عن العمل. وبدأ العمال يخرجون من العنابر، كل يحمل منديلًا مربوطًا على عيش أحضروه للغداء. ونحن في الطريق إلى الخارج قال لي العامل: - إنت معاك

عيش؟

- أيوه.

- كام رغيف؟

- ثلاثة.

- رايح تاكل فين؟

- في أي حنة.

- طيب تعال معايا لما نشوف حنتين مخلل ولّا حاجة من برّه ونشوف لنا حنة ناكل فيها.

وخرجنا من باب عنبر النسيج إلى الطريقة العمومية الموصلة إلى كافة العنابر الأخرى، وإذا بي أجد نفسي وسط حشود ضخمة من كل العنابر لم يكن بينها مكان لقدم.

آلاف من العمال والموظفين خرجوا للغداء في وقت واحد، وأمامهم ساعة واحدة فقط. الكل مستعجل يريد أن يشتري ما يلزمه ويأكل قبل فوات الساعة.

سرت وسط تلك الحشود وزميلي يمسك بيدي، وكاد نفسي يختنق من شدة الزحام. وكلما تطلعت إلى أعلى أحاول أخذ نفسي رأيت كثيرًا من الوجوه مصفرة وزغبار القطن يغطي الشعر ورموش العيون. ورأيت وجوهًا وأيدي كثيرة ملطخة بالسواد. وكنت أستطيع أن أميز هذا من ذاك: هذا من عمال الورش، وهذا من عمال الحدادة، وذاك من عمال التنظيف أو السحب أو الكرد.

وبعد جهد شاق وصلنا إلى باب المصنع. ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت عددًا من عمال الورش الذين يعلو السواد أيديهم يقفون أمام الباب ويشترون القوطة والبدنجان المخلل ويفترشون الأرض سريعًا ويأكلون دون أن يغسلوا أيديهم. اقتربت منهم واندفعت نحوهم وقلت: - البدنجان والقوطة اتلطخت من أيديكم!

قالوا:

- ما احنا عارفين.. هوه فيه وقت للغسيل؟ عبال ما نغسل تكون الساعة خلصت! إحنا عبال ما طلعلنا من جوه لحد هنا خدنا أكثر من نصف الساعة! إحنا لازم ناكل كده ونخلص بسرعة وربنا يستر! أكل العيش عايز كده.. إن لقينا الميه مش حنلاقي الصابون.. يا عم، إيش رماك ع المر، قال اللي أمر منه! واشترينا نحن أيضًا بدنجانة بمليم وفجل بمليم، وفرشنا على الأرض بجوار وابور الحلاجة، وجلسنا نأكل بسرعة خوفًا من ضياع الوقت. وبعد أن انتهينا

من الأكل، سرنا في الاتجاه إلى العنبر محاولين أن نتفادى زحام العمال،
ولكن دون جدوى. وجدنا أنفسنا وسط الآلاف المتجهة نحو العنابر والكل
يتنفس بصعوبة.. الجو حار والعرق يتصبب على الوجوه.. كل واحد يدفع
الآخرين ليجد مكانًا لقدمه، وصرخات تنبعث من الصفوف المتراسة المتجهة
ببطء نحو العنابر: - دُست على جلابيتي قطعتها لي!

- ما تحاسبوا يا ناس.. الأجر ما يجيبش جلابية!

- دُست ع البلغة.. هو انتو ما بتشوفوش؟! ما تبصوا تحت رجليكم!

ولكن الصرخات تضيع وسط الزحام ولا أحد ينتبه إليها.

- يا هوه.. يا هوه.. رايحين تموتونا.. يا لطيف!

- إحنا زي ما نكون رايحين على جهنم!

- إيه العالم دي كلها.. ده ولا يوم القيامة.. ولا يوم الحشر!

وكلما وصل عمال إلى عنابرهم كنا نراهم وهم يعصرون ملابسهم ووجوههم
مزرودة.. وتمنيت أن أصل إلى عنبر النسيج كما وصل الآخرون.

عندما وصلت إلى العنبر لم أستطع البقاء واقفًا على قدمي فجلست على
الأرض منهك القوى ونفسي مقطوع. وأخذني بعض العمال إلى دورة المياه
ووضعوا رأسي تحت الحنفية، فشعرت بعروقي تنتفض والحياة تعود لي.
وذهبت إلى المكنة فوجدت زميلي العامل واقفًا يغير لها المواكيك. وعندما
رآني قال: - إنت رحى فين؟

- رحت فين؟! دي حاجة تتوه.. إنت عاوز الواحد يمشي وسط الحشود دي ولا يتوهش؟! دا انا كنت راح أموت.. على أي الحالات، من بُكرة الواحد منا يجب معاه الغموس من الصبح.. ولما الممكن يقف الضهر نبقى نقعد في الطريقة وناكل جنب العنبر ونتفادي الزحام وناخد فرصة للراحة.

واستمر الحديث بيننا، وقال:

- خَلِّي بالك كويس.. خَلِّي بالك من الشغل، أحسن بُكرة ياخدوك يوقفوك على مكنة ويجيبولك عمال جداد عشان تعلمهم. إنت شايف العمال اللي كل يوم بيحبوهم، دول عايزين يعلموا عدد كبير منهم، دول بينوا عنابر جديدة وبيركبوا فيها مكن جديد، ولما يخلصوا من التركيب ياخدوا كل العمال اللي اتعلموا عشان يوقفوهم ع الممكن ويبقى عندهم باستمرار عمال متعلمين عشان الممكن ما يقفش من غير شغل.. دول بيعملوا توسعات للنسيج وبيعملوا عنابر للغزل وعنابر للسحب وعنابر للبرم، والمصنع راح يتوسع. أنا عايزك تشد حيلك وتتعلم عشان ما يقولوش علينا خايانين، إحنا عايزينهم يقولوا علينا إننا ناس بنفهم.

ومنذ تلك اللحظة وأنا أكثر اهتمامًا بكل ما يدور حولي وخاصة لضم الفتلة في النبرة وأخذها في المشط. وكنت أسأل عن الأسباب التي كثيرًا ما تقطع الفتل لمحاولة تلافي هذه الأسباب. وكنت كثيرًا ما ألف وراء المكنة وأقطع العقد الطويلة من السداء لكي لا تتسبب في قطع الفتل. وهذا ما كان يشير به عليّ العامل الذي كان يعلمني. وكلما حدث في المكنة عطل وجاء أحد الأسطوات لتصليحها كنت أتطلع إلى ما يقوم به من الأعمال باهتمام شديد. كنت أرى كيف يغير التروس كلما تغير نوع الأقمشة. كما تمكنت من معرفة كيف يقلل الحدفة أو يزيدنها كلما كان ذلك لازمًا للحفاظ على سير الموايك

في الدرج بشكل أكثر انتظامًا. كنت أنظر إليه كلما حرك المفتاح وفك صامولة وركب غيرها. وكان لانتباهي أثر كبير في مجرى حياتي في مهنة النسيج. وكان العمال الذين إلى جوارني يلاحظون ذلك. وشد العامل الذي يعلمني على يدي وقال: - أهو كده، إحنا عاوزينهم يقولوا علينا إن احنا عرفنا نتعلم ونعلم، وبدل ما يقولوا علينا الفلاحين دول زي البهايم ما يفهموش نثبت لهم إن احنا بنفهم.

وسألني:

- إنت بتروح البلد كل كام يوم؟

- كل ١٥ يوم، يعني كل قبضية أروح أجيب من البلد زوادة آكل فيها المدة اللي بعدها.

- طيب يوم الحد اللي ما بتروحش فيه بتروح فين؟

- مسجونين في الأوضة أنا والواد الغريب والواد السيد الصفطي.

- طيب ما تيجوا تزورونا يوم الحد اللي جاي في الأوضة بتاعتنا.

- فين؟

- في عزبة أبو جحشة، هنا جنب المصنع.

- هو انت ساكن لوحدك؟

- لا.. أنا ساكن مع عشرين واحد من بلاد مختلفة.

- وتعملوا إيه؟

- ولا حاجة، حنعمل إيه؟ كل واحد عايش لوحده، ياكل وقت ما هو عايز ويشترى الحاجة اللي في نفسه. مفيش حد له سلطان على حد. مفيش حاجة بتجمعنا إلا النوم بس. كل واحد عارف القفة بتاعته.. قفة العيش.. كلما جاء لأحد ضيف يطلع عيش من قفته وياكلوا مع بعض.. لازم تيجي لزيارتنا. إحنا بلديات ولازم نعرف بعض هنا. إللي يحصل له حاجة التاني يشيله.

كانت الساعة تقترب من الثامنة، ويواصل العامل حديثه قائلاً: - الواحد ما بينامش طول الليل. دا فيه ناس ساكنين معانا بيشتغلوا في عنبر التنظيف بيحوا كل يوم وملابسهم مليئة بالقطن.. طول الليل يكحوا كحة ناشفة، وكثيرًا ما يقومون بالليل يستنطقوا.. الواحد منهم طول الوقت بيتف زغبار.

- وتعملوا إيه يوم الحد في الأوضة؟

- حنعمل إيه؟ كل واحد عنده جلايبة وسخة يروح ع البحر يغسلها. تصور، بنغسلها من غير صابون، نغسلها بالطين وننشرها ونستناها لما تنشف. القمل عشش في الهدوم. كل واحد بالليل يخلع هدومه قطعة بعد أخرى ويقرقش القمل بأسنانه.. يقرقش بين الخياطة وبعضها.. حنعمل إيه؟! عشرين واحد في الأوضة! القمل بيزحف في كل حته والبراغيت مالية الأوضة طول الليل تنتلط على وشنا.. دا فيه ناس في الأوضة جسمها اتقطع من الهرش، حنعمل إيه؟!

وكل واحد ما عندوش غير الجلايبة والقميص الدمور واللباس لابسه طول الليل والنهار، في النوم وفي الشغل عرقان فيهم. دي عيشة زي الزيت. دا الواحد خايف يجرب في وسط الناس دول.

والحديث مستمر، وإذا بأصوات تنبعث من كل مكان في العنبر. أصوات تغطي على ضجيج المكن وزئير السيور، حتى خيل إليّ أن المكن يتزحزح من أماكنه. كانت تلك أصوات عمال وردية النهار المعبرة عن الفرحة بانتهاء يوم العمل. واسترسل العامل في حديثه: - شايف العمال فرحانين أد إيه.. فرحانين بانتهاء اليوم.. الواحد من بعد الساعة ٣ بعد الظهر يبقى واقف على المكنة يشيل رجل ويحط رجل زي الحمار التعبان.. اتناشر ساعة الواحد واقفهم على رجليه لازم يتهد حيله من الوقفة. الواحد يا دوب يصحى الصبح ويغسل وشه، ويعقد الرغيفين في المنديل اللي رايح ياكلهم وبطلع من البيت والشمس يا دوب بتطلع، تصور ندخل المصنع والشمس بتطلع، ونروح ما نلاقيش حد صاحي.. نروح نص الليل، وطول الوقت ده واقفين على رجلينا، والواحد يبقى ماشي يجرجر في رجليه، وما بيصدق إنه يروح وينام، وفي ليالي كثير الواحد بينام من غير عشا.

ولم يتوقف عن الكلام إلا بعد أن حضر عامل الليل الذي تسلم المكنة. وبعد انتهاء عملية التسليم أخذني من يدي وقال: - إوعى تنسى الكلام اللي احنا قلناه. لازم تيجي تزورنا يوم الحد.. إنت عرفت العنوان.

وشد على يدي قائلاً:

- أنا في انتظارك، أنا مش طالع من البيت إلا لما تيجي.

وانصرف.

وفي الطريق إلى المنزل كانت الشوارع مزدحمة بالعمال وهم يسيرون بخطى بطيئة، والتعب باد على الوجوه. وسرت، أنا والولد الغريب والواد

السيد الصفطي وسط الزحام، ونحن نتلفت إلى وجوه بعضنا دون أن نتكلم
لأن الواد السيد الصفطي كان يبدو عليه الإعياء الشديد.. وفي الأوضة قلت
للولد الغريب: - العامل اللي بيعلمني طالب منا إن احنا نزوره يوم الحد، تيجي
معايا؟

فوافق، كما وافق أيضًا الولد السيد الصفطي.

يوم الإجازة

في الصباح توجهنا إلى عزبة أبو جحشة، وكانت هذه أول مرة نذهب فيها إلى هناك منذ أن جئنا إلى المحلة. وكانت دهشتنا كبيرة عندما وجدنا أن كثيرًا من بيوت هذه العزبة مبنية بالطين، وأبوابها من الصفيح الصدئ، وأشكال البيوت والعشش متشابهة لا تستطيع أن تميز بين بيت وآخر أو بين عشة وأخرى. وبعد جهد شاق، عثرنا على بيت العامل في إحدى العطف، وعند دخولنا وجدناه في انتظارنا. وفي المنزل وجدنا أكثر من حجرة مليئة بالسكان، والقفف مترصصة على جنب متجاوزة بعضها مع بعض، وكل واحد قفته معروفة.

أخذنا العامل على حجرته. وعند دخولنا استقبلتنا أسراب البراغيت تنتطط على رجلينا، ولاحظ العامل هذا فوجه كلامه إلينا قائلاً: - معلهش يا اخوانا البراغيت مالية العزبة.

ونظرنا إلى جدران الأوضة فوجدناها ملطخة بدماء البق، ورائحة العفن تنبعث من كل مكان في أرجائها. ومن أركان الحجرة تخرج الخنافس من الجحور. ومال عليّ الولد السيد الصفطي قائلاً: - يلاً بينا أنا قرفان، أنا هاطرش، أنا نفسي قايمه عليّ.

والولد الغريب يقرص فيّ هو الآخر. ونظر العامل الذي نحن في ضيافته إليّ قائلاً: - إحنا رايعين نتغدى سوا. أنا اشتريت رنجة وحاشوبها وندش بصلة ناشفة وناكلها، حنعمل إيه؟ على أد حالنا!

فقلنا نحن الثلاثة في نفس واحد:

- لا.. لا.

ولكنه ألح علينا أن نبقي، فبقينا على مضض، وقام هو يشوي الرنجة، وعاد بعد قليل.

وعندما نظرنا إلى القفف المترصصة إلى جوار بعضها رأينا صراصير كثيرة تنتقل من قفة إلى أخرى، وخاصة عندما وضع يده في قفته ليخرج منها عيشًا ليضعه أمامنا. ولم نقبل نحن على الأكل مع أننا كنا جعانيين بسبب ما كان يحيطنا من روائح. وأدرك العامل هذا، فقال: - معلهش الأوضة زي الزفت مفيش حد مهتم بنظافتها، واللي قاعد شهر مش قاعد الثاني، مفيش حالة استقرار.. وأصحاب البيوت زي ما انت شايفهم، ما هماش عايزين يبيضوا لنا الأوضة.. شوف الأوضة كلها مفحرة ازاي والخنافس عملتها جحور، والصراصير عششت في القفف، والبراغيت مالية الأوضة، وكل يوم والثاني ترد وجوه جديدة وإذا حد منا اتكلم صاحبة البيت تكرشه.. أصلهم بيسكنوا بالراس، وعشان كده مفيش حد قلبه ع النظافة. تصور، كل البيوت اللي اتعملت دي، انبتت من يوم المصنع ده ما اتعمل، بس عملوها بالطريقة دي عشان يكسبوا.. ما هي ناس بتيجي كل يوم وتمر على البيوت وتقول احنا عايزين سكن، عشان كده بيتأمروا علينا! هي دي بيوت؟! دي معمولة بجواليص الطين، مفيش فيها ولا طوبة، والسكن كله زي ما انت شايف معمول بالصفيح، حتى مفيش شبايك، والشمس ما بتدخلش الأوضة! يلاً بينا يا عم يلاً، يلاً نتمشى بَرّه لاحسن الواحد حيطرش اللقمة اللي كلها، يلاً نشم شوية هوا على البحر.. فيه حته اسمها الشون، عندها مراكب كتيرة مليانة قصب، تعالوا لما نشتري كل واحد بنكلة ونقعد على البحر جنب المراكب ونمص القصب.

ولم نمانع نحن، فقد كنا في ضيق وقرف شديد.

ونحن في الطريق إلى البحر قلت للعامل:

- فين العمال اللي قلت لي إنهم لا ينامون طوال الليل من الكحة ويقلقون
مناكم؟

فسكت لحظة، ثم قال:

- أظن أنك تقصد العمال الذين يعملون في عنابر الكرذ والتنظيف.

- أنا لم أرهم، ولكنك أنت الذي حدثتني عنهم ونحن نعمل أمس على المكنة،
وأفضت في الحديث عنهم لدرجة أنني أصبحت مشتاقًا لرؤياهم. حدثتني عن
صدورهم المليئة بالأتربة والزغبار.

- إنت لسه فاكر؟

- إنهم لم يفارقوا خيالي مع أنني لم أرهم. أنا عشت بالأمس وأمام عيني
العديد من الصور، صور الرجال الذين أراهم يوميًا يسيرون وسط الآلاف
الخارجة كل يوم من المصنع. أنا لم أكن أميز بين هذا وذاك، وكنت أعتقد أن
الكل يعمل ويتسخ، ولم أكن أظن أن الأتربة والزغبار تحشو الصدور. إن
حديثك معي نبهني لما لم أكن أعرفه، ولهذا أردت أن أراهم، وخاصة بعد أن
قلت لي إنهم يسكنون معك في الأوضة، ومنذ أن دخلت حجرتك وأنا أتطلع
يميًا ويسارًا باحثًا عنهم، وكنت أتخيل أنهم ينامون في أحد الأركان، فلم تقع
عيناى على أحد. أين هم؟

فتلفت حوله وقال:

- إنهم ذهبوا إلى المستشفى.

- مستشفى؟ مستشفى إيه؟

- ما انتش عارف مستشفى إيه؟ المستشفى الأميري اللي على البحر. دا طول الليل عمالين يكحوا كحة ناشفة وصدورهم عمالة تعلق وتوطى.. كانوا بيشخروا زي ما يكونوا جريوا ثلاثين مشوار.. دا احنا طول الليل سهرانين عليهم، وما كناش قادرين نبص في وشهم.. كان وشهم مزنهر، وحب عينهم كان حينط، والعروق في دماغتهم كانت نافرة زي الخيار، وما هديوش واستريحوا إلا قرب الفجر، وما راحوش المستشفى إلا بعد أن تحايلنا عليهم، وطمناهم من الخوف. وأهم راحوا من طلعة النهار ولسه لحد دلوقت ما حدش منهم جه، وما احناش عارفين عملوا إيه!

فقال الولد السيد الصفطي:

- ما تيلًا بينا نتفسح في سكة المستشفى يمكن يقابلونا في السكة، وإن ما قابلوناش آدي احنا نوصل لحد هناك ونشوفهم في المستشفى وادي احنا ينوبنا ثواب.

فرد العامل قائلاً:

- إن الذي عاقني عن الذهاب معهم هو أنني كنت في انتظاركم. إن الله لا يخلف الميعاد. وكنت متوقعًا أن تأتوا مبكرين، ولهذا آثرت البقاء محافظة مني على الميعاد.

إنها أول مرة تأتون فيها إلى حجرتي. وكل السكان، بما فيهم المرضى، يعرفون ذلك، يعرفون أنني أنتظر ضيوفاً من بلدي. وكثيرون منهم ذهبوا إلى

البحر لغسل ملابسهم وزمانهم في انتظارنا عند مراكب القصب عند الشون.
تعالوا الأول نشترى عود قصب ونمشي نمصه في السكة.

فقلت:

- بالطريقة دي إحنا تتأخر. إحنا عايزين نروح بدري، يمكن يقابلونا في السكة
وناخذهم معانا ونروح نمص قصب على الشون.

- أصل فيه ناس من سكان أوصتنا في انتظارنا هناك. نروح لهم الأول.

ونحن في الطريق، ومن على بعد، وقبل أن نصل، رأينا أشرعة المراكب تعلقو
سطح المنازل وهي معبأة بالهواء، ومن أعلى السارية رفعت قطع حمراء
مشيرة إلى نشاط الريح.

وكلما اقتربنا من البحر بانّت المراكب وأصبحت أكثر وضوحًا، وعندما وصلنا
وجدنا عالمًا يتدفق من الرجال والأطفال. وأسرعنا الخطى للحاق بهم، والكل
متجه نحو المراكب. ورويدًا رويدًا وجدنا أنفسنا نسير وسط تلك الحشود،
وتشابكت أيدينا خوفًا من أن نتوه. الأطفال يسرون بملابسهم المخططة،
وكثير منهم حافي الأقدام، ورؤوسهم عارية. والرجال ذوو الشوارب المفتولة
يسرون بملابسهم البلدية التي تغلب عليها الألوان الغامقة، وفي أيديهم
عصي من الشوم الطويل، المسمى بالشمروخ، وعلى رؤوسهم اللبد
السمراء والحمراء والبيضاء، المعروفة بالنكلتي.

كنت أشعر، ونحن نسير بخطانا البطيئة، أننا نمشي في فرح في الريف.
وعلى البحر، وعلى طول الشاطئ الممتد يسير الناس في انتظار أن ترسو
المراكب. البحر زاخر، والمياه تغزو الشواطئ، والأمواج تسير واحدة وراء

الأخرى. المراكب تأتي بطيئة تعاكسها الريح. الموجة تمشي وراء الموجة والعيون تتطلع بانتباه لكل ما يدور في البحر. وعلى كوبري الشون وقفنا نحن نتطلع إلى المراكب وهي ترسو على الشاطئ والناس تتجمع من حولها. وفي ثوان كانت المراكب فارغة من حمولتها وبدأت عملية الشراء. وقال زميلي العامل: - يلاً بينا عشان نلحق نشترى بدري.

وبجوار المراكب التقينا بسكان حجرته الذين طال انتظارهم لنا وبدأت
السلامات، وقال أحدهم: - إنتم من بلد عبد العظيم؟

- نعم.

- أنا لم يسعدني الحظ بالالتقاء بكم في حجرتنا، إنتم عارفين طبعًا إننا في
غربة، وما احناش من هنا، ومفيش حد يغسل لنا هدومنا. تصوروا الهدوم لسه
ناشفة دلوقت! الواحد من الصبح طالع دينه في غسيلهم، واهم نضفوا شوية
أحسن من الأول.. ولا إيه يا عبد العظيم؟

فتمتم بكلام، وهز رأسه موافقًا. وقال آخر: - إحنا مستنيين إيه؟ يلاً بينا نشترى
القصب قبل ما يخلص الكويس.

وقال عبد العظيم:

- مش أحسن نشترى لبشة على بعضها؟

وافق الجميع. وأخرج كل منهم محافظته من جيب الصديري، محافظة مرصعة
بالكبسول الأصفر الزاهي. وأخرج كل منهم خمسة مليمات وأعطوها لعبد
العظيم وقالوا: - هذا تحت الحساب.

وعندما بدأنا نحن ندفع ما يخصنا قالوا: - إنتم ضيوف عبد العظيم، وضيوف
عبد العظيم يبقوا ضيوفنا، ولَّا إيه؟ عيب، ما يصحش.

وذهب عبد العظيم لشراء القصب، وبعد لحظة، حضر ومعه لبشة القصب وبها
أكثر من اثني عشر عودًا. وعلى شاطئ البحر، وعلى صوت الأمواج، والنسيم
الرطب، جلسنا نقشر القصب ونمص. وقال أحد الحاضرين موجهًا كلامه لعبد
العظيم: - الناس اللي راحوا المستشفى الصبح، ما حدش عارف عملوا إيه؟
- لحد ما كنا في البيت ما سمعناش عنهم حاجة.

وقال آخر:

- مساكين دول والله! الله يكون في عونهم وبساعدهم ويعجل بشفاهم بحق
جاه النبي! الواحد عمره ما شاف كحة زي دي!

وقال ثالث:

- دا لا هو باين برد، ولا هو باين حاجة!

- لو كان عندنا باجور كنا عملنا لهم جنزيبل يدفي صدورهم.

فرد عبد العظيم قائلاً:

- يعني هي مشكلة باجور، إحنا نقدر نجيب قوالح ونعمل راكية في الحجرة،
ونعمل عليها جنزيبل ونطفش الناموس اللي طول الليل يلدع في جتنا!

ورد عليه آخر:

- إن لقينا القوالح ما نلاقيش البرّاد اللي نعمل فيه الجنزيبيل، هو احنا نقدر نولع في المدعوقة الأوضة؟ هو انتو نسيتمو إن احنا بننام على بعض عشرين واحد زي السردين!

فرد عبد العظيم قائلاً:

- يعني هو اللي يعيا في وسطنا ما نشيلوش؟! دا احنا كلنا عيش وملح مع بعض، والنبي وصى على سابع جار، ودول بيناموا في وسطنا كل ليلة، لازم نعمل لهم حاجة تريحهم. إحنا كلنا متغربين عن أهلنا واللي يعيا في وسطنا لازم نشيله. لازم نريحه. إحنا بنعتبر أنفسنا زي أهاليهم. هو حد عارف أهاليهم عاملين إيه دلوقت؟

فرد أحد الحاضرين:

- زمان أمهاتهم عمالة تشرق، وودانهم بتصفر، ورموش عينهم بتترف.

وقال آخر:

- ما تيّلاً يا جماعة تشوفوا لكم حاجة تانية غير الكلام ده، ما تفكروناش بأهالينا، الله يلعن الغربة اللي بتفرق بين الأم وابنها، ما بتخليش حد يعرف عن الثاني حاجة.

وتكلم عبد العظيم بحزن:

- معلش يا جماعة، إحنا رجالة وما خلقناش إلا للعمل في أي مكان، واللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين. ما احنا قبل ما نيجي في المحروق المصنع ده كنا بنتغرب ونقعد أسابيع بعاد عن بلدنا، مش كنا بنروح في

التفاتيش الملكية والأبعديات بتاعة الباشوات ونلم فيها الدودة، وياما ضربونا وجريوا ورانا بالكراييج! الله ما عاد يعودها تاني! على أية حال، هنا أحسن رغم الشقاء اللي احنا فيه. أحسن لأن احنا أصبحنا ضامين عمل باستمرار، الواحد أصبح ضامن يقبض قرشين على بعض ويدفعهم لأمه ولاخواته عشان يسددوا إيجار القيراطين اللي واخدينهم من الوسية، وندخل شوية الحب للعيال ياكلوهم. دا احنا لما كنا تتأخر شوية في دفع الإيجارات كان نظار الخاصة الملكية ما يكتفوش بالحجز على حته الجاموسة اللي حيلتنا، وإنما كانوا بيحجزوا على شوية الحب في الغيط اللي احنا طول السنة طافحين الدم فيهم! أهو دلوقت فيه أمل شوية أحسن مما كنا في البلد، بس لو ما كانش الممكن ابن الكلب ده بيموت الناس، كانت تبقى عال! دا احنا لما كنا في البلد ما كانش الواحد منا يقدر يتحصل على حته بريزة صحيحة أبدًا، ولا حتى على نصها. والعمدة لما يكون عنده عزيق في الأرض كان بيلمنا ولا يديناش أجرة، ولما كان حد من الناس يطلبنا عشان نعزق لهم الزريبة بتاعة البهايم ونطلع منها السبخ، كانوا يقولوا استنوا شوية لما نبيع كيلة درة ولاً حتتين سمنة. عشان كده عشنا في البلد وعمرنا ما شغنا فلوس مجمدة أبدًا، وما كانش ممكن، وعشان كده كنا تعبانين. صحيح هي غربة، لكن أكل العيش عايز كده، والمهم ربنا يكفيننا شر المرض، وكل واحد يروح لأهله بالسلامة!

فقال أحد الحاضرين:

- ما هو الحال من بعضه! إيش رماك ع المُر، قال اللي أمر منه. وهو لو ما كانش الاحتياج كنا اتغربنا وسيينا بلدنا؟!!

- ما تسيبونا من الكلام ده بقه، ويلاً نروح المستشفى نشوف الناس عملوا ايه.

فرد عبد العظيم قائلاً:

- أهو كده، هي دي الشهامة.

وقال آخر:

- وبعد كده نروح فين؟

- نروح نزور الناس أصحابنا اللي ساكنين في محلة البرج، النهارده الحد، إن لقيناهم في البيت ناخذهم معانا ونتفسيح، أهو يوم نرفه فيه عن نفسنا.

وقبل أن نهم بالوقوف وتتحرك إذ بنا نرى كثيرًا من العمال والأطفال يسيرون في حلقات على طول الشاطئ وبأيديهم عيدان القصب يمصونها وهم سائرون، وعيونهم للمياه لا تفارقها. كانوا يهللون كلما رأوا الدوامات تمتزج بأمواج البحر. وكثيرًا ما كانوا يقذفون بالورق وقشر القصب في تلك الدوامات. وكانت البسمة لا تفارق وجوه كل من يقف يتفرج على الأوراق التي تلفها الدوامات السريعة.

وقال عبد العظيم يستعجلنا:

- يلاً يا جماعة نمشي عشان نلحق نشوف الناس اللي في المستشفى عملوا إيه، ويمكن نلحق نتفسيح في البلد دي. دا احنا ما بنقدرش نتفسيح إلا يوم الحد اللي ما يبقاش فيه قبض.

وبينما نحن نسير، التقينا بعدد آخر من العمال زملاء عبد العظيم في السكن. فسألهم عبد العظيم: - إنتم كنتم فين؟

- كنا في البيت.

- من إمتى؟

- من حوالي ساعتين.

- إنتم ما عرفتوش حاجة عن...

وقبل أن يكمل سؤاله أخذه أحدهم بعد أن استأذن منا، ومال على أذنه،
وهمس إليه بحديث لم نسمعه، جاء بعده عبد العظيم ممتقع الوجه وعيناه
دامعتان، وكل جسده ينتفض، ولما سألناه عما حدث لم يجب، وقال باختصار:
- قربوا شوية، مدوا، مدوا أحسن...

وكانت الدموع تنساب على خديه فيمسحها بطرف جليابه، وأسرعنا خلفه
مخترقين شوارع المدينة!

المستشفى الأميري

في الطريق إلى المستشفى لم يقابلنا أحد.. الأراضي الشاسعة تكسوها الخضراوات، وبجانبيها مساحات كبيرة من القمح ذي السنابل العالية. وفي الجانب الآخر من الطريق مساحات من أرض الشيشيني مغطاة بشجر الموز.. الهدوء على طول الطريق.. لم نكن نسمع سوى تغريد الطيور وهي على شواشي الشجر.

وأمام باب المستشفى لم نرَ أحدًا سوى البواب فسألناه: - ألم يأت أحد اليوم من العمال؟

- جات ناس كثير وأخذ كل منهم الدواء اللازم وانصرف.

- ألم يحجز الطبيب أحدًا؟

فسكت لحظة وقال:

- حجز ناس من ذوي الأمراض الخطرة.

- من أي بلد؟

- من كل البلاد.

- هل حجز أحدًا من عمال المصنع؟

فهز رأسه وقال:

- ما هو من يوم المصنع ما اشتغل هنا والمستشفى مهيش شغالة إلا على حسابه. معظم المرضى من عمال المصنع، والإسعاف كل يوم بتحول ناس متعورة من الممكن! إنتم بتسألوا ليه؟ إنتم لكم هنا حد مريض؟

فرد عبد العظيم قائلاً:

- أيوه، فيه الناس اللي ساكنين معانا في الأوضة، وسمعنا من ساعة إن الطيب حاشهم، أنا اللي شُرت عليهم الشورة السوداء دي! دول كانوا خايفين يجوا، واللي حسبوه أهم لقيوه، زمانهم بيدعوا علينا!

فنظر إلينا البواب وقال:

- يعني همَّ يهموكم؟

- أيوه.

- طيب استريحوا جنب الشجرة دي لما الأطباء يخرجوا وأنا أدخلكم تشوفوهم.

جلسنا بجانب الشجرة ننتظر، ولم نكن نسمع سوى صفير الرياح وتساقط أوراق الشجر. الصمت يخيم على المكان، لا صوت ولا حركة. الأنظار تتطلع إلى المستشفى تتلهف على رؤية أحد بداخلها. وعبد العظيم قاعد ينتظر وأسنانه تصطك ويحدث نفسه قائلاً: «أنا المسؤول، أنا السبب، أنا اللي دفعتهم إلى هذا المكان، أنا كان مالي، أنا لو كنت عارف إنهم رايجين يحوشوهم ما كنتش اتكلمت ولا كلمة.. يا ترى همَّ عاملين إيه جوّه دلوقت! الدنيا ساكتة كده ليه؟ دا مفيش حد بيتكلم.. مفيش صوت.. همَّ ماتوا؟!». وإذا بعربية إسعاف تأتي مسرعة وتقف عند الباب، وانتشر الكل حولها محاولين

رؤية ما فيها. وفي لمح البصر نزل منها ثلاثة رجال بملابس صفراء يتوسطها صف من الزراير الصفراء اللامعة، وعلى رؤوسهم برانيط تتوسطها شارات حمراء. وفتح الباب... وإذا بداخل العربة رجل نائم على نقالة غطت الدماء وجهه، وبجانبه ثلاث نسوة بملابس سوداء ريفية، ومشدودة رؤوسهم بطرح سوداء، ووجوههم ملطخة بالطين. ونزلت النسوة من العربة ووقفت تولول إلى جانبها، ونزلت النقالة التي عليها الرجل الغارق في الدماء، وسار به الرجال ذوو البرانيط الحمراء إلى داخل المستشفى، وحاولت النساء الدخول خلفه فمنعهن البواب. واستمرت النساء في الصراخ ورفع الأتربة على الرؤوس، ونحن واقفون عاجزون عن تهدئتهن لعدم المعرفة بهن. وتعالى النداءات وازداد الصراخ. وعندما نادى الأم ابناً الجريح الغارق في الدم قائلة: «تعال لأمك يا وله، آه يا بني!!» لم أتمالك منع الدموع من عيني. واسترسلت الأم تعوي قائلة: «أنا مش قلت لك ملكش دعوة.. إيه اللي نابك؟ أنا قلت لك ملناش دعوة.. إحنا ناس على أدنا، لا لنا دعوة بالوفد ولا بالانتخابات.. هي الميه تطلع العالي؟ أهى ما جاتش إلا في الغلابة! عملوها وما حدش وقع فيها إلا احنا يا ولدي!!».

لم أستطع أن أتمالك نفسي من البكاء فجلست بجانب الشجرة وأحيت رأسي إلى الأرض محاولاً إخفاء بكائي عن الأم التي أخفى الطين وجهها. وسرحت، ولم أعد واعياً بما حولي، ومرت أمام عيني صور عديدة متلاحقة، وكانت أمي بملابسها السوداء هي الصورة البارزة. تصورت أمي وهي واقفة وعيناها تبكيان يوم أن أخذ العمدة أخي ومعه كثير من شباب قريتنا وبعث بهم إلى بلاد بعيدة لردم الجسور أيام الفيضانات. تصورتها وهي واقفة على سطح منزلنا ناكشة شعرها وبداهها مرفوعتان متطلعة إلى السماء داعية على العمدة الذي أخذ ابنها الأكبر اللي بيعمل في الغيط. تصورتها وهي تقول: أربي

اليتامى دول ازاي يا رب؟ إلهي ما يتربى عياله من بعده! دول كوم لحم أعمل
فيهم إيه يا رب بعد ما أخذ العمدة ابني الأكبر؟!!

وصحوت من سرحتي على أصوات أقدام تعدو مسرعة نحو الباب، كانت هي
أقدام العمال الذين كانوا معي يتجهون نحو رجال الإسعاف الثلاثة يسألونهم
عن الرجل الذي حملوه إلى الداخل على النقالة، ولكنهم لم يجيبوا بأية كلمة
تطمئن الباكيات، وركبوا العربة وساروا بها مسرعين.

بعد لحظة، لمحنا البواب وهو عند الباب الداخلي للمستشفى، ولوح لنا بيديه
مشيرًا إلينا بالدخول. سرنا خلفه. وسألنا: - إتم عارفين العنبر اللي همَّ
موجودين فيه؟

- لا.

- يعني انتم حتدوخوني معاكم، ولسه الأطباء ما مشيوش!

واسترسل قائلاً:

- طيب اسمعوا.. أنا رايح أخش معاكم، إذا واحد من الأطباء شافكم ابقوا
قولوا احنا جايين للراجل المتعور اللي دخل دلوقت.

فرد الواد السيد الصفطي:

- طيب وحنقول كده ازاي؟ دا احنا ما نعرفوش.

- بسيطة، هوّ من محلة أبو علي.

فسألته:

- هُوَ متعور من إيه؟

- العمدة سلط عليه أنصاره ضربوه بالشوم، أصله يظهر عليه من الوفد، البلد فيها دوشة.

وتلفت حوله يمينًا ويسارًا ليتأكد من أن أحدًا لم يره، واسترسل قائلاً: -
الحيطة لها ودان، إللي يتكلم كلمة ينقطع عيشه. مفيش أمان.. ربنا يستر..
يلاً.. فهمتوا تقولوا إيه إذا حد من الأطباء قابلكم؟ آهي مجازفة.. يلاً.

وسار ونحن خلفه. وتلفت حولي ونحن نسير فلم أجد أحدًا سوانا. الهدوء يخيم على المكان.. لا صوت ولا حركة سوى صفير الهواء الذي كاد أن يخرق أذني. وتملكني الخوف عندما اقتربت من الداخل، وثار أشجاني، ووردت في ذهني ذكرى مؤلمة، عندما كنت أسير خلف أمي قبل شروق الشمس كل يوم جمعة لزيارة أبي في المقابر، كان كل شيء يشبه ما نحن فيه الآن. لا صوت إلا صوت الرياح والزوابع، والصمت يخيم على المكان كصمت القبور. ازددت فرغًا، واقشعر بدني عندما وصلت إلى الباب الداخلي للمستشفى. رأيت برميليًا مليئًا بالقطن المخضب، فتحاملت على نفسي وأنا أكاد أشعر أن أحشائي ستخرج من فمي.

وفي الداخل توقفنا أمام باب مكتوب عليه «أمراض باطنية» ودخلنا. وإذا بي أجد أسرّة على الصفيين، على كل منها رجل بجلباب أبيض باهت، ورؤوسهم مخلوقة بالموس. البعض ينام منكفئًا على وجهه ويداه متدلّيتان من جانب السرير، والبعض الآخر مضطجع ومغطى بملاءة دمور. الوجوه شاحبة، والعيون صفراء، وهم جميعًا يتطلعون في لهفة. لم نكن نسمع سوى آهات حزينة منبعثة من أجساد أنهلكها المرض، آهات تقطع الأكباد.

وكلما تقدمنا في المسير لم تفارقنا نظرات المرضى، وكأنهم يرغبون في أن يتحدثوا إلينا ويقولوا لنا شيئاً. خرجنا من العنبر بعد أن تفحصنا وجوه المرضى، ولم نعثر على أحد من العمال الذين نعرفهم، وخرجنا نبحت في باقي العنابر. وأمام عنبر كتب على بابه «الجراحة» توقف البواب وبجانبه عبد العظيم.

قال البواب:

- تخشوا تشوفوهم هنا؟

- العنبر ده مكتوب عليه «جراحة»، وهمّ ما حدش فيهم متعور، دول قاموا من البيت الصبح بسلام مفيش عندهم حاجة غير الكحة اللي ما بتخليهمش يناموا طول الليل.

فرد البواب:

- هوّ انتم حتخسروا حاجة؟ تعالوا خشوا وشوفوهم، أنا رايح أدخلكم كل العنابر علشان أبقى عملت اللي عليّ.. آهو كل شيء بثوابه.. يلاً.

وتقدمنا بالدخول ونحن خلفه.

وفي الداخل، وجدنا نفس النوع من الأسرّة وعليها رجال وأطفال لم يبلغ الواحد منهم أكثر من ١٢ سنة، ومنهم من كان جالساً القرفصاء واضعاً يده تحت خده واليد الأخرى مبتورة، الوجوه صفراء ليس بها نقطة دم. وآخرون نائمون غطى القطن والأربطة وجوههم. وبينما نحن نسير سمعت صوتاً يناديني باسمي فتلفت حولي باحثاً عن المصدر، ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت طفلاً جالساً القرفصاء يلوح بيده نحوي. تقدمت إليه، فنهض واقفاً، واحتضنني، وقال: - إنت مش عارفني؟ أنا سيد اللي كنت باشتغل معاك في

الغزل! إنت مش فاكرك لما كنت نايم في الصندوق والمباشر دلوق عليك جردل
الميه وغرق لك هدومك؟ أنا اللي نشفتها معاك! بص في وشي وانت تعرفني!
بص.. إنت ناسيني، أنا فاكرك!

نظرت إليه طويلاً متأملاً، وتذكرته بعد فترة وقال هو: - هيه.. عرفتني؟

- أيوه، افكرتك، مش انت اللي كنت واقف على مكنة الغزل وبتدورها لما
كان المباشر بيجمعنا ونقلع الوش لما يخلص؟

- أيوه.. أهو انت افكرتني.

- أمال مالك كده وشك أصفر؟

- من الدم اللي اتصفى مني! شوف دراعي! قطعهولي الحكيم!

- من إيه؟

- أنا عارف!! أنا كنت وقفت المكنة وقعدت أنظف القطن اللي لف على
التروس وسخها، وجه واحد من العمال يدور المكنة من غير ما آخذ بالي،
فالتروس دغدغت إيدي، لم أشعر بما حدث لي. ولما صحوت وجدت نفسي
هنا ودراعي مقطوع!

قالها وهو يبكي. ثم استرسل قائلاً:

- خلاص، ما عدتش أقدر أشتغل!

- أمك عرفت؟

- لا. دي لو دريت رايحة تنتقط! ياما قالت لي ما تروحش، خليك مع اخواتك..
أنا اللي رفضت وفرحت لما جات الأتومييلات البلد ولمت الناس، أنا اللي
اتشعبطت معاهم! لو كنت سمعت كلام أمي ما كانش دراعي راح وبقيت أكتع
بيد واحدة!

وبينما نحن في حديثنا وضع عبد العظيم يده على كتفي قائلاً: - يلاً بينا عشان
نشوف الناس اللي احنا جايين علشانهم، يلاً لاحسن البواب زعلان.

تركت العامل الطفل باكي العينين، وكلما تقدمت خطوة تلفت ورائي لأراه
واقفاً وعيناه الدامعتان تتبعاني إلى أن حجيني الباب عنه. وسرت خلف عبد
العظيم لحظات، ولكني عدت مرة أخرى لأنظر للعامل وعيناى تبكيان. ألقيت
عليه نظرة أخيرة، وقلت في نفسي: «هو ده اللي كان بالأمس معي واقفاً
على مكنة الغزل يتنطط ويداه سليمتان!».

انصرفت أسير خلف عبد العظيم، وإذا بالبواب يقول فجأة: - حاسبوا.. اتداروا!

قلنا:

- حنتدارى فين؟ حصل إيه؟

- خلاص.. خلاص وصل، مفيش فائدة.

وإذا بنا نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام واحد لابس بدلة وفوق منها مريلة بيضاء
شفافة ومعلقة في أذنيه سلوك تشبه النيكل. وتكلم قائلاً: - إيه دول؟ إنتم
إيه؟ إيه اللي جابكم هنا؟!

فأسرع البواب بالإجابة قائلاً:

- دول يا سعادة الباشحكيم ناس جايين من محلة أبو علي عشان يشوفوا
الراجل اللي جه دلوقت متعور، ويطمنوا عليه.

فرد بلهجة حادة قائلاً:

- إيه اللي جابهم هنا ودخلهم؟

- أنا اللي دخلتهم يا سعادة البيه.

- الراجل اللي جه دلوقت متعور وفاقد النطق، وما حدش يروح ناحيته.

فقال البواب بصوت حزين خافت:

- حاضر يا سعادة البيه.

وتطلع إلينا البواب وقال:

- سامعين؟ آدي انتم شفتم بعينيكم.. تعالوا استريحوا جنب الحمام على بال
ما يروق وندخلكم تشوفوه.

وأخذنا واتجه نحو الحمام، وسار الباشحكيم إلى مكتبه. ولما ابتعدنا قال
البواب: - شايفين.. كنت حاروح في داهية، لولا ربنا سلم ولساني ما توقفش
عن الكلام، إنتم أصل نيتكم سليمة والناس اللي جايين تشوفوهم يظهر ولاد
حلال. دي كانت فيها رفت.. يلاً.. قبل ما يطلع من المكتب.

أسرعنا الخطى خلفه نبحث عن العمال في بقية العنابر، وأمام عنبر مكتوب
على بابه بالخط العريض «عزل» توقف البواب وقال: - رايحين تخشوا
تشوفوهم هنا ولّا إيه؟

فرد عبد العظيم:

- وإيه عنبر العزل ده كمان؟

- العنبر ده هو اللي فيه الناس اللي عيانين بمرض مُعدي، عشان كده سموه
عنبر العزل.

- وإيه اللي راح يجيهم هنا في العزل؟ دول طالعين من البيت سُلام، ما
عندهممش لا مرض مُعدي ولا حاجة!

ولم يكمل عبد العظيم حديثه، لأن أيدي بعض المرضى ارتفعت وأخذت تلوح
من بين البطاطين. وقف عبد العظيم ينظر وعيناه تتسعان من الدهشة. وبعد
فترة صمت لم تدم طويلاً زعق عبد العظيم بصوت عالٍ: - أهم. همّ اللي
نايمين وبيشاوروا. إيه اللي جابهم هنا؟! والله العظيم همّ!

تركنا واقفين وأسرع نحوهم، وأسرعنا الخطى خلفه، وعبد العظيم يتنقل من
سرير إلى آخر ويتمعن في وجوه الرجال النائمين على ظهورهم وعيونهم
تسيل منها الدموع. قال أحدهم لعبد العظيم وهو يبكي: - كده يا عبده تشور
علينا الشورة دي؟ آدي احنا جينا وسمعنا كلامكم.. أهم حاشونا هنا والماهية
بتاعتنا حتنقطع، وأمهاتنا زمانهم مستنيينها علشان يسددوا بيها إيجار الأرض!
حنعمل إيه دلوقت؟! لو كنا عارفين كده ما كناش جينا وفضلنا نشتغل لما
نموت، والواحد هنا لما بيعطش ما بيلاقيش حد يسقيه!

فتساءل عبد العظيم قائلاً:

- إيه اللي حصل؟ همّ حاشوكم ليه؟

- هو احنا عارفين حاشونا ليه؟ دا أول الحكيم ما كشف علينا كتب على التذكرة «عنبر العزل»، وأول ما بص في وشنا قال: «إنتو بتشتغلوا في الشركة؟» كما لو كان عارف. إيه.. إيه.. حتبقى غربة فوق الغربة؟! مش كفاية اتغربنا عن بلدنا، كمان حنتغرب عن الناس اللي سكننا معاهم وعرفناهم؟!!

وانتابته الكحة.. كحة متواصلة، يعقب كل منها تأوهات حزينة، ويردد باستمرار: «آه ياني.. آه يا امه تعالي لي...»، واشتدت الكحة وتعالى التأوهات، وصدرة يعلو ويهبط، وفجأة اتنظر من رقدته جالسًا، ولم يتمالك أن يمنع نفسه فتقياً دمًا أغرق ملابس كل من كانوا يجلسون بجانبه، وذعر من هول ما رأى، فصرخ صرخة عالية أزعجت كل المرضى النائمين في العنبر، فأتوا والتفوا حوله. وأتى أحدهم بطبق أبيض واسع ووضعه أمامه، وظل يتقياً دمًا حمراء زاهية إلى أن غاب عن الوعي، وتدلى رأسه ومال على الشباك، وشحب وجهه فأصبح أصفر ليس فيه بقعة دم، وحول عينيه سواد. وحضر الحكيم على أثر الصرخة المدوية ومعه عدد من التمرجية، ورفعت البطاطين المملحة بالدم، وأعاد الحكيم الكشف، وأخذ تذكرة كانت معلقة بالسريير وكتب بها كلامًا وأعادها إلى مكانها، وتكلم مع التمرجية كلامًا لم نسمعه ثم خرج، وطلبت منا التمرجية الخروج من العنبر لأجل راحة المريض. وقبل أن نخرج، أعدنا النظر فيما كتبه الحكيم على التذكرة، فاستطعنا أن نقرأ ما يلي: بالكشف على المريض عند دخوله أمرنا بعزله لاشتباه في مرض صدري «سل» ناتج من سوء تغذية وإرهاق في العمل. وقد أثبتت التحاليل التي أجريت حتى الآن ذلك.

وفي سطر أخير كتب:

بالكشف عليه الآن بعد أن استُدعيت تبين أن نبضه مرتفع وحالته ليست مطمئنة.

خرجنا من العنبر ونحن ننظر إليه في نومته، ورأينا الدموع تسيل من عينيه المسبلتين. وخرجنا دون أن نتمكن من الكلام معه لأنه كان فاقد الوعي لا يتحرك.

ونحن في الطريق إلى باب المستشفى الخارجي، كنا نسير ونحن في ذهول من هول ما رأينا. كان شيخ المريض النائم على السرير ورأسه المائل وعيناه المسبلتان والدموع مناسبة من بين الجفون، كانت كلها ماثلة أمامنا في كل خطوة نخطوها. ولم نشعر بما حولنا إلا على صوت البواب وهو يقول: - إنت مالك يا واد انت وهوّ كده؟ ماشيين مش على بعضكم كده ليه، ورجليكم عمالة تلف على بعضها؟! هو انتم بتعيطوا؟! امسح عينيك يا واد انت وهوّ، خليك رجالة، أمال خليتوا إيه للنسوان؟! تعالوا اغسلوا وشكم تحت الحنفيه دي وروقوا عينيكم.. إنتم طالعين على سكة مليانة عربيات ومعاكم عيال صغيرين، عربية تلطشكم ولّا حاجة!

واسترسل في حديثه قائلاً:

- هوّ انتم اللي كنتم عيتوهم؟ ما انتم شُفتم بعينيكم اللي عينه مقلوعة، واللي رجله مقطوعة، واللي نايم بيطرش دم.. كل الناس دول من يوم المدعوق المصنع ده ما انعمل هنا. وانا بقالي هنا مدة طويلة عمري ما شفتم حاجات سودة زي اللي شفتمها الأيام دي! خلوا بالكم يا ولاد من نفسكم وربنا يكفيكم شر المرض!

فرد عبد العظيم قائلاً:

- أنا السبب.. لو ما كنتش نُثرت عليهم ما كانوا جم واطرموا الرمية دي اللي زي الهباب! يا ريتهم كانوا روحوا بلدهم، كانوا يبقوا قدام أهاليهم. ما هو ده الشيء اللي مزعل الواحد وقاهره، إنهم عيانين هنا وأهاليهم في البلد ما يعرفوش عنهم حاجة!

وقال البواب:

- هو انتم حتشركوا بالله يا واد انت وهوّ ولا إيه؟! إن الله على كل شيء قدير.. ما هو قادر يروحهم بالسلامة.

- كتر ألف خيرك، يلا بينا يا جماعة، آهو ربنا معاهم.

وقبل أن نهم بالسير، سلم علينا البواب، وقال: - شدوا حيلكم. أنا رايح أخدمهم من عيني، ورايح أعوضهم عن أهاليهم وما اخليهمش محتاجين حاجة.. كل شيء عايزينه أنا رايح أجيبه لهم، وانتم ما تبقوش تيجوا إلا يوم الجمعة يوم الزيارة.

قالها وانصرف متوجّهًا إلى الداخل.

وعندما وصلنا نحن إلى الباب الخارجي للمستشفى وجدنا كل ما هو في الخارج محمّرًا: السماء حمراء، والشمس حجبها السحب، والعواصف على طول الطريق، والأتربة تعلقو شواشي الشجر. سرنا في الاتجاه المعاكس للريح، والريح تدفعنا في صدورنا ووجوهنا، ونحن لا نتمكن من السير إلا وأيدنا فوق عيوننا من كثرة الأتربة، وكلما اشتدت الريح تساقطت أوراق الشجر، وسنابل القمح تتمايل كما يتمايل الجوعى عندما يشبعون. واصلنا السير رغم كثرة الأتربة ومعاكسة الريح لنا.

في محلة البرج

عندما دخلنا المدينة وجدنا كل شبابيكها مغلقة، والشوارع خالية، والباعة المتجولون ينزوون وراء الأبواب. وخرج عبد العظيم عن صمته الحزين وقال: - هيه، حنروح محلة البرج نشوف العمال أصحابنا، ولّا حنروح فين؟

فسأل الولد السيد الصفطي:

- هي بعيدة؟

- لا. إحنا قريبين منها، هي اللي متطرفة هناك دي.

نظر عبد العظيم إلى زملائه سكان حجرته وسأل: - إيه رأيكم إنتم كمان؟

فردوا قائلين:

- يلاً... إحنا حنروح فين دلوقت؟ نروح نضيع وقت.

- طيب.. يلاً بينا.

واصلنا السير، وكنت أسير أنا مسرعاً لأنني كنت شغوفاً برؤياها. فقد كنت أتخيلها - عندما أسمع اسم محلة البرج - ولها منازل رائعة تعلوها الأبراج التي تحجب السماء عن السائرين في الشوارع.

وسألت عبد العظيم:

- إنت جيت محلة البرج قبل كده؟

- أيوه.

- جنسها إيه؟ هي حلوة؟

فقهه عاليًا بعد حزن استمر ساعات، وقال: - إنت مستعجل ليه؟ ما احنا رايعين عليها أهوه. إنت شايف الولد اللي راكب الحمار وساحب الجاموسة

ده؟

- أيوه.

- أهو رايع على هناك.

فنظرت في الاتجاه الذي أشار إليه، فإذا بي أجد قرية لا تختلف عن قريتي أو عن القرى المجاورة لقريتي: بيوت من دور واحد من الطين، فانقبض قلبي، وأصبت بخيبة أمل، وقلت في نفسي: «ما هيّ دي الأماكن اللي العمال بتبحث فيها عن سكن». وكنا قد وصلنا إلى مدخل القرية. وهناك وجدت محل بقالة بضلفة واحدة. وواصلنا السير مخترقين الحواري، وفي عطفة بجوار الشيخ سليمان دخل عبد العظيم وخبط على شباك من ضلفتين، ونادى قائلاً: - يا واد يا شحات.

وفتح الشباك بعد لحظات، وأطلت منه وجوه كثيرة. وعندما رأوه قالوا: - أهلاً وسهلاً، تعالوا، اتفضلوا. تعال يا عبد العظيم.. اتفضل خش.. افتح يا جدع انت وهوه الباب.

وعندما دخلت الحجرة وجدت جانبًا منها مفروشًا بالحصير، وجانبًا مفروشًا بالخيش، وجانبًا مخصصًا لوضع القفف. رحبوا بنا ترحيبًا حارًا، وأصروا ألا

نجلس إلا على الحصيرة. وقال شحات لعبد العظيم: - أهلاً وسهلاً. إنت كنت
فين لحد دلوقت. أنا مستني من الصبح، كنت فاكر انك حتيجي بدري؟

ووجه كلامه إلينا قائلاً:

- إنتم مالكم؟ جايين وشكم متعفر كده ليه؟ لبدتك يا عبد العظيم مليانة تراب
ليه؟ مالكم عاملين زي اللي دافنين ميت وعينكم حمرة؟! حصل حاجة يا عبد
العظيم؟

- مفيش حاجة، ده شوية شرد بس.

- شرد ده إيه اللي يحمر العينين؟ قوم يا واد يا حسن قوم ولع الجوزة واعمل
لنا كرسي دخان.

واسترسل في حديثه قائلاً:

- ما تتكلم يا عبد العظيم، هو حد اتخانق معاكم؟ إنت جاي مش على عادتك!

- مفيش حد اتخانق معانا ولا حاجة. إحنا جايين من المستشفى.

- مستشفى إيه حد الله؟

- مفيش حاجة، دا شوية عمال من اللي ساكنين معانا في الأوضة عيانين من
مدة، عندهم كحة، ما كانوا بيناموا طول الليل، فأنا شُرت عليهم بالمرواح
للمستشفى عشان يجيوا شوية دوا يروقوا صدورهم، فالحكيم لما شافهم
أمر بعزلهم في عنبر العزل. إحنا لسه جايين من هناك على طول.

فسأل شحات:

- وازيهم؟ وحاشوهم ليه يا ترى؟

- صحتهم ما تسرش حبايب! دا احنا سيينا واحد منهم فاقد النطق من طرش
الدم اللي طرشه.

قالها ولم يتمالك نفسه من البكاء، فبكى. فالتفت كل من كان بالحجرة وقالوا
في نفس واحد: - دم إيه؟ همّ مسمومين؟ هو حد سمهم؟ دا ما بيطرش الدم
إلا المسموم!

فقال عبد العظيم:

- لا هم مسمومين ولا حاجة. الحكيم لما كشف عليهم لقي عندهم سل، وكتب
في التذكرة إن المرض ناتج من سوء التغذية والإرهاق في العمل.

فسأل أحدهم:

- همّ بيشتغلوا إيه؟

- بيشتغلوا في عنبر الكرد والتنظيف. ومعظم العمال اللي موجودين في عنبر
العزل بيشتغلوا في العنابر دي.

وقال الولد الغريب:

- دا احنا شغنا في المستشفى عمال كثير إيديهم ورجليهم متقطعين!

فرد كل الحاضرين قائلين:

- يا نهار أسود، دي حاجة زفت خالص! دا احنا ما بنشوفش حاجة على كده.

وقال عبد العظيم:

- إلهي عايز يشوف المصايب اللي جات ع العمال يروح يشوفها في
المستشفى! دا الواحد منا حياته ممكن تروح في شربة ميه، خبطة واحدة من
المكنة ممكن تجيب أجله!

انقبضت وجوه كل الحاضرين، وهز البعض رؤوسهم، وآخرون جزوا على
أسنانهم أو وضعوا أيديهم تحت خدودهم وأحنوا رؤوسهم وهم يفكرون فيما
يخبئ لهم الغد من أحداث.

ثم قال أحد الحاضرين:

- إنتم سكتم كده ليه؟ ما توحدوا الله. هو حد حيموت ناقص عمر. إلهي
مكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين، سوا كنا في المصنع أو ماشيين ورا
الجاموسة، فرفش يا جدع انت وهوه كده، وقوم يا واد يا شحات ولع شوية
قوالج واعمل لنا كرسيين دخان. إنتم دخلتم علينا زي هم الموت كده ليه؟ يا
قاعدين يكفيكم شر الجايين. إحنا كنا قاعدين من الصبح في أمان الله
مستنينكم علشان نتمشى شوية برّه فجيتوا ركبونا هموم الدنيا. قوم يا واد يا
علي، قوم خد من جيب الصديري قرشين هات لنا غسل وطحينة من الدكان
اللي على الشارع. وانت يا واد يا شحات قوم فز وخذ شوية عيش من القفف
وروح بلهم بشوية ميه على بال ما يبجي العسل والطحينة وخلينا نتغدى.

ونظر إلى عبد العظيم وقال:

- هو انت تروح المستشفى تجيب لنا الغم معاك! ما تعرفنا يا جدع بالناس
اللي زي الورد دول.. إلهي خايف من الشغل ومن الممكن يروح بلده أحسن ولا

يعتبهاش. هو انتو كل ساعة تنغصوا علينا باللي انقطع دراعه واللي انقطعت
رجله واللي كلته المكنة؟! يَّلا يا اخويا انت وهو يَّلا.. بلا قرف! إحنا ما دام جينا
من بلدنا ورضينا بالشغل ده، يبقى نشتغل واللي حيعمله ربنا هو اللي حيكون.

فرد آخر عليه قائلاً:

- هو انت يا واد يا إبراهيم عشان ما بتشتغل عتال وبعيد عن المكن تقوم
تتكلم الكلام الفارغ دهو؟!
تتكلم الكلام الفارغ دهو؟!

فرد إبراهيم منفعلاً:

- عتال إيه؟ يعني إيه؟ ما انا باشتغل في المصنع زي أي واحد منكم وأكثر.
الواحد منكم واقف على حته مكنة ما بيتنقلش من قدامها طول النهار.. أنا بقه
طول النهار باجرجر عربية مليانة قطن وباوديتها في عنبر فيه كل مكنة ومكنة
قد البيت ده، ولما أفضيها أقف جنب المكنة أساعد العمال. أنا باشتغل شغل
أد الواحد منكم عشر مرات. الواحد منكم مفيهش إلا لسان! أنا أراهن لو كان
حد منكم يقدر يعمل مكاني ربع ساعة.. والله العظيم ما حد يقدر. الواحد
فيكم لو راح ناحية العنبر نفسه ينسد من الزغبار والأتربة اللي مالية العنبر. دا
الواحد يبقى طالع زي الأعمى من الزغبار اللي معشش على عينيه. تقوم
تقول انت بتشتغل عتال؟! ماله العتال؟ مش عامل زيه زيكم طافح الدم طول
النهار!

فرد عليه قائلاً:

- هو انت زعلت؟ أنا أقصد إنك ما بتشتغلش على مكن، وعشان كده ما انتش
خايف.. ده قصدي. هو العتال إيه واللي واقف على مكنة إيه؟ ما هو كله

محصل بعضه! قوم بقى يلاً كده طلع زرين خيار مخللين من المحلبة واغسلهم
وحطهم جنب الأكل على الطبلية.

وتوجهت بنظري إلى إبراهيم الذي تحدث منذ لحظة والذي يعمل في عنبر
يملؤه الزغبار لدرجة تكتم الأنفاس. وتأملمته طويلاً. وزاد تأملي له وهو يتحرك
في الحجر، ولم تبرح عيناى وجهه، ولم أشعر بما حولي وقد سرحت بخيالي
إلى المستشفى مع الذين كانوا يعملون بالأمس في نفس العمل، وهم الآن
راقدون على الأسرة فاقدو النطق لا يستطيعون الحركة. وصحوت من
سرحتي على صوت شحات وعبد العظيم وهما يقولان: - يلاً استعدوا، الأكل
جهاز وطلب الأكلة.

التفنا حول الأكل وكل منا يدفع الآخر محاولين خلق جو من البهجة في
الحجرة. ومع ذلك لاحظت أن إبراهيم كان شارداً ذهن، وعيناها الحادتان
نصف مغمضتين وهو يضع إصبعه بين حاجبيه، ولاحظ عبد العظيم ذلك فهزه
هزاً عنيفاً قائلاً: - مالك يا إبراهيم؟ مالك كده حزنان ليه؟ ما كنت بتتكلم زي
البربند؟! هو من ساعة ما قال لك انت بتشتغل عتال وانت زعلان ونزل عليك
سهم الله ليه؟ ما تاكل يا جدع، العسل والطحينة قربت تخلص.. الناس نزلوا
عليها هرس زي الغيلان! كل يا جدع بلاش كلام فارغ.. إنت لو كنت جيت معنا
المستشفى وشفت بعينيك العمال وهم نايمين كنت عرفت إن الله حق: إلهي
رجله مقطوعة، واللي... كنت عذرتنا! دا احنا لما رحنا المستشفى وشفنا
البلاوي اللي هناك جينا والههم راكبنا. الواحد ما بقاش عنده أي اطمئنان، وكان
لنا حق نزعل. وانت بتزعل عشان بيقول لك انت عتال، هو بس يقصد انك
بعيد عن الممكن!

فأسرع إبراهيم يرد قائلاً:

- أنا مش زعلان ولا حاجة.. أنا من ساعة ما انتم جيتوا من المدعوقة
المستشفى وأنا من ساعتها مش مطمئن على حياتي، وانت مش قلت يا عبد
العظيم إن العمال اللي بيشتغلوا في عنابر الكرد والتنظيف همّ اللي في
المستشفى وبيطرشوا دم! ما انا باشتغل في نفس العمل.. أنا ليه ما ازعلش
بقه؟ ما انا مصيري زي مصيرهم! وانا لما كنت باتكلم كنت باهون عليكم
الموضوع!

فرد عليه عبد العظيم:

- يعني خلاص ما انتش زعلان من كلمة عتال؟

- لا.

- طيب.. الأعمار بيد الله. هو الواحد رايح يعيش أكثر من عمره.

ودخل شحات في الحديث قائلاً:

- ما تسيبوكم من الكلام ده وتخلصوا أكل عشان نشرب لنا كرسيين دخان
ونشوف حنعمل إيه.. هو احنا حنقعد نتكلم طول النهار؟! يلاً يا إبراهيم، القوالح
ولعت، يلاً عشان تسلك لنا الجوزة وتصلحها. قوم ما حدش بيعرف يولع
الجوزة ويخليها تصهلل غيرك.

واسترسل شحات في كلامه قائلاً:

- لا مؤاخذة يا اخوانا، ما عندناش حاجة نعمل عليها شاي، وما عندناش براد
ولا كوبايات.

فنهض إبراهيم وهو يقول:

- خلاص، أنا قايم أرض الجوزة وأشرب لي نفسين بسرعة، ونطلع نتفسح.

ووجه كلامه إلى عبد العظيم قائلاً: - إنت رحت فين يا عبد العظيم النهارده؟

- إحنا رحنا الصبح مصينا قصب على الشون قبل ما نروح المستشفى.

- يا بختك يا أخي.. إحنا هنا من الصبح لحد دلوقت ما خرجناش، يا دوب غسلنا

كل واحد الجلابة اللي حيلته وقعدنا مستنيين حضرتك.

ووجه إبراهيم كلامه إلى الحاضرين قائلاً: - إيه رأيكم بعد ما نشرب لنا نفسين

نطلع نتمشى برّه شوية ونضيع الغم؟

وسأله شحات:

- نتمشى نروح فين؟

فرد إبراهيم:

- نروح نتمشى ناحية الخبيرة.. نروح نهيص.

ونظر إلينا شحات متسائلاً، فقلت:

- خبيرة إيه؟ هي الخبيرة فيها نسمة؟! إحنا حنروح نهرس في أرض الناس؟

واللي عنده حته أرض لو شاف حد ماشي فيها يقطع رقبتة. يلاً نروح نقعد عند

محطة الدلتا نتفرج على البوابير وهي جايبة الناس من بلادهم.

فضحك شحات وإبراهيم ضحكاً عالياً، واستمرا يقهقهان.. وشاركهما في

الضحك عدد كبير ممن كانوا يجلسون في الحجرة. وبهت من ضحكاتهم،

وشعرت بالخل، وتلفت حولي ناظرًا إليهم وهم يمسحون الدموع التي تنساب على خدودهم من كثرة الضحك بأكمام جلاليتهم. فهزيت رأسي، وآثرت الصمت، وأخذ العرق يتصبب من جبيني. واستمروا هم في ضحكاتهم التي جذبت عددًا آخر من العمال المجاورين للحجرة. وانقلبت الحجرة إلى مسرح كان مكبوتًا. لم تفارق عيناى الوجوه المرححة وأنا أسائل نفسي: لم يضحكون، أنا لم أقل شيئًا يستحق الضحك؟! هل أضحكتم الكلمة التي قلتها عن الخبيزة، أم أضحكتم كلماتي عن الذهاب لمحطة الدلتا لرؤية القطارات؟ هل ضحكوا استخفافًا من كلمتي هذه أم من تلك؟ وبعد أن هدأت الضجة، وكف العمال عن الضحك قال عبد العظيم: - إنتو بتضحكوا على إيه؟ هو ده كلام ينضحك عليه؟ ما هو صحيح له حق.. ما لقيتوش غير الخبيزة تروحوا تتفسحوا فيها؟

فرد إبراهيم وهو منهمك في وضع الحجر على الجوزة: - ما هو ده اللي احنا بنضحك عليه. إحنا في وادي واتم في وادي آخر، ما هو ده اللي ضحكنا.

وقال عبد العظيم:

- ما هو لسه صغير، ما يعرفش إيه الخبيزة، وافتكرا انها خبيزة مزروعة.

فرد إبراهيم:

- هو انت كمان مش عارف؟!!

قال عبد العظيم:

- ما هو من يوم الواحد ما جه من البلد وهو من البيت للشغل ومن الشغل

للبيت. ما هو صحيح الخبيزة حد يتفسح فيها؟! دا اللي عنده حته أرض ما

حدش يقدر يخش ويمشي فيها.. هل تضحكون من هذا؟ أم تضحكون
استخفاً؟ يلاً نروح نقعد في حنة تانية غير دي ونشوف الدنيا، نروح نمص
قصب عند الشون.. الدنيا ليل دلوقت والقاعدة هناك تبقى جمال.

فرد إبراهيم قائلاً والبسمة تعلقو شفتيه: - يلاً نروح الخبيزة يا جدع انت وهو.

نروح ونتفسح!

واسترسل قائلاً:

- أما انتم صحيح لسه لابسين اللبدا!

فرد شحات وقال:

- إحنا كده، وحنفضل لابسين اللبدا والهدوم الزرقة على طول! إحنا جايين ناكل
عيش وعايزين نعيش زي أهالينا.

وقال إبراهيم:

- إنتو مش عارفين الخبيزة يعني إيه؟ الخبيزة دي الناس اللي مكتوب على
جبينهم الوعد.

جولة في الشوارع

سأل عبد العظيم:

- يعني إيه الناس اللي مكتوب على جبينهم الوعد؟

فرد الشحات:

- ما سمعتش على الموال اللي بيقول: من يوم ما اتخلق سيدنا آدم وسيدنا نوح.. وانا بابص في اللوح ألاقي الوعد مكتوب لي.

كل واحد مكتوب عليه وعد لازم يؤديه. هو احنا جينا علشان مكتوب على جبيننا لازم نتغرب عن أهالينا ونعيش العيشة اللي زي القطران دي؟! وكمان النسوان اللي جايين في الخبزة جايين من بلادهم هنا علشان يؤدوا الوعد المكتوب على جبينهم.

قال عبد العظيم:

- وهم جايين يشتغلوا زينا.

- أيوه جايين يشتغلوا، بس شغلة من نوع تاني.

- يعني إيه من نوع تاني؟

- يعني نخش ندفع قرشين أو ثلاثة تعريفة.

نخش نحض ونبوس.. يا خرابي! يا هوه! ملبن يا ابني! والله اللي يعيش ياما يشوف، واللي يمشي يشوف أكثر.. حاجات على كيفك، ما تخليكش تنام!

فقلت، وقال الولد الغريب معي:

- يا نهار أسود! بقرشين صاغ أو ثلاثة تعريفة تخش تحضن وتبوس وتهيص،
ليه؟ همّ ملهومش أهل؟ دولا لو كانوا في بلدنا كانوا أهاليهم دبحوهم ودفنوهم
في التراب بالليل!

فرد إبراهيم قائلاً:

- في بلدك حاجة، وهنا في المحلة الكبرى حاجة تانية، هاهاها.. إيه رأيكم؟
وإيه رأيك يا عبد العظيم؟ يلاً نشوف الدنيا، يلاً ندردح.

فرد عبد العظيم:

- مش حرام يا واد انت وهوه؟

- حرام إيه؟ هو لو كان حرام كانوا سمحوا بيها؟ مش حرام ولا حاجة، هو احنا
بنسرق؟ إحنا بندفع فلوس.

احمر وجه عبد العظيم، وجرى الدم في عروقه، ونظر إلينا قائلاً: - هيه.. إيه
رأيكم؟

هزيت رأسي وقلت:

- نروح نشوف الحاجات دي.

وقال شحات:

- يَلَّا بينا يا واد يا عبد العظيم، يَلَّا نشوف الحاجات اللي ما شفناهاش.. يا سلام.. واهو من حظكم الدنيا راقت والسما صفيت والسحب مشيت وزرقة السما باتت صافية نشوف فيها النجوم.

فقال عبد العظيم:

- أهى ليلة، نروح ونشوف الناس اللي مكتوب على جبينهم الوعد والمكتوب.. بس على شرط يا جماعة، إحنا نروح ونتفرج ونيجي على طول، أحسن حد من العيال بتوع بلدنا يشوفنا ويروح البلد يعمل لنا فضيحة.

فرد الحاضرون وقالوا:

- إحنا نطلع وما نروحش الخبيزة إلا بعد الدنيا ما تضلم. يَلَّا يا جدع انت وهو، البس هدومك، ويَلَّا نمشي واحدة واحدة.

خرجت أنا والولد الغريب والولد السيد الصفطي تتمشى في حوش المنزل، ونتطلع إلى الحجرات التي يسكنها العمال، وفجعنا حين لاحظنا وجود غرفة في آخر الحوش ليس بها أحد من السكان، وتنبعث منها رائحة كريهة جدًّا.. جرينا مسرعين عائدين إلى أصدقائنا، ولاحظ إبراهيم ذلك فقال: - مالكم؟

فشاورنا على الحجرة التي تنبعث منها الرائحة. فابتسم وقال: - إنتم رحتم ناحيتها ما طقتوش.. أمال احنا اللي رايعين جايين داخلين فيها نعمل إيه؟!

وقال الولد الغريب:

- الريحه الوحشة دي من إيه؟

- دي كانت زريبة تتربط فيها البهايم قبل ما يسكن العمال في البيت. أما الآن فهي مرحاض يستخدمه أكثر من أربعين ساكن. واللي يخش يعمل زي الناس يعمل نقرة في الأرض وبعدين يردم عليها. لكن ما حدش بيستعمل المنقرة ويفحت في الأرض ويردم بعد ما يخلص، معظمهم ما بيعملش كده، وده سبب الريحه الوحشة.

- هو انتو بتخشوا واحد ورا واحد وَلَا بتخشوا مع بعض؟

- ونخش واحد ورا واحد ليه؟ هو المرحاض زي الزريبة؟

إحنا بنخش أكثر من واحد، بنبقى قاعدين أكثر من واحد مترصين زي ما كنا في البلد، بنعمل زي الناس على الكوم.. هو إحنا رايعين نكسف، ما إحنا رجاله! وصحاب البيت كل حين وحين لما يجيوا حملين ردم ويحدفوهم لنا في الزريبة، ما همش سائلين فينا! هَمَّ بس بيجوا ياخدوا الإيجار وخلص. ملهومش دعوة إن كنا نتقرف وَلَا ما نتقرفش!

كان العمال قد انتهوا من تغيير ملابسهم، وأغلقوا الحجره وقالوا: - يَلَّا بينا.

فقال عبد العظيم:

- اسمعوا، أنا باقول أهو، إحنا مش عايزين نروح الخبزة إلا بعد الدنيا ما تضلم، يعني لما تبقى الدنيا كُحل.

ونحن في الطريق، عند أول شارع الحنفي، وجدنا زفة طالعة من الشارع والمزيكة بتدق، ونسوة على الصفين، وأخريات يسرن خلف المزيكة بأيديهن صعب الورد متعددة الألوان، وخلفهن عربات كارو تجرها الخيل محملة بشوار العروسة. وفي مقدمة الزفة رجاله من أهل البندر بملابسهم الإفرنجية

والبلدي، وآخرون من العمال الذين يشتغلون في المصنع. وفي ميدان فسيح، خلف صهريج المياه العالي، وقف الرجال خلف المزبقة في حلقة دائرية، ويتوسط الحلقة شاب يلبس مقطع حرير سكروتة سماوي اللون ويده عصا محلب ذات يد معوجة، واتسعت الدائرة، ووقف الشاب يلعب بالعصا.. وعلى دقات الطبول وأنغام الموسيقى، وقف الشاب يرقص.. وتعالى الأنغام، وازداد حماس الشاب في الرقص وأبدع، وعندما نام الشاب على ظهره وبدأ يرقص تدافعت النسوة واختلطت بالرجال، وأخذ الشاب يرقص رقصة البطن، وكانت بطنه تتموج كما يتلوى الثعبان، وتهتز على الأنغام وتتلوى. ولم تتمالك النسوة فوقفن يتطلعن إلى حركات البطن وهي تتماوج كأماج البحر. وانفعل كل من كان في الدائرة، وبدأ النصف التحتي للنسوة يهتز على الأنغام، وانتهى الشاب من رقصته، ووقف يضرب الأرض بالعصا. وعند الضربة الأولى توقفت الطبول كما توقفت الموسيقى عن العزف. وردد الشاب: - الفرح.. أهل الفرح.. العريس.. أهل العريس.. المحلة.. المحلة بس.. العُرب لأ.. الصنایعية.. صنایعية النسيج بس.. أهل المحلة.. الشركاوية لأ.. إلی غلوا علينا المش لأ.. دُقي يا مزبقة.

وعزفت الموسيقى، وتعالى الزغاريد، واشتعل الحماس. وعلى الأنغام، بدأ الناس يرددون بأصوات تشق السماء: «يحيا سعد» ترن تن تن.. «يحيا سعد» ترن تن تن.. وأخذني الحماس، فصحت هاتفاً: «الورد كان شوك من عرق النبي فتح»، فعاد الشاب يردد مرة أخرى: - الغربا عن أهل البلد لأ.. إلی غلوا علينا المش لأ.

وتلفتت أنظار أهل المحلة إلى العمال ذوي الجلابيب المتعددة الألوان، نظرات تنم عن التحدي وتنذر بالاشتباك.

ولم أكن أعي أن هذه النظرات تتجه إليّ إلا بعد أن داس أحدهم على قدمي بعنف، فصرخت صرخة مدوية، واختطفتني بعض النسوة من تحت الأقدام، وضممني في صدورهن، وأخذن يشتمن من داس على قدمي: - حرام عليك، هو انت ملكش إخوات؟ ما لقيتش غير الغلبان ده تتشطر عليه؟! دا ما يجيش قد دراعك!

وأخذن يطبطن عليّ يحاولن تهدئتي. ونظرت محاولاً أن أرى ذلك الذي داس على قدمي، فلم أتبينه من كثرة الدموع التي ملأت عيني. وجاء عبد العظيم وأخذني من بين أحضان النسوة قائلاً: - إنت بتعيط؟ قوم، دلوقت تخف!

وحاولت النسوة منعي من السير معه، ولم يسمحن بذلك إلا بعد أن عرفن أنه معي. ومسحت إحداهن عيني بطرف ملاءتها قائلة: - معلش، ربنا يوعدهم بالأقوى منهم!

وسرت على قدم واحدة رافعاً الأخرى من شدة الألم.

لم أستطع السير، فجلست على الرصيف وأصداء الموسيقى ودقات الطبول تخرق أذني، وتطلعت حولي من خلال الدموع فرأيت إبراهيم والشحات وعبد العظيم والولد الغريب والولد السيد الصفطي وعدداً كبيراً ممن لا أعرفهم من العمال ينظرون إليّ وعيونهم يتطاير منها الشرر قائلين: - إيه ده؟ إلى متى نحتمل كل الإهانات والشتائم؟ مش إيه ولاد ال... اللي احنا غلبناه عليهم! كل ما ندخل حارة أو عطفة نسمع الكلام ده! هو احنا كنا قتلنا أبهاتهم ولا اتجوزنا أمهاتهم!

ويقول آخر:

- ما هو الكلب ما يتشطرش إلا قدام بيته، عشان ما احنا عُرب ومش من هنا
يقوموا يعملوا فينا كده؟! راجل زي الفحل يتشطر على عيل زي ده ويدوس
على رجله يفرمها له!

وقال عبد العظيم:

- دي كانت تصليطه.. دول كانوا يبجروا الشكل لما داسوا على رجله، دول
عايزين يتخانقوا معانا بأي سبب! والله العظيم الواحد عايز يروح يعملها
معاهم، وزى ما يكون!

فرد رجل طويل ذو شارب مفتول:

- اقصر الشريا جدع! بات مغلوب ولا تبات غالب! اصبر لما تتمكن! أنا غريب
زيكم وباشتغل عامل في الشركة.. زيات باشحم الممكن، وباسمع شتيمتي
بودني، أكل العيش عاوز كده! دا الواحد لو كان بياخد على كل كلمة كان
زمانه بيتخانق ثلاثين خناقة في اليوم! دول شبان متفرعين وشايفين نفسهم،
بُكرة يعقلوا! يلاً اتوكلوا على الله وشوفوا رايعين على فين.

كانت الشمس قد غربت، وسطع نور الكهرباء، وتفرق الواقفون من حولنا،
وسرت ومن خلفي الولد الغريب والولد الصفطي وهما ينظران إليّ بعيون
تملأها الدموع. سرنا في شارع السكة الجديدة، وكان مزدحمًا بالناس هربًا
من الحر، وبجانب الأرصفة عربات محملة بالترمس والفول المقلي على
الصفين، وعربات أخرى كثيرة. وكان الزحام على عربات الترمس تاركين
العربات المحملة بالبرتقال والهريسة وجوز الهند. كان كل واحد يحمل
قرطاس ترمس، وهم يقزقزون وبرمون القشر في الشارع. واجتذبتنا الزحام
على الترمس فاشترينا وسرنا نقزقز ونرمي القشر في الشارع كالآخرين.

وكانت قدمي ما زالت تؤلمني. سرنا وأيدينا متشابكة تهتز، ولفت نظرنا الضوء المنبعث من الدكاكين، فاتجهنا نحوها. رأينا الرفوف عليها جميع أنواع الأقمشة: حرير، ودمور، وشيت، ودبلان من اللي بيحيوه للعرايس في بلدنا. ووقفنا ننظر وأيدي كل منا تشاور على النوع الذي يهواه ويتمنى أن يشتريه. وتسمر نظري على مقطع حرير سماوي اللون، وتمنيت شراءه، وعزمت على أن أطلب ذلك من أمي عند أول لقاء. ونظر إبراهيم إلى الرفوف وعليها الأقمشة قائلاً: - واد يا شحات، شايف القماش المتل في الدكاكين؟ دا قماش من اللي بنشتغله في الشركة، والواحد ما عندوش غير الجلاية اللي بيروح بيها الشغل.

- معلش يا إبراهيم، بُكرة ربنا يعدلها وتحوش المهر، ولما تيجي تتجوز تعال خد كسوتك وكسوة العروسة من هنا، وتبقى تلبس بدل الدمور دبلان.

- يا سلام يا شحات، إمتى ربنا يعدلها للواحد ويتجوز؟! هو الواحد لما ربنا يعدلها ويحوش المهر ييجي ويشترى من هنا ليه؟ ديك الساعة الواحد يبقى يعتر من محلات الويشي والشيمي من طنطا.. أحسن محلات.

- ليه؟ هو انت من الأعيان؟ ده ما يروحش المحلات دي إلا أصحاب الأطيان! دا انت نهار ما تتمطع مش حتدفع أكثر من خمستاشر أو عشرين جنيه، تبقى تروح محلات الويشي أو الشيمي ازاي؟ إنت حتخسر؟ ما تعيش عيشة أهلك وتتكلم كلام مضبوط! عريان ال... يتقمز تقمير ويقول باب الخمارة فين!

فرد إبراهيم قائلاً:

- لا تستكتر على الله! يمكن تيجي الطوبة في المعطوبة والواحد يلاقي لقية في الشارع. ما هي تيجي مع العور طابات.

وقال الشحات والبسمة تعلقو شفتيه:

- ما تقول أحسن تلاقي طاقيه الإخفا.. تروح تنهب بيها المحلات.

- يا ريت.. دا كان الواحد ينسب ولبس كل يوم جلابية وبهيص مراته ويجيب
لأمه واخواته هدوم.

ودخل آخر في الحديث قائلاً:

- وَاَقُولُكَ، شوف لك عفريت اضربه بندقيه وانت تلاقي تحته طاقيه الإخفا
تجيب بيها كل حاجة انت عاوزها، مش بس الهدوم.. التفاح والرمان والخوخ
والحاجات اللي احنا محرومين منها وما بنشوفهاش.

- هو احنا حنلاقي العفاريت فين؟ فين دلوقت؟ العفاريت سيناها في البلد، كنا
بنشوفها في الغيطان تحت الشجر مطرح الناس اللي كانوا بيتقتلوا أو اللي
وقعوا من فوق الحمير. إحنا سينا البلد باللي فيها وبعفاريتها وبقينا هنا في
البندر، لا بنشوف فيها عفاريت ولا حيكون فيه عفاريت. هي العفاريت بتطلع
إلا في الضلمة. مفيش إلا إذا كان الواحد يلاقي لقيه.

فرد الشحات قائلاً:

- دا الواحد اللي معاه قرشين يربطهم على وسطه ويتحزم عليهم.

فقال إبراهيم:

- إنت بتتكلم ازاي؟ أمال اللي بنوا الشركة دي بنوها منين؟ ما هم معاهم
فلوس، وَاَقُولُكَ بنوها منين؟

وقال الشحات:

- وهم اللي بنوا الشركة دول بيمشوا في الشارع زينا؟! دول ما بيمشوش
خطوة على رجليهم، دول بيركبوا الأتومبيلات وساكنين في السرايات. قول
أحوش من الماهية عشان الجواز يبقى الكلام معقول، أو تبع قيراطين أرض
إذا كان عندك، أو تبع الجاموسة. هو الفلاح أو العامل حيتجوز إلا لو عمل
كده؟

فرد إبراهيم:

- وهَيَّ الجاموسة موجودة؟ دا الجاموسة شركة، ولا نملكش بيعها.. دي هي
اللي بنعتمد عليها في زراعة القيراطين اللي أمي واخداهم بالإيجار.

وقطع الحديث الواد السيد الصفطي قائلاً:

- هو احنا حنفضل ماشيين لحد إمتى؟ دا الواحد رجله ورمت من المشي!

فرد إبراهيم:

- إنتم تعبتم؟ إيه رأيك يا عبد العظيم؟ العيال دول تعبوا من المشي، إحنا
دوخناهم معانا طول النهار. وانت مش شايف ان الدنيا ضلمت يلاً بينا نروح.

- فين؟

- إنت نسيت ولاً إيه؟

وقال الولد الغريب:

- نروح الخبيزة. مش انتم كنتم في البيت بتقولوا كده؟

فقهه عبد العظيم وقال:

- شايف العيال، ما ينسوش حاجة، عقلهم زي الدفتر!

ورد إبراهيم:

- أهى الدنيا ضلمت وما عادش عندك حجة، ولا تقدر تقول حد يشوفنا ولا
حاجة.

فتمتم عبد العظيم قائلاً:

- هي فضيحة ولّا أكثر.. ربنا يستر.. يلاّ بينا.

إللي مكتوب على جبينهم الوعد

واصلنا السير. ونحن في الطريق سأل عبد العظيم: - اسمع يا شحات، هو انتم قبل كده، رحتوا الخبيزة؟

- أيوه، رحنا، الواد إبراهيم هو اللي ودانا هناك. دا واد زي العفريت، ما نعرفش ازاي عرف الحتة دي، الواحد بييجي من الشغل مهدود حيله، طول النهار الواحد واقف قدام المكنة ١٢ ساعة على رجليه، ويا دوب الواحد ياكل وينام زي الكتاكت من شدة التعب. أما الواد إبراهيم ده ما تعرفش ازاي بييجي من الشغل ويا دوب ينام شوية، وبعدين يصحى وتنه طالع على برّه ويتنطط طول الوقت في البلد جاييها من أولها لآخرها.

فرد إبراهيم قائلاً:

- أمال إيه؟ زيكم كريات. أنا باشتغل على أد الفلوس اللي بيدوهالي. باشتغل ساعة واحدة بس. يا دوب الكاتب يمر ويكتب اسمي ويتحسب اليوم وأروح واخذ بعضي وتني ماشي على أي حتة، أشوف لي صندوق وأروح حاطط نفسي تحته وتني نايم للفجر. حنعمل إيه، ما هي فوضى! هو حد عارف حد؟ آلاف من العمال بتيجي كل يوم بالعربيات من كل البلاد، وكل ٥٠ عامل واقفين على مكنة، إللي بيتعلم واللي واقف.. وما دام أنا اتعلمت أبقى لازم أنام، ولما يبقوا يوقفونا على مكنة أقف وأشغلها وتكون تحت مسؤوليتي، مش حاهتم إلا لما يشغلوا العنابر اللي بينوها وأكون أنا عرفت مصيري، وأكون عرفت كل الحاجات اللي في البلد دي، دا انتو رايجين تشوفوا حاجات حلوة، دلوقت تشوفوها.. يا سلام، نسوان تقول للقمر قوم وانا أقعد

مطرحك.. أجدع واحدة بخمسة صاع، وفيه بقرشين وثلاثة تعريفة وكمان بقرش.. كل الأصناف تلاقبها.

وكان عبد العظيم يسمع باهتمام بالغ كلما تعددت أمامه الأصناف، ووجهه الأسمر يشع بالدم، وعيناه العسليتان قد اتسعتا، وأصابته رعشة ملكت كل حواسه كمن أصابه مس. وبحركة لا إرادية خلع اللبدة من فوق رأسه وقذف بها على رأس إبراهيم هاتفاً: - يحيا الوفد ولو فيها رفت.

قالها بصوت عال لفت أنظار كل المارة من نساء ورجال، حتى وقف البعض متعجبين، فنظر عبد العظيم وهو ينظف اللبدة مرتبكا، وتمتم بكلام غير مسموع، ثم قال: - إحنا حنشوف إيه هناك؟

- حنشوف حاجات حلوة، حتعجبك.

وقف بعض المارة ينظرون إلينا، وقالوا بصوت عال: - شايفين الفلاحين عاملين إيه.. أما شركاوية صحيح.. الفلاح لما يتمدن يجيب لأهله داهية.

ونظر عبد العظيم وهو يبدي عدم الاهتمام بكلامهم. وواصلنا السير بتباطؤ، وقال إبراهيم وهو ينظر خلفه: - الناس مش عاوزينا نضحك، مش عاوزينا نطلع الهم اللي على قلوبنا. قربوا شوية، دول واقفين يبصوا لنا، قربوا نبعد عن عينيهم، دول من أهل البندر اللي بيعتبرونا غلينا عليهم المش. دا الواحد ما شافش بلد تكره الغريب زي البلد دي!

وقال عبد العظيم وهو يتلفت حواليه:

- واحنا حنفضل ساكتين لإمتى على الناس دول؟

- قرب يا جدع، ابعده عن الشر وغني له، اسمع من هنا وفوت من هنا، والواحد لو خد على كل كلمة ما كانش عاش.. هو الكلام بيندفع عليه فلوس؟! سييك، دلوقت حتشوف حاجات تخليك تفرفش وتسبب الهم لحظة.

وكنت أتطلع إلى وجوههم وهم يتحدثون متمنياً أن أصل لرؤية ما يتكلمون عنه منذ كنا في محلة البرج. وكان كل ما أتمناه هو أن أصل إلى المكان الذي به النساء اللي تقول للقمر قوم وانا أقعد مطرحك. كنت أسير خلفهم بسبب ما تعانيه قدمي من ألم. وعندما اقتربنا من نهاية الشارع قال إبراهيم: - خلاص، إحنا قربنا. فتح عينيك انت وهو.

وتوقف عن السير فجأة وقال:

- إحنا داخلين على الحتة من أول البيت اللي هناك ده اللي عليه لمبة كهرباء، وعلى الباب من الأول للآخر على الصفين نسوان، والنسوان اللي واقفة في الشارع ده همّ اللي بياخدوا خمسة صاغ، أما الشارع اللي وراه ففيه النسوان أم ثلاثة تعريفة وقرشين صاغ.

وسأله عبد العظيم:

- هو ممنوع نتفرج على النسوان دول؟ ممكن نتفرج وما حدش يقول لنا حاجة؟

- ممكن. أنا حبيت أعرفكم أحسن حد يتخم ويخش وهو مش عارف وما يدفعش، دول كانوا يتلموا عليه كلهم ويقلعوه هدومه ويمشوه ملط، دول بايعين جنتهم. دا انا لما جيت المرة اللي فاتت شفت واحد طالع من جوه ونازلين عليه بالشباشب وهو يزعق: «يا ناس ما اعرفش ما حدش قال لي».

وهم يقولوا: «هَوَّ انت أعمى؟ هيَّ وكالة؟». لحد لما ولاد الحلال دفعوا له، وعشان كده باقول لكم قبل ما تخشوا تتفقوا معاهم على الثمن.

وسرنا، وعبد العظيم في المقدمة واضعًا يده في يدي. وأمام باب المنزل اللي على باب له لمبة كهرباء مضيئة توقفنا، وإذا بنا وجهًا لوجه أمام ثلاث نسوة بيضاوات، فارعات الطول، بملابس حريرية شفافة تكشف عن أجسادهن، وأذرعهن عاربات، ونهودهن بارزات شبيهة بأفحل الرمان، وفي أيدي كل منهن زهور كثيرة الألوان ذات رائحة منعشة، وعيونهن واسعة مستطيلة، وأنوفهن قائمة، وشفاهن ممتلئة، وذقونهن بدیعة المثال، وخصلات شعورهن متدليات حتى الجفون.. كن غاية في الجمال، لم يسبق لي رؤية مثلهن. كن يقفن في دهليز المنزل يتمخطن جيئة وذهابًا عارضات أجسادهن على الذين جاءوا يشبعون الشهوات ويدفعون الثمن، كن يوزعن الابتسامات على المتفرجين، ومن بين الشفاه تبرز أشياء تلمع وتبرق، وكل واحدة منهن تغمز بعينيها الساحرتين لكل من تستطيع جذبه، وكثيرًا ما كن يقمن بكل عوامل الإغراء: ترفع واحدة ساقها، أو ترفع طرف فستانها بقصد إبراز الجسد للواقفين.. ووقفت مشدوہًا وعينا لا تفارقهن لما يقمن به من أعمال لم يسبق لي رؤيتها منذ ولدتني أُمي. وإذا بالولد الغريب يقول بصوت عالٍ: - شايف النسوان بتشلح ازاي، يا خبر أسود!

ووقفوا يهللون كلما رفعت إحداهن فستانها. وجذب هذا عددًا من الرجال الذين يمرون في الشارع إلى التجمع حول النسوة الواقفات. واستمرت النسوة في الكشف عن أجسادهن، وإذا بأحد الرجال من ذوي الملابس الإفرنجية يشق طريقه إلى الداخل محتضنًا إحداهن. وفي حرارة التصقت الشفاه وتعددت القُبل، وتشابكت الأيدي، والتصقت الأكتاف، وسارا إلى

الداخل.. ولم تمر لحظة إلا واقتحم أحد الشبان الطريق إلى الداخل، وفي حركة بارعة أخذ الثانية واجتذبها إلى صدره واضعًا شفتيها في فمه، ويداه ترفع في تباطؤ خصلات الشعر المدلاة على الخدود، وسارا إلى الداخل وهما متعانقان... ولم تمر ثانية إلا ودخل شاب ذو شارب مفتول وأخذ المرأة الباقية وسار بها إلى الداخل وهو يطوقها بذراعه. وقبل أن تختفي عن الأنظار قبض عبد العظيم على يدي وأطراف أصابعه تنتفض، وقال الشحات: - إيه يا ولاد ده؟ هو احنا كنا فين والحاجات دي فين، دا احنا ما كناش في الدنيا!

فرد إبراهيم:

- يَلَّا بينا وانا أوريكم نسوان تانيين. إللي يعيش ياما يشوف، واللي يمشي يشوف أكثر. هو احنا مستنيين إيه؟ كل واحد واحد واحدة ودخل بيها على أوضة، وزمانهم...

وقهقه عاليًا، ثم استرسل:

- يَلَّا بينا، هو احنا أد دول، دول الميسرين اللي معاهم فلوس أكثر. يَلَّا لما نتفرج على النسوان اللي على أدنا.. إللي على أد حالنا.. وَلَا نقف نسمع شوية؟!

فقال الشحات:

- نسمع إيه؟ ما هم جَوَّه دلوقت.. هاو أوو.. يَلَّا نتفرج على غيرهم عبال ما يطلعوا، دول زمانهم...

تقدمنا نحو الشارع ونحن نتلفت للنسوة الواقفات مستندات إلى الحائط، ونحن نسمع بعضهن يقلن: - اتفضلوا.. هنا أرخص من اللي قدام، والعيال

الصغيرين اللي معاكم فوق البيعة من غير فلوس.. تعال يا واد يا صغير انت
وهوه!

وقفت أنا والولد الغريب والولد السيد الصفطي وأيدنا متشابكة ننظر إلى
النسوة الواقفات اللائي يلوحن لنا بأيديهن. وإذا بالولد الغريب والولد السيد
الصفطي يخرجان لسانيهما ويحاورانهن، فاندفعت النسوة إلى الجري وراءنا
وهن مصهللات من الضحك كالأطفال الذين يلعبون «حاورينا يا طيطا»،
وأسرعنا الخطى بعيدًا عنهن، وجاء خلفنا عبد العظيم والشحات. وأمام أحد
المنازل في العطفة الثانية رأينا امرأة طويلة رشيقة ذات عينين زرقاوين
واسعتين، شعرها أسود طويل ويصل إلى الفخذين، جالسة وسط مقعد، مائلة
بظهرها إلى الوراء، واضعة رجلًا على رجل، فانحسر فستانها الحريري عن
بطن فخذها، وأخرجت من صدرها علبة سجائر وأشعلت سيجارة وأخذت
تدخن بشغف وهي تقذف الدخان في الهواء غير عابئة بالأنظار المتطلعة لما
انكشف من لحم فخذها البيضاءوين. وقفنا أمامها نتطلع إلى فستانها الحريري
الأبيض الذي كشف عن مفاتن جسمها.

فنفخت دخان سيجارتها في استهانة، ورمت العقب، وأخذت تتطلع إلينا
مبتسمة ابتسامة رقيقة وهي تتسلى بمعاكسة الرجال الذين يسرون في
الطريق، وإذا بعبد العظيم يقبض على يدي ويسير مدفوعًا نحوها، وتهم هي
بالوقوف من على المقعد، فاجتذبتها إلى صدره وهي تميل إليه راضية. أحاطها
بذراعه اليمنى ويده الأخرى قابضة على يدي. نظرت إليهما في ذهول متطلعًا
إليهما وهما يتبادلان القبل. وحاولت الفرار، ولكن قبضته القوية على يدي لم
تمكنني من أن أهرب.. ومالت هي نحوي واضعة يدها الناعمة على رأسي
وهي تقول بصوتها الناعم الرقيق: - إنت خايف؟ تعال لما أبوسك.

ولم تمهلني، وضممتني إلى صدرها.

ووضعت قُبلة على فمي، ونظرت إليَّ بعينيها نظرة تأمل، ورقت عيناها،
وشحب لونها، وسرحت بخيالها كما لو كانت تتذكر أشياء. وبعد لحظة صمت
تكلمت بصوت ضعيف قائلة: - أنا ست منكسرة!

وضممتني إلى صدرها في حنان وهي تقول:

- تعال، ما تخافش!

واستسلمت لرقة قلبها وصوتها العذب الحنون غير عابئ بالأصوات التي
تناديني من الخلف، صوت الولد الغريب والولد السيد الصفطي وهما يناديانني
قائلين: - تعال، تعال يا وله، ما تروحش!

ولكن رغبتني في معرفة ما سيدور بالداخل أقوى من هذه النداءات. سرنا إلى
الداخل وذراعها الناعمة على كتفي وأنا ملتصق بها، وعبد العظيم يسير في
الجانب الآخر.

في الحوش الداخلي للمنزل وجدنا امرأة طويلة ذات عينين سوداوين وبشرة
سمراء، تميل إلى السمنة وتناهز الخمسة والأربعين، جالسة على مقعد
وبجانها طقطوقة عليها كنكة وفنجان صيني ويدها جوزة فوقها حجر طمباك،
والغابة بين شفيتها. قذفت بالدخان في الهواء، ووقفت أمامها مشدوِّهاً متعجباً
من هول ما رأيت، وقلت في نفسي: «امرأة تشرب الجوزة دون حياء، يا
خراب أسود، دي ولا الراجل». ولم أستمر في تأملاتي، فقد مالت المرأة التي
كانت معنا على المرأة الجالسة وهمست كلمات في أذنها، فردت الأخرى
بقولها: «ما تتوانيش في الداخل». وكان الجواب: «حاضر يا معلمة».

وواصلت السير إلى الداخل واطعة يدها على كتفي. وأمام باب إحدى الحجرات، توقفت ووضعت يدها على زر فأضئت الحجره، وقالت: «اتفضلوا». وبالداخل كان بالحجره سرير مفروش بملاءة بيضاء مدلاة حتى البلاط المتعدد الألوان، وبجانب السرير كنية وثلاثة كراسي خيزران، وعلى الكنية جلس عبد العظيم يخلع حذاءه وجلست هي بجانبه.

وفي الحال خلعت الشابة فستانها الحرير الأبيض، وبقيت بقميصها الفستقي الشفاف الذي كشف عن مفاتن الجسد، ووقفت شبه عارية وعيناها لا تفارقني، ثم قالت لعبد العظيم بصوت حزين خافت بعد أن خلع جلبابه وتوجه نحوها: - عبد العظيم!

جذبها نحوه ووقفا يتبادلان القبل ذات اليمين وذات اليسار. فقالت بدلال: - ما تحاسب، هو انت شهوان؟

فرد عبد العظيم:

- إيه؟ شهوان طبعًا، حاجات حلوة ما شفتهاش، ملبن.

فاحمرت وجنتاها، ونظرت إليّ بعين شبه ناعسة وقالت: - وانت حتستنى كده لوحديك؟ استنى لما أجيب لك حاجة تتسلى بيها عبال...

ومالت على كيس على الشباك وأخرجت برتقالة ووضعتها في يدي وقالت: - خد، فكرتني بالحياب، كنت ناسياهم.

واتجهت نحو السرير ومالت على الوسادة وبجانبها عبد العظيم، واحتضنها. لم أتمالك نفسي فأحنيت رأسي إلى الأرض، ووضعت يدي على عيني لكي لا

أرى. وبعد قليل جاءت ورفعت يدي من على عيني وقالت: - خلاص، شيل إيدك، إنت مكسوف؟

وضمتني إلى صدرها في حنان وقالت:

- أنا زي أختك!

ووضعت قُبلة على عيني، فأسرعت - وبدون أن أعي - وقلت: - لا!

وفلفصت منها وقلت:

- إنت لو كنت زي أختي كان زمان أخوبا موتك!

شحب لونها، ونظرت إليَّ بعينين مغرورقتين بالدموع، وصممت لحظة كما لو كانت تستعيد ذكرى، ولم تستطع حبس الدموع فتساقطت. ورقت نظرة عينيها، وتكلمت بصوت ضعيف قائلة: - أنا واحدة تعيسة! أفقدني الشقاء وعيي! وهربت خائفة بعد أن أسلمت له نفسي! وأنا أدفع ثمن جريمتي! لم يف بوعده، وتخلي عني بعد أن أسلمت له أعز ما أملك، ورجوته أن يستر العرض الذي انتهكه فلم يستجب للرجاء! لم أستطع مواجهة أمي التي ولدتني وتولتني برعايتها، ولا أخي الذي كان مصدر فخر الأسرة، وخرجت بالليل أهيم في الطريق دون وعي خائفة من الفضيحة ومن شماتة الأعداء، فاستغلت ضعفي واحتياجي تلك الأيدي الشريرة في نفس الطريق. بيع الجسد في سبيل لقمة العيش. كل ما يؤلمني أنكم تنظرون إليَّ على أنني عاهرة، والحق أنني يائسة خدعني الشيطان! كلما رأيت رجلًا يسير في الطريق تذكرت أخي يوم كان يسير في عطفة قرיתי رافع الرأس. وكلما رأيت امرأة تحمل طفلًا تذكرت أمي!

واسترسلت قائلة:

- دا وعد ومكتوب، واللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين!

وتطلعت إلى السماء قائلة:

- كفاية.. كفاية يا رب، أريد أن أكون بعيدة عن هذا المكان... أنا الآن أكرهه!

أكرهه بكل ما فيه من شقاء ومهانة!

وأحنت رأسها واستسلمت للبكاء. وفجأة فتح الباب وأطلت منه المعلمة وعيناها يتطاير منها الشرر، وقالت بصوت خشن: - خبر إيه؟ فيه ناس عند الباب، مش خلاص؟ الليلة خلصت ولسه لحد دلوقت ما استفتحناش!

ورزعت الباب خلفها، وخرجت غاضبة. وهمت الشابة من المقعد، وسحبت الفستان من على الشماعة، ووقفت تجفف الدموع المنهمرة من عينيها، وبقيت صامته لحظة، ثم تكلمت بصوتها الناعم الحنون: - خبر إيه؟ ملهوفة على الفلوس! مستعجلة! أتعب نفسي وهي تقبضها! مش مخلياني أون، ملاحقاني، كل همها الفلوس والفلوس بس! كل شيء واخداه!

وسكنت لحظة وقالت:

- إمتى الوعد يخلص وينمحي المكتوب!

ونظرت إليّ لحظة خاطفة وتحركت دون أن تتكلم.

خرجت من الحجرة ويدي في يد عبد العظيم، أتوقف بين خطوة وأخرى وأتأمل بعينين لا تريان شيئاً. خرجت من الباب ونظرت أمامي فوجدت الولد الغريب والولد السيد الصفطي، والتفا حولنا مهللين في انتظار أن يسمعا ما

رأيناه وما فعلناه مع تلك الشابة في الداخل، ولكنني لم أتكلم، وابتسمت
ابتسامة مريرة، وتطلعت حولي وقد بدا لي كل شيء كريهاً تعافه النفس.

قال الشحات:

- مالكم كده طالعين مبلمين؟ هي خبطت منكم الفلوس؟ أصل معظمهم
بينتهزوا فرصة شهوة الإنسان وقت اللحظة الحاسمة ويخبطوا ما معه من
نقود!

فقال عبد العظيم:

- إنتم بتتوهموا أشياء لم تحدث.. هي لم تأخذ مني سوى ما اتفقت عليه.. وهي
لم تأخذ الفلوس وحدها، بل اقتسمتها مع من شجعتها على السير في هذا
الطريق! إنها جميلة جدًّا، وكريمة جدًّا، أعطت فكري برتقالة، وبكت كثيرًا لما
ذكرها به من ذكريات مؤلمة!

وقاطعه الولد الغريب موجهًا كلامه لي:

- إنت مالك كده طالع عينك حمرة؟! إنت مش أخذت برتقالة وشمطها
لوحدك!

ولكنني لم أجب، وبقيت صامتًا شارداً الذهن لا أتكلم.

وقطع الصمت إبراهيم قائلاً:

- فاضل معاك فلوس يا عبد العظيم؟

- لا.. خلاص، الله جاب، الله خد، الله عليه العوض، راحوا في نزوة واحدة.

فقال الشحات:

- أمال حتصرف منين طول الأسبوع؟

- حاصر ف منين يعنى إيه؟ كله على الله. اصرف ما فى الجيب يأتىك ما فى الغيب.

استمروا يتحدثون وأنا صامت. وكانت أعين الولد الغريب والولد السيد الصفطي لا تفارقني طوال الطريق.

تفرق الجميع كل إلى منزله، وبقيت صامتًا رغم محاولات الولد الغريب والولد السيد الصفطي إخراجي عن صمتي لمعرفة ما حدث. ولكن شيخ الشابة وبكاءها كانا ماثلين أمامي رغم ازدحام الطريق وكثرة الجالسين على المقاهي وضجيج الباعة المتجولين. لم أكن أتصور أن النساء يعن الجسد في سبيل لقمة العيش، كنت أظن غير ذلك. أعرف أن النساء يتزوجن مثلما كان يحدث في قريتي، وأن أي بنت تجلب العار لأهلها يجب أن تُذبح. هذا ما كانت تقوله أمي، وهذا ما قلته للشابة، وهذا ما أبكاهها. لم أكن أظن أن الرجل - أي رجل - يتخلى عن البنت بعد أن يسلبها أعز ما تملك! وهكذا رأيت بعض النسوة واقفات بملابس شبه عارية، لقد وجدن في هذا المكان مأوى. إن الخوف من الفضيحة، ومن مواجهة الأهل والموت، قذف بهن إلى هذا المكان!

إن الأيدي الشريرة قد تلقفتهم وسارت بهن في هذا الطريق، مستغلة في ذلك ضعفهن والاحتياج للقوت والمأوى. وهن يكرهن من تسبب في ذلك وبحقدن عليه، ويتمنين أن ينتهي الوعد وينمحي المكتوب. هكذا قد سمعت!

استمر شبح الشابة وبكاؤها ماثلين أمامي طول الطريق، ولم يفارقني هذا
الشيخ إلا بعد أن أغمضت عيني واستسلمت للنعاس.

الخبراء والمدير

صحت في الصباح على دقات عالية متوالية، وصوت لم أعود سماعه. وقمت مفزوعًا وفتحت الباب فإذا بي أجد بنتًا في حوالي الخامسة عشرة من العمر، ذات عيين خضراوين وبشرة بيضاء وشعر طويل أصفر خصلاته غزيرة. تكلمت وهي ترفع خصلات شعرها المدلاة على الجبين بذراعيها العاريتين. قالت:

- أمي بعثاني عشان أصحيكم، الساعة بقت ستة، يا دوب تغسلوا وشكم.. إنتم كنتم فين طول النهار امبارح؟ الأوضة ما اتفتحتش وكانت مسكوكة طول النهار! أمي كانت قلقانة عشانكم من يوم ما سكنتم عندنا لم تتعودوا الخروج في يوم العطلة! كانت أمي تخبط على الباب كلما عادت من الخارج.. كانت عاوزه تسيق الأوضة، وكانت خايفة عليكم أحسن حد الله يكون جرى لكم حاجة.. إنتم كنتم فين؟

فرد الولد الغريب:

- كنا بنتفسح، مصينا قصب، ورحنا المستشفى نزور ناس والعمال المتعورين، عورهم المكن، وعمال تانيين كانوا بيكحوا وطرشوا دم قدامنا، وسيبناهم هناك نايمين!

فشحب لونها، ورجعت خطوة إلى الوراء، وقالت:

- يا عيني، حد الله، من إيه؟

فرد الولد السيد الصفطي:

- عيانين بالسل، الحكيم قال كده.

وازداد شحوب لونها، وامتعضت صارخة:

- حد الله، حد الله، يا رب.. خَلِّي بالكُم يا واد انت وهوه، خلوا بالكُم من
نفسكم!

وإذا طفل يناديها، فتخرج مسرعة وهي تقول:

- اتجدعنوا.. اتجدعنوا.. اغسلوا وشكم عشان تمشوا على مهلكم.

واختفت.

وبدأ كل منا يخرج من قفته العيش ليصره في المنديل، وعيش آخر للفتار.
وبينما نحن منهمكون في التحضير، إذا بنا نسمع صفارة المصنع تزعق معلنة
توقف عقارب الساعة على الساعة إلا خمستاشر دقيقة، وهو الميعاد الذي
يبدأ فيه فتح الأبواب الأربعة ليتدفق العمال إلى داخل العنابر. وخرجنا من
الأوضة مسرعين، وأغلقناها دون أن نفطر.

في الشارع، وضع كل منا طرف جليابه بين أسنانه وطرنا كالريح، ولم تسعفنا
أقدامنا في الجري فخلعنا أحذيتنا.. لم نكن وحدنا المتأخرين بل كانت الشوارع
مكتظة بالمئات مثلنا، وكل منهم يضع حذاءه تحت باطه وطرف جليابه بين
أسنانه، الكل بيرمح زي الخيل، كل واحد عاوز يوصل قبل أن تغلق الأبواب
وبحرم من أجر اليوم. كل واحد لا يفكر إلا في نفسه. وكنت أجري كالريح
خوفًا من التأخير، وأنظر خلفي فأجد الكثيرين يجرون ووجوههم شاحبة،
وألستهم بارزة بين الشفاه كالدواب التي أنهكها العمل. وتذكرت قول أمي:
«إذا جالك الطوفان حط ابنك تحت رجلك». هكذا رأيت وتذكرت. رأيت من

وقع على وجهه وتكعبل من الجري ولا أحد يأخذ بيده، ورأيت من يقذف بزميله إلى الخلف ليتقدم هو. ونظرت حولي، فلم أجد الولد الغريب ولا الولد السيد الصفطي، فقد فرقنا الزحام. واصلت السير وأنا ألهث. ومن على بعد خطوات قبل أن أصل إلى البوابات الأربع المفتوحة، وجدت الشحات وإبراهيم وآخرين ممن كانوا معي بالأمس، وجدتهم يمسكون بيدي ويقولون:

- إنت متأخر زينا؟ إحنا كانت حتروح علينا نومة. اجري أحسن الأبواب حتقفل ونحرم من حساب اليوم.. اجري يا ولد.. اجري احنا قربنا.. اجري أحسن الغفر مسكوا الأبواب وحيقفلوها!

وكنت أسمع كثيرًا من الأصوات في طول الشارع وعرضه. أصوات تصيح: «اجري».. وكل منهم يشجع الآخرين.

كانوا يجرون حفاة الأقدام. وكنت أقول في نفسي: «هل من الممكن أن تبقى هذه الأبواب مفتوحة إلى أن تدخل كل هذه الجموع؟». وتمنيت هذا، ولكن أمني خاب عندما وصلت إلى الباب، وبدأ الخفر ذوو البديل الصفراء يواربون الأبواب رويدًا رويدًا عندما توقفت العقارب على الساعة السابعة. كان الشارع لا يزال مكتظًا على طوله. ومرقت من تحت أرجل الخفراء وهم يغلقون الأبواب. وكان العمال يزعمون في الخارج ويحاولون فتح الأبواب بالقوة، وهم يصيحون:

- إحنا موتنا نفسنا من الجري، هو إيه؟! هي دقيقة أو خمس دقائق زيادة تخليكم تقفلوا الأبواب في وشنا، حرام عليكم اليوم حيروح، إحنا في عرض اليوم!

وكادت أن تنشب معركة بين العمال والخفراء، العمال يحاولون أن يقفروا،
والخفراء - بقلوبهم الغليظة وعصيتهم الكبيرة - يحاولون أن يغلّقوا الأبواب.
وتجمع العمال وكثر العدد، وبدأوا يصيحون:

- زق الباب يا وله.. اليوم حيروح علينا.. يا وله!

وتجمعت الإرادة القوية، إرادة العمال المصممين على الدخول واحتساب يوم
العمل، تمكنت من فتح أحد الأبواب عنوة، وتدفق العمال إلى الداخل وهم
يهللون بنشوة الانتصار. ولكن الخفراء، الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة، لم
يقبلوا الهزيمة، فسحبوا عصي الخيزران الرفيع التي يستخدمها الفلاحون في
سوق الحمير والكرابيج السوداني الملفوف عليها أسلاك من النحاس الأصفر،
ونزلوا على العمال ضربًا بعد أن أخذوا الأوامر دون تمييز، فكانت العصي
والكرابيج تنهال على الوجوه والرؤوس دون رحمة إلى أن سالت الدماء من
كل مكان في أجساد العمال، وتمكنوا بهذه الوحشية من تفريق العمال
وإخراجهم إلى الشارع، وأغلّقوا الأبواب. وتحولت البسمات والوجوه الضاحكة
بالانتصار إلى بكاء خلف الأبواب المغلقة. ووقف الخفراء في صف منتظم
يشمرون عن سواعدهم، وعلى وجه كل منهم ابتسامة صفراء، وأمامهم
القائد، وهو أحد الضباط، في زيّه الرسمي، وهو أحد المحالين على المعاش
في الجيش، أتت به الشركة خصيصًا لهذا الغرض. وقف القائد أمام الخفراء
يشجعهم ويحثهم على المزيد مما يفعلون، واسترسل في كلامه إلى الخفراء
قائلًا:

- لقد أدبتم واجبكم على خير وجه. إن هؤلاء ما هم إلا لمامة من كل البلاد
يجب إخضاعهم حتى يتعودوا ألا يتلفتوا وراءهم! إن هذه الحثالة يجب أن
يتعودوا النظام، ولن يتعودوه إلا بمجهودكم هذا!

واستطرد بلهجة عسكرية:

- أدعوكم أن تكونوا في يقظة دائمة لمثل هذه الأعمال. يجب أن تعودوا هؤلاء على أن يسيروا خافضي الرأسى! مفهوم انت وهو؟

- مفهوم يا افندم.

ولمحننا القائد ونحن واقفون على البعد، فأرسل أحد الخفراء خلفنا، فأسرعنا نجري إلى الداخل، فلم يلحق بنا لأننا كنا قد اختفينا خلف الماكينات في العنابر.

وبعد أن شعرنا بالطمأنينة سرنا على مهل نجفف العرق بأكمامنا، وذهب كل منا في طريقه. ووصلت إلى المكنة التي تعودت الوقوف بجوارها، وإذا بعبد العظيم، وهو العامل الذي أخذ على عاتقه تعليمي، منهمك في الشغل فلم يرني، فجلست خلف المكنة لأستريح من عناء الجري وألتقط نفسي وأستعيد روعي التي كادت أن تزهدق، وإذا بعبد العظيم يراني من خلف المكنة، فبهت لأنه كان قلقًا لتأخري. وحاول أن يكلمني بصوت عالٍ وهو واقف خلف ماكينات النسيج ولكنني لم أسمعته ولم أفهم ما يريد، وبقيت في مكاني لا أتحرك، فقد كان ضجيج آلاف التروس وزئير السيور وخبط الموايك في الأدرج يغطي على أصوات العمال، ولم يكن أحد يستطيع أن يسمع إلا صيحة «هوه» التي فرضها علينا ضجيج الآلات.

وجاءني عبد العظيم يجري لأنه لم يتعود أن يراني هكذا، فمال على أذني لكي أسمع وقال:

- إيه؟ مالك؟

كان وجهي مصفرًا من شدة التعب، ولم أستطع الرد عليه لأن نفسي كان ما زال مكرويًا. واسترسل هو قائلاً:

- إيه؟ مالك؟ أروح أجيب لك شوية ميه؟

لم ينتظر الرد، وأسرع إلى دورة المياه، وأحضر ميه في طاقيته، وقذف بها على وجهي، فشهقت، وبلعت ريقى، واستردت روحى التي كادت أن تزهب. وقال عبد العظيم:

- اسمع.. قوم، قوم اقف على حيلك واستند على المكنة واعمل نفسك بتشتغل أحسن المدير بيمر.. مدير النسيج.. صادق بك راجل ما يحبش يشوف مكن واقف، وما بيضربش إلا بالشلوت، وما بيهموش المكن فيه إيه.. كل ما يهमे أن يكون المكن داير.. ما يهموش إن كان فيه فتل متقطعة أو مفيش، أو فيها تصليح أو ما فيهاش.. كل ما يهमे أن يكون المكن داير، داير وبس. ساعة ما بيخش العنبر كل الدنيا بتتلجلج، حتى الرؤساء ساعة ما بيشفوه يجروا زي المجانيين، يلطشوا في العمال يمين وشمال، ويزقوا الفرامل حتى ولو كان المكن عطلان.. كل اللي يههم إن المدير لا يرى مكنا واقفاً.. يخافون ويرتعدون منه.. مدير مفترى ما بيفرقش بين العامل والمساعد، إذا لقى مكنة واقفة يضرب العامل ويضرب الميكانيكى، وما يحالوش الضرب إلا بالشلوت.

خلى بالك قوم! وحتى المكن راخر زي ما يكون عارف إن المدير بيمر.. المكنة الشغالة ساعة ما تشوفه تقف، ساعة ما تشوفه تتكهرب ويركبها ثلاثين عفريت! ويا ويله لو اشتكى أي عامل له.. الرؤساء والمساعدين يروحوا ملطشين العمال على وجوههم، وتكون داهية العمال سودة! وعشان كده الواحد لا قادر يشتكى ولا قادر يعمل حاجة.. همّ لوحدهم اللي في أيديهم كل

حاجة.. المدير لا ييمر ولا يستنى في العنبر أكثر من ساعة ونص، وهمّ اللي في وشنا طول النهار. راح نعمل إيه؟ المدير قاسي، والرؤساء همّ كمان جابرة.

وتلفت عبد العظيم حوله، وإذا به يقول في صوت ينم عن الفزع:

- خَلِّي بالك، لف ورا المكنة بسرعة، قرب علينا، أهو جاي أهو، من أول الصف عند آخر العنبر.. هناك أهو.

وشمرت ذراعي، وبدأت أتحرك حول المكنة كالنحلة.. أنزل الفتل الزائدة، وأقطع الفتل الطويلة والعقد، وعبد العظيم أمام الماكينات واقف يغير الموايك كلما انتهت مواسير اللحم الملية ويركب غيرها، وكل ما يرجوه أن يمر المدير في هذه اللحظة ويجد المكن شغال وليس بالقماش فتل مقطعة، وكنت أنظر في طول العنبر وعرضه فلا تقع عيناى على ذراع مكنة متوقفة.. كل المكن شغال، والعمال عمالين يرفعوا الشوكة ويدوروا المكنة لحد المدير ما ييمر. والرؤساء والمساعدون والميكانيكيون يجرون في العنبر، يزقون هذا ويضربون ذاك، والمدير يخرج من طريقة ويدخل أخرى.. طويل وأسمر، وعلى رأسه طربوش أحمر غامق، ومنظار أسود، وبدلة رمادية، كان يسير في خطى بطيئة، ويداه مشبكتان خلف ظهره، ورأسه مرفوع، ويتطلع يمينا ويسارا على صفوف المكن المرصوص على الجانبين. وفجأة توقف عن السير، ومن خلف ظهره رئيس الصالة على بعد خطوات وشاور بيده على أحد العمال، وشاور على آخر. وجاء الاثنان في تباطؤ وفي حالة من الذعر والفزع الشديد. ولما وقفا أمامه لم يمهلها لكى يعرف السبب، بل بادر كلا منهما بصفعة على وجهه ورفسة في بطنه، وطردهما بصفعات أخرى على الوجه، دون أن يعرفا سبباً لذلك، وتكهرب الجو في العنبر. وبدأ العمال يقفون

كالزهار، يتطلعون خلسة لما يجري، وازداد الجو تكهريًا بعد أن ضرب عمالًا آخرين بشكل أكثر عنفًا، وسار في العنبر كالمجنون يلمش كل من يقابله.

وقال عبد العظيم:

- شايف، شايف ابن الكلب! بيضرب دون أن يبالي.

وحاولت أن أتطلع، فجذبتني قائلاً:

- ما تبصش ناحيته، كل ما يغيطه هو أن يرى العمال واقفين ورؤوسهم مرفوعة يتطلعون نحوه! هذا ما لا يريد.. لف، لف ورا المكنة، وقطع العقد، ما هماش عاوزين العامل يرفع رأسه، عاوزينه دايمًا موطيها!

وكنت ألف وراء المكنة دون توقف، محاولاً بذل كل جهد في تقطيع العقد، وتسليك السماسم لكي تظل المكنة تدور ولا تتوقف. وفي هذه اللحظات، كان العنبر كله في حركة.. كل العمال يجرون، والمباشرون يتحركون بين الصفوف محاولين مساعدة العمال وزق الفرامل وتغيير الموايك في الأدراج، والعربات المحملة باللحمة يدفعها العمال في الطرقات، وعمال النسيج ينقلونها بسرعة البرق على الماكينات، كل ما في العنبر يتحرك.. لا صوت إلا زئير السيور، وضجيج التروس، وسرعة الماكينات المذهلة. والمدير ما زال ينتقل من طرقة إلى طرقة، ومن صف إلى صف.

تلفت حولي فوجدته يقترب مني، تمنيت أن أهرب من أمامه خوفًا من أن ينالني منه أذى، وجال بخاطري أن أهرب إلى المراحيض لكي لا يراني، ولكنني تنبعت إلى أنها مغلقة في هذه الساعة المشؤومة، ومحرم على العمال الاقتراب منها. وأسلمت أمري للظروف مثل غيري. وإذا بالمدير يقترب رويدًا

روبيدًا، وحاولت جاهدًا انتزاع الرهبة من قلبي، وتذكرت قول أخي عندما كنت أسير خلفه وهو يتحدث مع آخرين: «كن شجاعًا وقت الشدائد».. «قف بثبات، طاردًا الخوف من ذهنك يهابك العدو».. وتمثلت هذا القول، وشمرت عن ساعديّ، ووقفت رافع الرأس في ثبات، وعبد العظيم يقف أمامي ويداه على الفرامل، يقف في اعتزاز، وعيناه المنتبهتان نحو المكوك تتبعه في سرعته وهو يتجه من درج إلى درج، لكي يغير المكوك في لحظة انتهاء ماسورة اللحم، ووضع غيره في خفة نادرة، لكي لا تتوانى الممكنة عن الدوران في هذا الوقت المشؤوم. وتلفت حولي، وإذا بالمدير يسير بخطى بطيئة جدًّا، ورأسه في السماء يلتفت ذات اليمين وذات اليسار. ثبت عيني على الممكنة وأنا أشعر أن كل ما حولي يهتز. وتوقف بجواري ونظر إليّ كما نظر إلى عبد العظيم وهو واقف دون خوف أو رهبة أمام الماكينات الدائرة ويده مثبتة على الفرامل استعدادًا للعمل، والعمال الآخرين الذين لا يتوقفون عن العمل وعن السرعة في استخدام الفرامل. وقف المدير بجواري، إلى جانبي، وتأمل وجوه العمال الذين يقفون في ثبات، ولم يكلمني. ثم توجه نحو عبد العظيم ونظر إلى القماش فلم يجد به عيبًا. وظننت أن صفقة سوف تنزل على وجهه وأنا بعده.. وانتظرت.. ولكنني رأيت يده على القماش المنسوج فلا يجد ما يدعو إلى الاعتداء، كان كل شيء يسير على ما يرام.

كان العمال يقفون على أهبة الاستعداد للعمل بنشاط، فلم يسعه إلا أن يتقدم في خطى بطيئة بعد أن ألقى نظراته على الواقفين هنا وهناك، وبدأ يتحرك دون اعتداء، وابتعد رويدًا رويدًا متجهًا نحو الباب الموصل إلى الإدارة، وبدأت الطمأنينة تعود إلى القلوب والبسمة تملأ الشفاه.. شاعت الطمأنينة بين الجميع، وبدأت التهاني لكل من تفادى اعتداءات المدير.

ساد الهدوء في العنبر بعد أن تكهرب الجو وقت مرور المدير واعتدائه دون
ذنب للعمال اللهم إلا إشاعة الفزع في القلوب وإخضاع العمال للرؤساء. تلك
هي كانت القضية.. عادت الطمأنينة وبدأت الحركة.. حركة من التساؤلات في
كل مكان من العنبر، وتجمع العمال المتجاورون على الممكن، وبدأوا يتحدثون
والرؤوس تتمايل على الأذن لكي تسمع رغم دوشة الماكينات والشفاه تتحرك
متسائلة، ولا إجابة.

ودخل العنبر أحد السعاة ويده ورقة مكتوبة، وتوجه بخطى سريعة نحو رئيس
الصالة، وناولها إياها، ووقف الرئيس يقرأ والعمال تترقب، وتوجه الساعي إلى
رئيس آخر، ثم آخر، إلى أن مر على الجميع. تجمعوا، وساروا خلف بعض
متجهين نحو الإدارة، والساعي خلفهم يلوح بالورقة، والأنظار تتطلع متسائلة،
وازدادت التساؤلات والهمسات.

منشور من الإدارة

كلهم خرجوا نحو الإدارة، ففيم يتحدثون؟

أسئلة كثيرة محيرة. قال البعض:

- سيتحدثون في العلاوات، سمعت هذا من قبل.

وقال آخرون:

- سيتحدثون في تخفيض ساعات العمل.

وأضاف آخرون:

- لا هذا ولا ذاك، وإنما سيتحدثون في سحب العمال الجدد الذين تعلموا

ويسلمونهم الممكن الجديد.

ورد آخرون:

- إنهم لا يتحدثون إلا في زيادة الإنتاج، هذا ما تعودناه في حالة مرور المدير

واعتدائه على العمال.

أما أنا فقلت:

- إنهم لا يبحثون عن إسعادنا، بل يبحثون عن مزيد من الشقاء! ألم تسمعوا

عما حدث في هذا الصباح؟ أغلقوا الأبواب، أغلقوها في وجه العمال لأنهم لم

يأتوا قبل الميعاد، ولم يكتفوا بالغلق بل ضربوا العمال بالعصي والكرابيج إلى

أن سالت الدماء من وجوههم وتركوهم يبكون في الشارع، ووقفوا هم خلف

الأبواب يتسمون من نشوة الانتصار! هذا ما حدث في الصباح، ألم تسمعوا
عن ذلك؟! وها نحن قد رأينا بأعيننا ما تم اليوم في العنبر، إنها خطة موضوعة
للإذلال! هذا ما سمعته اليوم من الضابط المختص وقت أن أصدر الأمر إلى
الخبراء بالضرب!

وفجأة توقفت المكنة فذهبت لأدورها، ثم تفرق العمال كل إلى ماكينته. وإذا
بالرؤساء يدخلون وفي أيديهم ورق مكتوب، واتجه كل منهم إلى الصالة،
وبدأوا يعلقون الورق على الجدران. واتجهت الأنظار نحوهم متطلعة متلهفة،
وساروا جميعًا نحوهم. وذهبت مع الذاهبين لنرى ماذا في الإعلانات الملصقة
على الجدران. وتجمع العمال، واحتشدوا، وبدأ كل منهم يدفع الآخر محاولًا أن
يقرأ. وإذا بهم يفجعون، ووجوههم تصفر من هول ما قرأوا.. لم يكونوا
يتوقعون هذا. وبدأت همهمة وأصوات ترتفع من الخلف: - مش معقول! اقرا يا
جدع وسمعنا، إيه ده؟

- هَمَّ حِيضْرُونَا بَرَّهْ وَحِيضْرُونَا جَوَّهْ وَكَمَانْ مَا اسْتَكْفُوشْ...!

- اقرا يا ججع تاني، اقرا وسمعنا!

- أهه...

بأمر المدير العام، ممنوع منعا باتا على عمال النسيج أن يذهبوا إلى دورة
المياه إلا بتصريح خاص من الرؤساء، وكل من يخالف ذلك سيعرض نفسه
لأشد أنواع العقاب.

وارتفع صوت من الأمام قائلاً:

- أنا مش قلت إنهم عاوزين يذلونا! عاوزين يربطونا جنب المكن، جالكم
كلامي!

وآخر:

- واحنا حنعمل إيه؟ هو حد قادر يتكلم؟!!

ولاحظ الرؤساء كثرة الكلام، ففرقوا العمال، فسار كل واحد إلى ماكينته وهم
حيارى. وأخذوا يتحركون حول المكن في تباطؤ ودون حماس. وانتشر
الرؤساء في العنبر يترقبون. وأغلقت دورة المياه بعد أن أحضروا لها أحد
الخفراء للحراسة. وتعسف الرؤساء، وزاد تعسفهم في عدم إعطاء تصاريح
للذهاب للدورة.

بدأ العمال يتألمون، وأخذوا يتسربون إلى الدورة دون علم أو تصريح من
الرؤساء، والخفير يمنع. وازداد الألم والتأوهات، وبدأت الصرخات: - عايزين
نصَّير، عايزين نعمل زي الناس، الميه حتفرتكنا!

ولم يبالي أحد من الرؤساء بآلام العمال، وبصرخاتهم وتأوهاتهم، مكتفين بهز
الرؤوس، غير عابئين بالألم. وإذا بأصوات تعلو من الخلف، وعمال يعدون
نحوها، تاركين المكن، بينما اكتفى آخرون بالوقوف يشاهدون من بعيد ما
يحدث.

كان أحد الرؤساء يمسك بتلابيب عامل محاولاً دفس رأسه بين تروس المكن
لأنه تجراً وطلب تصريحاً للذهاب إلى الدورة. ووقف العمال يتطلعون في هلع
صائحين: - سيبوه! سيبوه!

وهالهم اشتداد الضرب. واندفع بعض العمال من ذوي السواعد القوية غير عابئين بما قد يحدث، اندفعوا محاولين تخليص العامل من بين يدي الرئيس، وتمكنوا من انتزاعه بعد مقاومة قصيرة. وهال الرؤساء ذلك، وأخافهم، وعدوه مهانة لأشخاصهم.

تفرق العمال بعد ذلك وعلى الوجوه كآبة، ووقف كل منهم على ماكينته وعيناه لا تفارق الرؤساء الغارقين في التفكير فيما يفعلون وهم لا يزالون في أماكنهم يتطاير الشرر من عيونهم. ولاحظ العمال ذلك، وأيقنوا أن شرًا كبيرًا ينتظرهم بعد أن غادر الرؤساء العنبر متباطئين متأبطي أذرع بعضهم البعض.

لم يمر وقت طويل حتى عاد الرؤساء مشمرين عن سواعدهم، ومن خلفهم أربعة خفراء فارعي الطول، وجوههم كرهية مرعبة، وفي يد كل منهم كرجاج سوداني طويل به كثير من العقد المصنوعة من أسلاك النحاس الأصفر. وبدأوا يدخلون من طرفة ويخرجون من أخرى باحثين عن العامل الذي كان الرئيس أن يدفس رأسه بين التروس والعمال الذين انتزعوه من يديه. ساروا في الطرقات ينظرون في الوجوه، والخفراء خلفهم ينتظرون إصدار الأوامر. وكان العمال يتفادون النظر إلى تلك الوجوه الكريهة خوفًا من تلقيح الجنت. واستمر الرؤساء في البحث إلى أن وجدوهم واقفين بجوار المكن في ثبات، وأخذوهم كالمقبوض عليهم، وساروا بهم إلى الخارج متجهين ناحية المكاتب. ومر وقت قليل. وعاد الرؤساء وحدهم، دون أن يكون العمال معهم.

وبدأت التساؤلات: «أين ذهب العمال؟ أين هم؟ ماذا حدث؟ هل ضربوهم مثلما ضربوا العمال في الصباح؟».. وترددت أسئلة كثيرة. وقطع التساؤل توقف الماكينات، وذهب الجميع للأكل وقت الظهر. وقال لي عبد العظيم: - إحنا حنروح فين؟ حنطلع برّه ولا حنتغدى جنب العنابر؟

- يَلَّا نَطْلَع بَرَّه.

- طيب، هات عيشك.

أخذت أبحث عن المنديل الذي به الأكل جنب الماكينات فلم أجده، وكذلك لم أجد الحذاء، واستمررت أبحث، وطال بحثي. فقال: - إنت بتدور على إيه؟

- على الأكل.. الأكل بتاعي.. على المنديل.. أنا ما فطرتش!

- إنت متأكد إنك جيت المنديل؟

- أيوه، جبته معايا، وشلته تحت باطي وانا طالع من الأوضة!

- والجزمة فين؟

- وأنا باجري قلعتها وحطيتها تحت باطي عشان ألحق الباب قبل ما يقفل.

- يعني إيه؟ مش معقول! حد حيسرق الجزمة؟ إنت أول ما جيت الصبح،

حطيت العيش فين؟

- تحت المكن.

- مش معقول! إنت أول ما جيت نمت ورا المكن، وكنت مسروق وقلت:

«الجزمة.. الجزمة راحت فين، ما عنديش غيرها. أروح ازاى، أروح حافي؟»

لازم الجزمة وقعت منك وانت بتجري.

حاولت أن أتذكر، ولكني لم أتذكر في أي مكان وضعتها. ولم يعد يشغلني العيش قدر ما تشغلني الجزمة. كيف أمشي حافي القدمين، وماذا تقول أمي

عندما تراني؟ هل تصدق أنها ضاعت؟ وماذا تقول أختي عندما تراني في البلد حافيًا، بينما الولد الغريب والولد السيد الصفطي يلبسان الجزم؟ هل تصدق أمي أنها ضاعت في الطريق وأنا أجري؟!

سوف تقول أمي: «إنت خايب»، وكذلك ستقول أختي. وسوف يقولون لماذا لم تضع جزم الولد الغريب والولد السيد الصفطي؟!

وقطع تفكيري عبد العظيم قائلاً:

- يَلَّا بَقَه، يَلَّا عَشَان نَلْحَق نَاكَل. إِحْنَا حَتْنَاخِرَا!

- أَنَا مَا مَعَايِيش عَيْش.

فقال:

- لَقْمَة هَنِيَة تَقْضِي مِيَة.

وسرت معه وأنا في غاية الألم بسبب ضياع الجزمة وخوفي من أمي. سرت شارداً الذهن، لا أفكر في الجوع ولا في الأكل قدر ما كنت أفكر في الجزمة التي ضاعت ولم أعثر لها على أثر. وخرجت من باب العنبر، وإذا بالطريقة مزدحمة بالعمال الخارجين لشراء ما يلزمهم من طعام، وهم يسيرون بخطى سريعة رغم الزحام، كل منهم يحاول أن يسرع قبل انتهاء الساعة المخصصة للغداء. كانوا يتدافعون مسرعين، وأيديهم ملطخة بالسواد، وشعورهم معشش عليها الزغبار ولم تغسل لضيق الوقت.

وعندما وصلنا إلى الحوش المجاور للإدارة، وجدناه مزدحمًا بالعمال، ولم يكن به مكان لقدم، وخيل إليّ عندما وقعت عيناى على كل هذا العدد أن الأبواب

الخارجية مغلقة، وأن أمرًا ما قد حدث، مما دفع إدارة الشركة إلى حجز العمال. ولكن ما حدث كان غير ما توقعت، كان العمال يقفون لقراءة منشور ملصق على الجدران أنساهم ما فيه شراء ما يلزمهم من غداء. كانوا يتدافعون نحو الجدران للتمكن من قراءة المنشور، كل منهم يحاول أن يقرأ بنفسه ليتأكد مما فيه. كانت الأيدي تلوح، والشفاة تتحرك غاضبة. وأنساني الزحام حزني على الجزمة وضياعها. واندفعت وسط الجموع المحتشدة محاولاً الاقتراب من الحائط الملصق عليه المنشور. وبعد جهد شاق، دفعتني الأيدي القوية للالتصاق بالحائط، ووقفت أقرأ مثلما يقرأون. وإذا بأيدي تدق على ظهري بقوة، وأصوات تقول: «اقرأ بصوت عال وسمعنا، هو انت واقف تسمع نفسك»، فقرأت: بأمر المدير العام للشركة:

أولاً: تغلق كافة دورات المياه في جميع العنابر من الساعة الثامنة صباحًا إلى الساعة الحادية عشرة ونصف صباحًا. وتغلق من الساعة الثانية بعد الظهر إلى السادسة مساءً.

ثانيًا: كل من يتأخر عن العمل دقيقة في الصباح أو المساء يُحرم من الدخول مع توقيع العقاب يوم أو يومين تعويضًا عما يسببه من خسائر للشركة.

ثالثًا: ممنوع لبس القباقيب في العنابر أو في الطرقات، وكل من يضبط سوف يُعاقب.

رابعًا: ممنوع على أي عامل أن يرفع يده في وجه الرئيس أو يلوح بها. كل من يخالف ذلك يُفصل من العمل.

خامسًا: فصل كل من الآتية أسماؤهم بسبب كلامهم مع الرؤساء والتلويح بأيديهم...

وقرأت أسماء المفصولين، فعلق بذهني منهم الشحات، وأحمد علي، وإبراهيم العدل - من العمال الذين كانوا معي في الخبزة، والذين رأيتهم معي في الصباح وهم يمسكون بيدي ويقولون لي: «اجري لاحسن اليوم حيروح». لم يعلق بذهني سوى هؤلاء من كل الأسماء الكثيرة المكتوبة في المنشور.

لم أتمالك نفسي من شدة الغضب. وتلفت حولي أبحث عن عبد العظيم لأبلغه ما حدث. ووقفت أتأمل الأسماء متخيلاً الشحات، وإبراهيم، وأحمد علي، وهم واقفون أمام العنبر، ورأيتهم وهم يتمشون في الحجرة، وهم في الطريق وفي الخبزة.. وخيل إليّ أنني أعرفهم من سنين. هذه الوجوه المبتسمة الضاحكة لا يمكن أن تكون قد اعتدت أو لوحت حتى بأيديها في وجه أي رئيس. وتأملت صورة العامل النساج الذي رأيتته بنفسي والرئيس يمسك بتلابيبه محاولاً دفس رأسه بين التروس دون أن يفعل العامل أي شيء. وقلت: «إن ما حدث لهذا العامل قد حدث لهم». وحاولت أن أسأل نفسي: «لماذا يضرب الرئيس العامل هكذا؟».. فلم أجد إجابة على هذا السؤال ودارت بي الدنيا. وقطع تفكيري أصوات العمال الغاضبة الساخطة على ما جاء في المنشور، وحاولت أن أفسح لنفسي الطريق للبحث عن عبد العظيم وسط تلك الحشود.

خرجت بعد مشقة، وملابسي مبللة بالعرق، فوجدت العمال بالخارج يتحدثون في غضب. منهم من يقول: - هو العامل عمل حاجة؟ العامل بيزق العربية وهي متلثة قطن، وعمال يتتبع فيها، والرئيس نادى عليه، فمشى دون أن يسمع. شوف الرئيس عمل فيه إيه بعد كده. جري عليه زي الوحش وراح قلبه على ظهره وماسك رقبتة وما سابوش إلا لما اتلمت عليه كل العمال

في العنبر، وخلصوه بالقوة. وأخيرًا أهه، شفتم حصل إيه؟ أهو اتفصل! تقدرؤا
تقولؤا إيه اللئ حصل من العامل عشان يفصلؤه؟! أهو انضرب لما مات وما
رفعشي إئده والله، واهو انفصل! دي شغلانة عاملئها مع بعض عشان يذلؤنا!
دول عايزئ الواحد يمشئ وعئنئه فئ الأرض!

وأخر يقول:

- معلئش يا جماعة، إلئ ما شافش لحمة.. مش مسك فئ إئده مفتاح وداير
به طول النهار ع المكن، لازم يعمل كده! ما بئعملش كده إلا قليل الأصل!

ورد آخر قائلاً:

- طئب الدورة حنعمل فئها إئه؟ هو احنا نقدر نقعد طول النهار من غير الواحد
ما يروح الدورة؟ يا سنة سؤدة يا ولاد! دا الواحد ما بئقدرش يقعد خمس
دقائق محصور!

همَّ علشان ما بئروحوا الدورة فئ أئ وقت على كئفهم يعملؤا فئنا كده؟!

وقال آخر بصوت عال:

- لئه عئئ الواحد يموت نفسه؟ الواحد لما ينحصر يعملها جنب المكنة! همَّ
حئعملؤا فئنا إئه؟ ضرب وئبضربؤنا، وفصل وئبفصلؤنا.. هو فئه حاجة أكثر من
كده؟!

وقال آخر:

- لئه عئئ؟! إلئ يضربك حط صوابعك فئ عئنئه! مئئش حد أحسن من حد!
ما بئقاش الواحد فئ البئ راجل على مرأته واخؤاته وفئ الشغل بئقى عامل

زي النعجة! الراجل لازم يبقى في البيت راجل ويبقى في الشغل راجل!
ولقي هذا الكلام استحسائًا من الواقفين. وتكلم آخر: - لا يا جماعة.. ده مش
الحل. حد يعمل كده إلا اللي مستغني عن الشغل. إللي عاجبه على كده
عاجبه، واللي مش عاجبه يروح على بلده أحسن، وما يوديش نفسه في
داهية! هُوّ الواحد ما جاش هنا إلا علشان يوكل أمه واخواته، وعلشانهم لازم
الواحد يعمل خده مداس! أكل العيش عايز صبر. لما يشتمك الرئيس أو
يشخط فيك، اعمل وذن من طين وودن من عجين. وكلمة حاضر بتريح ما هو
ربنا خلق الناس درجات. «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم».
هو ربنا قال كده في القرآن.

فرد آخر قائلاً:

- يعني هُوّ انت عايز تقول إن ربنا راضي ع اللي بيحصل لنا، وهو مش ربنا
قال: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم». وهي مش
خلقة ربنا اللي بيضربونا عليها دي؟ هو الواحد لما يضربك على وشك يبقى
حرام ولاً حلال؟! اتكلم.. هُوّ انت بس عمّال تقول ربنا عمل وربنا خلّى؟! إيه
رأيك في ضرب الناس على خلقتها؟ حرام ولاً حلال؟ انطق هو كلام؟

فرد الآخر قائلاً:

- أنا قلت كده وخلص. أنا بانصحكم لوجه الله علشان الواحد منكم ما
يتهورش ويضرب الرئيس ويرجع ثاني يتندم!

فردوا عليه في نفس واحد قائلين:

- هو احنا بنضرب ولاً بنهب؟! دا احنا بنضرب على دماغتنا وصابرين!

وتنهذ آخر قائلاً:

- هو الكيل لما بيتملي، مش بيطفح؟ دول كمان عايزينا نمشي في العمل حافيين، ما هماش عايزينا نمشي حتى بالقبقاب! هو احنا معانا فلوس علشان نشترى جزم؟ دا الواحد يا دوب الجزمة اللي حيلته مخليها لما يروّح كل خمستاشر يوم!

هو احنا لو دونهاها حنعرف نجيب غيرها؟ مفيش فايدة يا عم.. إللي يضربك لازم تضربه.. العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم!

وقطع الحديث صوت الصفارة المزعج الذي يعلن انتهاء ساعة الغداء والتوجه للعمل. زعقت الصفارة ولم يكن العمال قد اشتروا شيئاً أو أكلوا. واتجه العمال الذين كانوا يقفون في حلقات إلى الداخل، في خطى بطيئة تشبه السير في جنازة لدفن الموتى وتوصيلهم إلى المقابر: لا ابتسامة، ولا ضحك، بل صمت كصمت القبور، وهمسات ضعيفة تقول: - قرب عشان نروح الدورة قبل ما تقفل ونتجنب تحكم العويل ابن العويل فينا!

وأصوات أخرى خافتة تقول:

- قرب قرب شوية عشان الواحد يلحق ياكل اللقمة قبل الرؤساء ما تشوفه، ما هو كل شيء بقى ممنوع!

دخل العمال العنابر، وبدأ كل واحد يقف على مكنته. وتوجه آخرون مسرعين نحو الدورة. وتوجهت بدوري نحو الطرقة التي بها المكن والمكنة التي تعودت الوقوف عليها، فوجدت عبد العظيم واقفاً خلف المكن، فأسرعت نحوه قائلاً: - إنت كنت فين؟ أنا دورت عليك علشان أقول لك إن الشحات وإبراهيم

اتفصلوا من الشغل، أنا شفت أسماءهم مكتوبة في المنشور اللي متعلق على الجدران.

لم يتكلم عبد العظيم وظل صامتًا. وظننت أنه كان يعرف قبل أن أخبره، وتركته في مكانه دون أن يتحرك. وذهبت نحو الفرامل أعبت في المواكيك اللي في الأدرج.

دارت المواتير وتحركت السيور معلنة بدء العمل في الساعة الواحدة بعد الظهر. ورخيت الفرامل، ودار الممكن. وتحرك عبد العظيم نحوي وقال: - اسمع، خلّي بالك كويس بعد هذا المنشور.. دول حيتفرعنوا.. مسكوا سلاح في إيديهم، سلاح الفصل، فصل أي عامل دون أن يراجعهم أحد. وكمان في إيديهم توقيع الغرامات! سامع؟ أهو انت شايف الواد الشحات والواد إبراهيم اللي كانوا ماشيين معنا بالليل، أهم انفصلوا وراحوا في شربة مية!

قالها وسكت. وتلفت حوله محاولاً إخفاء الدموع التي لم يملك أن يمسكها فتساقطت حزناً على زميله.

دار الممكن. وانتظم العمال، وتحرك الرؤساء في العنبر وفي أيدي كل منهم دفتر غرامات تسلمه من الإدارة، وهم يحاولون إبراز هذه الدفاتر للعمال ليشتيعوا الرعب والفرع في نفوسهم. وأخذ العمال يصلون إلى أماكنهم دون أن ينظروا إلى تلك الوجوه المتحفزة، وجوه الرؤساء المباشرين.. والعنبر يكاد أن يكون صامتًا إلا من الضجيج الذي تحدته آلات النسيج، وزئير السيور.

موت عامل

كان العمال يسكرون ويلفون حول المكن وهم يختلسون النظر إلى الرؤساء، وينتهزون فرصة بعدهم ليتحدثوا. فمنهم من قال: - المكنة خرابنة، والمكوك بينط، وانا خايف أدورها، لاحسن ينط وبخرق عين واحد!

فيرد آخر قائلًا:

- طيب روح جيب الميكانيكي يشوف فيها إيه.

- أنا عُلبت، كل ما أقول له يقول طيب امشي وادينني جاي وراك، واهو آديني سايبها واقفة بقالي ساعة ولحد دلوقت ما جاش عشان يصلحها، واهوه انت شايفه ماشي في الطرقة وفي إيديه الدفتر فرحان بيه، وأخرتها مش حتقع في النهاية إلا على دماغي، مين يقرا ومين يسمع؟! ما هو الرئيس كلامه مسموع، ديك الساعة رايجين يقولوا لي إنت ضعيف في الشغل! أعمل إيه؟ أدورها وزى ما يكون؟

فيقول له آخر:

- حرام عليك، يمكن المكوك ينط في عين واحد وبخرقها، حد يبقى ينفعه؟ سيبها واقفة.

- طيب، ولما أسيبها واقفة ساعة كمان ويجيلي غرامة، مين يبقى ينفعني أنا؟

- ما تروح تجيب الميكانيكي يا أخي، ما تروح تقول له، هو انت خايف تروح له؟

- أيوه خايف، حيعتبروني غشيم، هُوَ عايز بس يقف مع الرؤساء ويتكلم طول النهار، ومش عايز يحط إيده في حاجة، ولما يبجي المدير يجري في العنبر وبدور المكن بالعطل اللي فيه، هوه يهमे حاجة؟ مش بيقبض ماهيته كاملة وخلص؟ ماله هُوَ ومال العمل؟ واهو، أنا حاوريك عشان تعرف إنه جبان ومش حيسأل فيّ، خَلِّي بالك شوف حيعمل إيه.

ويتوجه العامل مدفوعًا نحو الميكانيكي، ويقف بجواره خلف إحدى الماكينات وهو يتحدث مع أحد الرؤساء. وقف العامل أمامه وبيده المواكيك، فنظر له الرئيس ولم يكلف نفسه عناء الكلام، وهز رأسه للعامل بما يعني «عايز إيه؟». فتوجه العامل نحوه محاولًا شرح ما في المكنة من عيوب، فلم يسمع الرئيس له، ودفعه بيده دفعة قوية أوقعته قائلًا: - امشي، امشي هناك، واستناني جنب المكنة لما أبقي أجيلك.

وعاد العامل ونفسه مكسورة، ووقف على المكنة وهو يتمتم:

- شايفين.. آديني سمعت كلامكم ورحت له، وهُوَ ما سألتش! مش معقول حاسب المكنة طوال النهار واقفة، حيقولوا إيه لما القماش يطلع ويروح عند الفحص ويقيسوه ويلاقوا عامل الليل جايب قماش أكثر مني؟ حيقولوا إيه؟ حيقولوا إني ضعيف في الشغل، وآخرتها رايجين يرفدونني! حد حيقدر يقول إن الميكانيكي عطل المكنة وسابها واقفة؟ مين يقرأ ومين يسمع؟ حد يقدر يقول إني رحت له ثلاث مرات وهُوَ فاضي ما بيعملش حاجة غير كلامه مع الرؤساء؟ لا عايز يصلح المكن ولا حتى يعرف اللي فيه! أنا حاعمل إيه؟ مش ديك الساعة الميكانيكي حيقول ما حدش قال لي حاجة، ما حدش نهنني.. مش حتيجي آخرتها إلا على دماغني، مين حيقوى يحوش عني الغرامات؟! أنا

لازم أدور المكنة، حادورها وزى ما يكون، ما حدش هنا يسمع كلام العامل،
كلام الرئيس هو اللي بينسمع.. ولازم أدور المكنة أهو.. يلاً!

كان خوفه من الرغد أكبر من خوفه من خطر دورانها.

دارت المكنة، واستمرت في الدوران. وظن العامل أنها أصلحت بقدره قادر،
واطمأن العمال المجاورون إلى أن المكنة لن يحدث منها أي خطر، وبدأوا
ينصرفون إلى عملهم. ولكن حدث ما لم يكونوا يتوقعونه. نط المكوك مثل
السهم فالقاً دماغ العامل.. خبطة قاتلة في المخ.. وارتدى العامل على الأرض
والدماء تنزف من رأسه بغزارة، وسرعان ما لطح الدم وجهه وملابسه. ونام
العامل ممدداً دون أن يرتفع له صوت أو تصدر عنه حركة.

وتجمع العمال المجاورون وهم يصرخون صرخات متوالية: «المكوك قتل
واحد!».. وجاء العمال من كل مكان في العنبر، وكل واحد يحاول أن يراه في
نومته، ولكن كان هذا مستحيلاً لكثرة عدد العمال الذين يعدون بالآلاف. وبدأت
صرخات من كل مكان: - وسع يا جدع انت وهوه.. الدنيا حر.. هوي عليه يا
جدع.. الواد راح في شربة ميه يا جدعان!

وأخر يقول:

- دا كان واقف معايا دلوقت أهه! كان واقف معايا ورا المكنة بيركب الفتل
مفيش دقيقة! الميكانيكية ما بتصلحش المكن، ملهومش قلب يقفوا وبشوفوا
المكن فيه إيه، عمالين يمروا في الطرقات وفي أيديهم الدفاتر! مين حيقدر
يتكلم؟! أهو مات.. أهو مات في شربة ميه!

وبقي العامل أكثر من ربع ساعة راقداً في مكانه.. ربع ساعة تكاد تكون يوماً كاملاً قبل أن يصل الرؤساء. وكنت واقفاً بجانبه، ودقات قلبي سريعة كادت أن تقف، وجسمي ينتفض. تجمدت في مكاني، ولم أشعر بالدم الذي أغرق ملابسي إلا بعد أن حضر الرؤساء ووقفوا بجواره، ولم يكن يبدو على وجوههم شيء من الاهتمام، كأن شيئاً لم يحدث! وخيل إليّ أنهم تعودوا أن يروا مثل تلك الوجوه الميتة الغارقة في الدم من سنوات. وتجمهر كل العمال وعيونهم مبللة بالدموع، وكل منهم يحاول أن ينفذ أمر الرؤساء بحمله، ولكن الرؤساء لم يسمحوا إلا لخمسة من العمال فقط! وانتشر الباقون في الطرقة، واصطفوا على الجانبين، وآخرون خلف المكن في انتظار أن يلقوا عليه نظرة أخيرة، وكانت عيونهم المبللة بالدموع تنظر في حقد على الرؤساء الذين لم يبذؤ عليهم أي اهتمام أو تأثر، وحقد على المكن الذي قتل منهم عاملاً كان يعمل بجوارهم منذ دقائق.

ساروا به في الطرقة إلى خارج العنبر، ليذهبوا به إلى العيادة المجاورة للإدارة. وكلما مر على العمال المصطفة هجموا عليه لتقبيله غير مبالين بالدم الذي يلتصق بشفاههم. وساروا خلفه في تباطؤ إلى أن وصلوا إلى باب العنبر، ولم يمنعهم من مواصلة السير خلفه إلا الرؤساء بعد خروجه من العنبر.

عاد العمال، ووقف كل منهم على مكنته في رعب وفزع، وهم يتلفتون حولهم في حركات هستيرية خوفاً من أن يصيبهم ما أصاب زميلهم. وذهبت إلى مكنتي التي يقف عليها عبد العظيم. وقفت خلفها خائفاً وكل ما في جسدي يرتعد، وتلفت حولي، وإذا بي أجد المكنة التي قتلت العامل، المكنة التي قتلت صاحبها... وزاد خوفي من أن يأتي الرئيس ويطلب مني أن أذهب لإدارتها لما يعرفه عني من أنني تعلمت وأصبحت قادراً على إدارتها.

الإنسان والمكن

كلما رأيت المكنة واقفة إلى جوارى تمنيت أن أهرب بعيدًا إلى أن يأتي غيري، وخاصة بعد أن وقعت عيناى على الدم الذي تجمد بجوار المكنة ولم يأت أحد لإزالته، وقلت في نفسي: «لماذا لم يأت أحد لإزالة الدم؟ لماذا لم يأمر الرؤساء بذلك؟ هل يتركونه إلى أن يأتي أحد الكبراء لرؤيته؟ أم سيأتي أحد من النيابة وبعين مكان الحادث ويأمر بدفن الجثة بعد أن يحقق ويحبس القاتل مثلما كان يحدث في قرىتي عندما كان يعتدي واحد على آخر ويقتله.. هل ممكن أن يحدث هذا؟ هل ممكن أن يقبضوا على مكنة ويحبسوها؟!».

أسئلة كثيرة.. ورجعت بتفكيري إلى أيام كنت أشتغل في الغزل ومات الكثير من فعل المكن، ولم يحقق أحد، ولم يأت أحد من الرؤساء الكبار لمعرفة السبب، ولم تأت النيابة لإثبات ما حدث.. وأيقنت أن أحدًا لن يأتي، وسوف يُدفن هذا العامل كما دُفن الآخرون.. ودون أن يعلم أحد.. عن سبب الموت ولا الكيفية التي مات بها.. ودارت بي الدنيا، وارتعد جسدي. وأنا لم أترك عنبر الغزل إلا هاربًا من الذين يموتون لكي أنجو بنفسى. وها أنا اليوم أرى عاملًا يموت في لمح البصر بخبطة من المكوك. واستعدت بذاكرتى كل الذين رأيتهم أو سمعت عنهم من عمال الشلل والبرم والتنظيف ممن قُطعت أيديهم وأرجلهم ورأيتهم في المستشفى. كل هؤلاء لم تُثبت أسماؤهم في دفاتر، وحتى الأيام التي اشتغلوها قبل أن يصابوا لم يحصل على أجرها أحد من أهلهم. وبهذا يكونون قد ماتوا مثلما يموت القط الذي لا صاحب له.

ورجعت بذاكرتى إلى أيام القرية، عندما اتهم محمد الصعيدي بقتل السيد الصواف، وجاءت النيابة، وهي التي أمرت بدفن الجثة بعد أن حضر حكيم

المركز وأمر بتشريحها، وبعد ذلك حكمت المحكمة على القاتل بخمسة وعشرين سنة سجن، أي تأييده، مع تعويض يُدفع للأبناء. فلماذا لا يحدث هنا مثلما كان يحدث في القرية لإثبات المسؤولية؟ لماذا لا يحدث تحقيق ويُدفع تعويض؟ لماذا لا يُعاقب المسؤول لكي لا تتكرر عمليات الموت؟

تلك هي الأسئلة التي دارت بذهني وكادت أن تفجره دون أن أهتدي إلى حل يريح ضميري.

ثم، لماذا لا تُكتب شكاوى ضد الشركة؟ ألم يكن للذين ماتوا أهل يرفعون الشكاوى ويكتبون البلاغات للنيابة، ويطالبون بمحاكمة مَنْ قتلوا أبناءهم مع دفع التعويض؟ إن الذي يملك جاموسة وتتسبب في إتلاف زرع الآخرين أو تنطح أحدًا يُجازى صاحب الجاموسة باعتباره مسؤولاً عنها. وهنا في المصنع، قد يُقال إن الممكن هو الذي قتل، والممكن ليس إلا حديد. وقلت: لم لا يُعاقب صاحب المصنع مثلما يُعاقب صاحب الجاموسة باعتباره المسؤول عن الإهمال؟ لو كان صاحب الجاموسة أكلها كويس لما تسبب عنها هرس زرع الآخرين، أو لو كان ربطها بحبل أو سحبها بعناية لما تمكنت من نطح أحد في الطريق، وبذلك يكون صاحب الجاموسة هو المسؤول عن الإهمال. وهنا في المصنع، لو صلحوا الممكن وعملوا حواجز حول الأماكن الخطرة لما قُتل العمال، فما يقع على صاحب الجاموسة يقع على صاحب المصنع، لأنه هو المسؤول. فلماذا لم ترسل هذه الشكاوى؟ لماذا لا تتقدم الأهالي وترفع الشكاوى للمحاكم ويقف المحامون ليدافعوا عن العمال؟! ألا يقول المثل: «الظرف اللي ما يصيبش يدوش».

أفكار وأفكار تتوارد على ذهني في ثوان وأنا واقف أمام الممكنة، ونظرت في الوجوه المجاورة فوجدتها ساهمة واجمة. أصوات العمال خفتت. لا كلام ولا

ابتسامات ولا ضحكات مثل التي كانت تحدث عادة. كل شيء في العنبر ساكت إلا ضجيج المكن، واهتزاز السيور التي لا تعرف الحزن.

وحدث ما كنت أتوقعه وأخشاه؛ رأيت الرئيس يسير في الطرقة يتلفت يمينًا ويسارًا مُتفحصًا الوجوه الواقفة بين الماكينات. وشعرت أنه يبحث عن عُمال اليومية لِيُسلم أحدهم المكنة التي كان يقف عليها العامل الذي مات. وتمنيت أن أهرب أو تنخسف بي الأرض لكي لا يراني. وابتعدت عنه، وإذا به يقترب. وذهبت نحو عبد العظيم مهرولاً، ومحاولاً إخفاء نفسي بجواره. فقال لي: - مالك كده لونك مخطوف؟

- الرئيس جاي.

- طيب وماله، ما بيحي. حيحصل إيه؟

- أنا خايف لاحسن يوقفني على المكنة اللي مات عليها العامل!

سكتنا لحظة، واسترسل هو قائلاً:

- وهي دي حاجة تخوِّف؟ أمال حنعمل إيه لو كان كل واحد خياف؟ أمال المكن ده مين اللي راح يشغله؟

- هوّ انا مستغني عن نفسي؟ واللي بي موت هنا ما حدش عارف بيدفنوه فين!

- ما تخافش. ما توهمش نفسك. ما حدش حيموت ناقص عمر. الأعمار بيد الله.

فقلت متشجعاً:

- وهُوَ ربنا مش قال لا ترموا أنفسكم في التهلكة؟

فقال ساخرًا:

- التهلكة؟ هُوَ فيه حاجة هنا اسمها مش تهلكة؟ كل واحد هنا معرض للتهلكة ما لم تكن أمه داعية له. دا مكن، والممكن من حديد، لا يعرف تهلكة ولا غير تهلكة. ما دام رضينا نشتغل يبقى ما تخافش من التهلكة. أكل العيش عايز كده. إيش رماك ع المر، إللي أمر منه! هُوَ جابنا هنا إلا الاحتياج! سيبك بقه من التهلكة وغير التهلكة.. اشتغل، وخلي بالك. إنت جدع، وإيدك خفيفة في الشغل، إنت اتعلمت وبقيت كويس، وإذا جه الريس وأخذك وداك ع الممكن لازم تروح. ما تخافش لازم تبان قدامه إنك جدع. إللي بيخاف م العفريت يطلع له. إوعى تتلجج. خلي قلبك جامد. إنت عارف الممكن دا عامل زي إيه؟ متهيألك إنه حاجة كبيرة، حاجة تخوف، ولكن أبدًا.. تعرف لما تخش عليه بقلب جامد وتبان قدامه إنك قوي، يخاف منك.. وبهذا تستطيع أن تسيطر عليه وتشغله على كيفك. فهمت؟ إوعى تخاف. أنا عايز الخوف ما يسيطرش عليك. إوعى تخذلني. أنا عايزك تقف على المكنة شجاع، لاحسن حيقولوا عليّ إني ما عرفتش أعلم عامل.

لم يكمل عبد العظيم حديثه. وجاء الرئيس. ووقف بجوار الممكن يتطلع. فوجدني واقفًا بجوار عبد العظيم أضم الموايك. واستمر لحظة واقفًا يتأملني ليتأكد من أنني أصلح لإدارة المكنة. وكنت خلال هذه اللحظة أقول لنفسي: «يا أرض انشقي وابلعيني». وذلك بالرغم من الكلام المشجع الذي قاله عبد العظيم. وأخيرًا، استقر رأي الرئيس على أخذي بعد أن تكلم مع عبد العظيم بصوت خشن أمر: - إيه رأيك في الولد اللي جنبك؟ ينفع يشتغل على الممكن؟

فرد عبد العظيم كالوائق من كلامه:

- أيوه يا افندم.

وأيقنت أن لا فائدة من الخوف. يجب أن أطرده. يجب أن أكون شجاعًا كما قال عبد العظيم. يجب أن أذهب إلى الممكن دون خوف. عليّ أن أسيطر عليه قبل أن يسيطر عليّ الخوف. يجب أن أرفع رأس عبد العظيم أمام الرئيس ليعلم أنه صاحب الفضل في تعليمي. يجب ألا أخذله.

وأخذني الرئيس من يدي، وذهبت خلفه. ومال عبد العظيم على أذني قائلاً: - إوعى تخاف. أنا راح أساعدك.

قالها والبسمة تعلقو شفثيه لأنني أول عامل علّمه وسيقف على الممكن. ابتسم رغم الحزن الذي كان يخيم على العنبر.

عندما ذهبت إلى الممكن، وقبل أن أديره، قال الرئيس: - اسمع.. استنى.. شوف حاجة وامسح الدم ده أولًا.. أنا مش عايز نقطة دم واحدة جنب الممكن.. شيل الدم الملطخ على الجوانب.

قالها بخشونة، وكان عليّ أن أطيع.

وأيقنت أن الموضوع انتهى، والعامل قد مات وفي طريقه إلى الدفن دون أن يُكتب الاسم في دفاتر الشركة، ودون أن تثبت أسباب الوفاة، شأنه شأن غيره ممن سبقوه إلى الموت. وقلت في نفسي: أين النيابة؟ مفيش حد يكتب شكاوى حتى لو مجهولة مثلما كان يحدث في قرיתי عندما يكون الجاني ذا عزوة ومن عائلة كبيرة ذات شأن. إن الذين لم يكن عندهم الجرأة للتبليغ ضدهم والشهادة أمام المحققين كانوا يكتبون الشكاوى محددين القتلة وفي

أي مكان تم القتل لكي تقبض النيابة على القاتل. ألم يُقتل هذا العامل؟ فلماذا لا تُكتب شكاوى حتى ولو من مجهول؟ المهم أن تعرف النيابة المكان الذي قُتل فيه العامل. وظننت أنهم يدركون ذلك، ولهذا يرغبون في إزالة آثار الجريمة، وهي الدم. وترددت لحظة في إزالته، لأنني كنت أود أن يأتي أحد ليراه. ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه. فقد أرسل الرئيس عمالاً آخرين من الذين يمسخون الممكن ويكنسون الطرقات، وفي أيديهم جرادل مليئة بالماء. وفي ثوان أزالوا كل آثار الدماء. وشعرت ألا فائدة من الإبطاء فخلعت جلبابي، وأدرت الممكن، متذكراً كل ما قاله لي عبد العظيم من نصائح. لا فائدة من الخوف ما دمت قد أردت لنفسني أن أكون عاملاً.

وقفت على الممكن قابضاً بيدي على الفرامل، متطلعاً إلى وجوه العمال المجاورين. وشعرت لأول مرة بالفرحة تملؤني؛ لقد أصبحت عاملاً، أصبحت مسؤولاً عن ممكن، تعلمت كيف أديره، أصبحت زي عبد العظيم، زي كل العمال الذين يديرون الممكن، وغداً سأعلم آخرين كما تعلمت أنا.

وبعد لحظة سوف يأتي الولد الغريب والولد السيد الصفطي وبيروني وأنا واقف وحدي على الممكن. وبُكرة أُمي تفرح لما تعرف.

وجه عبد العظيم فرحان لما لقي الممكن داير. وشد على يدي قائلاً: - مبروك. أهو كده. اشتغل.. لا حد يقدر يقول لك حاجة ولا محتاجة. ما حدش يقدر يكلمك. ولا حد يقدر يقول لك دور الممكنة دي لاحسن أنا تعبان أو عبال ما أروح الدورة، أو عاوز أتفسح أروح عنابر الصبغة أو الفحص أو... أهو دلوقت أصبحت متعلق من عرقوبك، واستريححت من دوشة الطلبات، دايمًا العمال اللي واقفين على الممكن يحاولوا يشغلوا عمال اليومية، العمال اللي لسه ما تعلموش، ويتأمرؤا عليهم. وأهو دلوقت إنت واقفت على الممكن وحتبقى زي

أجدع واحد فيهم. ما هي الدنيا كده، ما هياش على حالة واحدة. إللي ما تعلمش بُكرة يتعلم. واهو انت اتعلمت وبقيت زي العفريت. يلاً.. شد حيلك يا عم، وارفع راسنا، أنا مبسوط اللي قدرت أعلم واحد زيك وطلع من تحت إيدي ماسك مكن، أنا دلوقت فرحان بيك، وإذا احتجت حاجة، أنا جنبك، وحاوصي عليك العمال اللي بجوارك.

ومال عبد العظيم على المكنة، ويداه على رأسه وقال: - أنا تعبت، ووسطي حيقع، ورجلي بتنشر من الوقفة. اتناشر ساعة الواحد واقفهم على رجليه، طول النهار عمال يلف بدون راحة، الواحد انهذ حيله من الوقفة!

ونظر إلى الساعة المعلقة على الحائط، وقال بصوت ضعيف: - لسه فاضل ساعة.. أنا تعبت، أنا ما عدتش قادر أقف على حيلي، أنا حاقعد جنبك هنا شوية، وخلي بالك من الرئيس لأن وسطى حينحش.

ولم ينتظر الإجابة، وجلس القرفصاء واضعاً رأسه بين راحتيه، واستمر هكذا في نومه، ولم يصح إلا على الأصوات والضوضاء التي تعوّد سماعها عند انتهاء كل وردية، وكلمة «هوه.. هوه» التي تعوّد آلاف العمال ترديدها ابتهاجاً بانتهاء يوم العمل. وقام عبد العظيم منهوك القوى، شاحب الوجه، متجهًا نحو مكنه لتسليمه لعامل وردية الليل، والرئيس يمر على المكن يكتب الأسماء على الأقمشة ليبين شغل عامل النهار من شغل عامل الليل، ولأول مرة كتب الرئيس اسمي على القماش، فشعرت بالطمأنينة، وأني من الآن صاحب هذا المكن.

وجاء عامل الليل، ولم يكن قد سبق لي معرفته. كان طويل القامة، نحيف الجسم، في أعلى جبهته شعر أسود ناعم، عيناه صغيرتان سوداوان خلقتا

لتبعنا الطمأنينة في أشد القلوب قلقًا. وقف بجواري حافي القدمين يتفحص
المكن كالماهر. ونظر إليَّ بعينه الصغيرتين في تساؤل.

لبست جلبابي، وتوجهت نحوه فمد يده لي محيياً. وأردت أن أجيبه عن
تساؤله، ولكنه كان قد علم بما حدث وهو آت في الطريق. وقال بصوت
حزين: - إنت اللي مسكت المكن؟

- أيوه الرئيس جابني.

- إذن أنت زميلي من اليوم بعد أن...

لم يكمل، وتساقطت الدموع من عينيه، واسترسل قائلاً: - معلهش.. الدنيا
كده. شد حيلك ما تخافش.

الأعمار كلها بيد الله. كل واحد عمره مكتوب على ورقة من شجر، والموتة
اللي رايح يموت بيها، والورقة لما تنشف وتقع يموت صاحبها. وهو ربنا عاوز
كده. الأمر لله. الله يرحمه.

فقلت:

- أمان لما الواحد بيتقتل، ليه بيحاكموا اللي قتله؟

لم يُجب.

وبدأ العمل. وتحركت الآلات. وبدأ رؤساء الليل ينتشرون في العنبر،
ويتسلمون العمل من رؤساء النهار. وجاء الواد الغريب والواد السيد
الصفطي. ولما رأوا اسمي مكتوبًا على القماش تهلل وجهاهما فرحًا. وهجم
عليَّ الواد الغريب مادًا يده لي قائلاً: - إيه ده؟ هو انت اسمك انكتب على

القماش؟ إنت استلمت الممكن خلاص؟ خلاص يعني اتربطت وما عدتش
تتنطط كل يوم على مكنة؟ ابقى خَلِّي بالك من المدير وهوَّ بيمر، أحسن لو
جه ووجد الممكن بتاعك واقف مش حيضربك إلا بالشلوت يقلبك على ظهرك.
إنت شفته عمل إيه النهارده، خَلِّي بالك وما تهملش في الممكن، دا ما بيخليش
لا كبير ولا صغير، بيضرب على طول.

وجاء عبد العظيم أيضًا، واتلم الثلاثة جنبي، وقلوبهم مليئة بالفرحة، وقال عبد
العظيم: - آدي احنا بنيجي لك ع المكنة أهوه، بقيت صنايعي. الروس
حتتساوي.

وأخذني من يدي، وسرت بجواره، وانتابتني أفكار وأحاسيس عديدة. شعرت
أنني لم أعد طفلًا بعد أن تسلمت الممكن. صحيح أن الذين يعملون على الممكن
يكبرونني بكثير، ولكن لم يكن هناك فرق في الأجور بين الصغير والكبير، ولا
بين مَن تعلم ومَن في طريقه إلى التعليم، ولا بين الذين يعولون أمهاتهم
وزوجاتهم والذين لا يعولون أحدًا. الكل سواسية في الأجور.

أسئلة كثيرة وعديدة، ولا حل سوى أنني أصبحت أشعر بشيء من الرضا بعد
أن تسَلَّمْتُ الممكن. ولم يكن ثمة فرق بيني وبين من يكبرونني بكثير. لقد
أصبحت مثلهم، أستطيع أن أتحدث معهم. كنت بالأمس أسمع دون أن أشترك
في الحديث. أما الآن، فسوف أستطيع الكلام، ولن أسير إلا مع الكبار بعد
اليوم، مع مَن يعملون على الممكن.

وعلى الطريق، كانت جماعات العمال منهمكة في أحاديث مختلفة حول ما
حدث لهم طوال يوم العمل، حول الذين خطفتهم السيور أو فجر الممكن

بطونهم. وحول إغلاق الدورة، وتعسف الرؤساء، والضرب المبرح، والمنشور
الذي علق على الجدران.. أحاديث كثيرة تفيض بالمرارة والألم.

وفي الطريق، تركنا عبد العظيم قائلاً:

- أنا تعبان، أنا حارّوح، مش قادر أمشي معاكم كثير، رجلي تعبانة وحيلى
مهدود من الوقفة، مش قادر أقيم وسطى، وخاصة بعد أن رأيت الدم يسيل
أمام عيني، دم العامل اللي مات. السلام عليكم يا عم، أنا مرّوح.

وذهبت أنا والواد الغريب والواد السيد الصفطي إلى حجرتنا. وهناك لم
تحدث في شيء سوى اشتياق كل منا لرؤية أمه وإخوته.. الحنين للأم
ولالإخوة وللبلد، وللجامع اللي كنا بنتسابق خلفه في الجري إحنا والعيال اللي
كنا بنلعب معاهم الكورة الشراب، ولما كنا نملاً أكمامنا بالتراب ونقذف به
النسوان حاملات الشموع المضيئة في زفة العروسة وزفة العريس، وكيف
كن يجربن خلفنا. وكان لهذا الحديث القصير صداه في نفس كل منا. وزاد
الحديث من الحنين إلى من تركناهم في قريتنا.

وحل بنا التعب، فنمنا دون أن نكمل الحديث.

البومة

صحت من النوم مبكرًا، لا على صوت الديوك التي كنت أسمعها قبل أذان الفجر وتعودت سماعها في قريتي عندما كانت أمي تصحو عليها، لإحضار الفطار لإخواتي وهم لا يزالون نيامًا، وتصحيحهم بعد أن تفرغ من الإعداد له ليذهبوا للعمل في الحقل قبل شروق الشمس. صحت ذلك اليوم لا على تلك الأصوات المحببة لي، ولكنني صحت على صوت البومة «أم قويق» التي كانت عندما تسمعها والدتي تزعق «حد الله.. حد الله يا رب!». لم تكن أمي ترغب في سماع صوتها، بل كانت عندما تسمعها تصرخ قائلة: «يحصل إيه؟» بل كانت جارائتا يزعقن مثلما تزعق أمي «حد الله يا رب!»، وكل منهن يطاردها بالطوب قائلة: «ابعدي عنا.. إنتِ حتخربي لنا البلد غير ما هي خرابانة!». هذا ما كنت أسمعه في قريتي. فعندما صحت على هذا الصوت لأول مرة فوق حجرتي، قلت: «ماذا سيحدث؟ هل سيحدث شيء في الشركة؟» وازددت قلقًا، وملأ الرعب قلبي. وقلت: «إن شَرًّا لا بد أن يقع». وتذكرت ما حدث بالأمس عندما مات العامل على المكن، وجلست في ركن الحجرة على الحصيرة، واضعًا رأسي بين راحتي أفكر فيما قد يحدث، والواد الغريب والواد السيد الصفطي نائمان وشخيرهما المرتفع ينخفض من آن لآخر كلما بعدت الرؤوس عن الصرر العالية غير المريحة. جلست أفكر وحدي في صمت الحجرة المطبق عندما هدأ الشخير. وقلت: «ترى هل يحدث الخراب اليوم أو غدًا أو بعد غد؟! هل هذا النعيق إنذار للشركة بأن تصلح معاملتها للعمال؟ هل هو إنذار للمكن أن يعدل عن قتل العمال؟ أم هو إنذار للرؤساء كي لا يتعسفوا مع العمال ويعطوهم التصاريح للدورة ولا يوقعوا

عليهم غرامات؟ وهل.. وهل سمع الرؤساء هذا الإنذار من البومة؟» أسئلة عديدة شغلت تفكيري.

وتوقف تفكيري لحظة ثم اتجه ذهني إلى سؤال آخر: «إذا لم يكن زعيق البومة وإنذارها موجّهًا للمكن والرؤساء، إذن لمن يكون الإنذار؟ هل هو لي؟ هل هي تنذرني أن أترك المصنع؟ وإذا لم يكن كذلك، فلماذا لم تذهب بعيدًا؟ لم اختارت حجرتي للزعيق فوقها؟ لم لم تذهب بعيدًا؟ لم لم تذهب إلى المصنع لتزعق فوقه فيسمع المسؤولون عنه؟ أم ترى هي اختارت حجرتي لتسمعي زعيقها كي أهرب قبل أن تحدث الكارثة؟ ولماذا لا أفعل مثلما كانت تفعل أمي وأذهب لأرى أين تقف البومة وأقذفها بالطوب؟».

أسئلة كثيرة مُحيرة، والخوف والفرع يملآن قلبي. وأخيرًا، وقفت وخرجت من الحجر، وإذا بي أجد البومة واقفة على شراعة المنزل تزعق من حين لحين زعيقًا يخلع القلوب وبشيع فيها الفرع، فقذفتها بحجر قائلاً: «بتزعقي على إيه؟ هوّ مش كفاية احنا عُرب وسيبنا بلدنا!» فطارت عن شراعة المنزل، ولكنها لم تذهب بعيدًا، ووقفت على سطح أحد المنازل المجاورة، واستمرت في الزعيق. وحاولت أن أطردها بعيدًا لكي أريح نفسي من سماع صوتها المقبض، ولكن عيني لم ترها. وعدت إلى حجرتي وفرائصي ترتعد مما يخبئه اليوم لي، أو مما يخبئه الغد من أحداث. وزعقت على الواد الغريب والواد السيد الصفطي قائلاً:

- اصحى يا واد انت وهوّ، اصحوا. الشمس قربت تطلع.

وبينما نحن في الطريق إلى المصنع، كان ذهني مشحونًا بكثير من الأفكار منذ سمعت ذلك الصوت. وسرت وسط الحشود الهائلة من العمال. كنت أتطلع

إلى وجوههم بين حين وآخر، وكان المسير بطيئًا والازدحام شديدًا، والعمال يملأون كل الشوارع الموصلة إلى الشركة. وتمنيت أن ألتقي بعبد العظيم بسرعة وأحكي له عن البومة عسى أن يطمئنني. فقد كان عبد العظيم هو الذي علمني الشجاعة، علمني كيف أقف في مواجهة الرؤساء برأس مرفوعة، وهو الذي شجعني أن أقف على الممكن بعد حادث العامل دون خوف.

وبينما نسير في الشوارع المبللة من تساقط الندى إذا بأيدي توضع على كتفي من الخلف، كانت هي أيدي عبد العظيم، العامل الشهم. فبادرت على الفور بأن حكيت له ما رأيت، وصارحته بمخاوفي. فابتسم ابتسامة عريضة، وقهقهه عاليًا، وقال:

- هوّ فيه إيه؟ هوّ فيه حاجة إحنا ما شفناهاش؟ دا احنا شفنا كل حاجة! دا احنا شفنا الموت بعيننا! والواحد شعره شاب وهو لسه في عز الشباب! فيه إيه لسه حنخاف عليه؟! لا وانا ولا قدامنا حاجة نخاف عليها! أهى ماشية. يا دوب القرشين اللي بنقبضهم بنبعثهم لأهالينا. لما الواحد منا يجرى له حاجة تبقى أهالينا رزقها على الله. بومة إيه وهباب إيه؟ سيبك من الأوهام دي!

قلت:

- سمعت هذا من أمي، وعلق بذهني منذ كنت طفلًا.

- أنت الآن عامل، تعمل على الممكن، فلا مجال إذن لما كنت تسمعه وأنت طفل. هنا كل شيء تغير.

- ولكن أمي لم تكن طفلة عندما كانت تقول ذلك. أنا كنت أسمعها كثيرًا تُردد هذا هي وغيرها من النسوان.

- همَّ كده النسوان، تتوجس لكل شيء في القرية، وتتوجس حتى من الأحلام، وعندما تنعق الغربان على الشجر. وأنا كنت أسمع من أمي مثلما تقول أمك. هذا الكلام شائع في قرانا، وكثيرًا ما كانت أمي تقول لي مثل هذا الكلام، وكنت أسخر كثيرًا من أحاديثها ومن الأوهام التي تحاول أن تفرسها في أفكار.

- هيَّ أمك كمان كانت بتكلمك زي أمي؟

- طبعًا، ما هي كل النسوان دايماً تتكلم. وعندما يحدث أي شيء في القرية تفسره بما تراه في الأحلام.

- وماذا نفعل، وخاصة بعد ما سمعت صوت البومة؟

- لا تفكر، إوعى تشغل بالك في أي حاجة ثانية. إنت واقف على الممكن، وأي غلطة بسيطة تروح في شربة ميه. ولا تبقى بومة تنفعلك ولا يبقى كلام أمك ينفعلك.

كنا نسير، وكان كل شيء في الطريق ساكنًا ما عدا الهمسات التي تدور بين العمال وهم يسيرون إلى المصنع. وكان كلام عبد العظيم المشجع يملأ ذهني، ويدفع عنه ما شابه من أوهام كادت أن تجعلني أهرب عائداً إلى القرية خوفاً من الخراب.

دخلت إلى الممكن فوجدت زميلي الذي حياني بابتسامة عريضة مشرقة،

وقال:

- الممكن أهه كويس، مفيش فيه حاجة.. أرجو أن تقضي يومك بسلام.. الواحد بيطلع من البيت الصبح وما ييقاش عارف حيرج ولا مش حيرج.. داخلها مفقود وخارجها مولود.. الواحد بيدخل وحاطط إيده على قلبه!

وحياني وخرج.

وكما هي العادة، وقفت على الممكن، وخلعت جلبابي، ووضعت العيش المربوط «بخلقة» قطعتها من جلباب أسود قديم بتاع أمي بدلًا من المنديل الذي ضاع مني تحت الممكن. ودار الممكن ووقفت بجواره شاعرًا بالاعتزاز، واثقًا من نفسي. وكان العمال المجاورون ينظرون إليّ معجبين ويتهامسون قائلين:

- شوف الولد واقف على الممكن ازاي، وشغله زي الطيارة، عمال يلف زي الجن... شوفوا، أصغر عيل، ومدور الممكن زي أي راجل.

كانوا ينظرون لي بعيونهم الحادة، وسمعتهم يقولون:

- دا مش بالطول، ولا بكبر السن، أهو عيل أهو، ومدور الممكن أحسن من الكبير.

وجاء الرؤساء أيضًا، ووقفوا يتفرجون وينظرون لي بإعجاب. وكلما سمعت هذا الكلام ازددت ثقة في نفسي، وإن كان ينتابني أحيانًا كثير من الخجل كلما رأيت العمال الكبار يتطلعون إليّ. وقلت في نفسي: «لماذا يتطلعون إليّ هكذا؟ هل لأنني صغير وأصبحت مثلهم، وهم كبار، أم لماذا؟». وكانت نظراتهم دافعًا لي على العمل.

وتطلعت حولي فوجدت عبد العظيم واقفًا يتأملني من بعيد وبنظر لي
باعتراز، فلوحت له بيدي دون أن أذهب إليه، اعتزازًا بنفسي، وإذا بي أشم
رائحة كريهة كادت أن تسد أنفاسي، وبدأت أبحث عن المصدر في كل مكان
خلف المكن، وإذا بي أجد الرائحة الكريهة مغطاة بالزغبار الناتج من الأقمشة
والذي يتخلف من النسيج، وكانت هذه الرائحة النتنة من تبول العمال وتبرزهم
بجوار المكن بسبب تعسف الرؤساء بالعمال وعدم إعطائهم التصاريح
للذهاب إلى الدورة. وتلفتت الوجوه حائرة: ماذا تفعل؟ هل يبلغون الرؤساء؟
وما قيمة التبليغ ما داموا هم السبب؟ إنهم لن يفعلوا شيئًا سوى توقيع
الغرامات.

وفجأة كان الرؤساء يعدون من طرفة إلى أخرى، وأيديهم على أنوفهم
يبحثون عن المصدر. وخفنا، نحن الأولاد، من أن يوقعوا علينا الغرامات،
وتركناهم يبحثون، فلم يفعلوا شيئًا سوى أنهم أتوا بعمال النظافة لكنس
العنبر ومسح الماكينات بمياه مخلوطة بالفنيك، وأمروهم برش جميع
الطرق بهذه المياه. واهتزت رؤوس العمال ساخرة، يتهامسون:

- شايفين، إيه يعني؟ همَّ عملوا إيه؟ رشوا الطرقة، والبلاوي زي ما هي تحت
المكن! همَّ فاكربن إن الرش ده حيقضي على الروايح؟ مفيش فايده ما دامت
البلاوي تحت المكن!

وآخر:

- يا عم سيبك، همَّ عملوا كده إلا علشان يحموا أنفسهم. أهم كمان شوية راح
يشموا الريحه تاني. هوّ الفنيك ده حيستنى على طول؟ أما نشوفهم رايعين
يعملوا إيه بعد كده، همَّ دول بيشوفوا؟ لازم يفتحوا الدورة وإلا العمال يموتوا!

ويرد آخر قائلاً:

- أمال همَّ حيقوا رؤساء على إيه؟ دي فرصة للإمارة! همَّ دول بيهتموا
بحاجة؟ همَّ يههم نعيش ولا نموت؟ ما هو كل يوم المكن بيموت واحد، حصل
إيه؟ حصل حاجة؟ حد يسأل؟ دي الفرخة لها سعر عندهم، أما العامل ملوش
أي سعر! الفرخة لما بتموت الناس بتزعل عليها، أما هنا فالعامل لما بيموت
مفيش حد بيسأل فيه، بيلفوه في خيشة ويطلعوه على برّه ومش عارفين
بيدفنوه فين! الفرخة لها ثمن عندهم، وعشان كده بيزعلوا عليها! لكن سيبك،
هيّ الدنيا حتستمر على كده، بكرة الناس اللي ماتوا أهاليهم تتقدم بشكاوى
ويطالبوا بالتعويض، بكرة المحامين تقف في المحكمة وتطلب معاقبة
المتهمين!

ويرد آخر قائلاً:

- هاها.. حلني.. موت يا حمار لحد ما يبجي لك العليق.. تكون الناس دي كلها
ماتت!

وهز رأسه وتركنا.

وتفرق الآخرون، وبدأت حركة في العنبر، حركة لم تكن متوقعة، عمال تجري
من هنا، وعمال تجري هناك في اتجاهات متعددة متلفتين حولهم. وجاءني عبد
العظيم قائلاً:

- اسمع، إوعى تسيب المكن، لاحسن الناس بتوع المحلة بيضربوا، بيحروا ورا
العمال بالخشب.

قلت:

- ليه؟

- هُوَ انت مش عارف ليه؟ خَلِّي بالك. إوعى تسبب الممكن دلوقت لاحسن
تيجي لك خبطة تموتك.

ووقفت أتطلع للوجه التي تعدو من أمامي، وشعرت برغبة شديدة لمعرفة
ماذا يحدث. وإذا بالواد الغريب أراه يعدو نحوي مسرعًا، ومن خلفه الواد
السيد الصفطي، وقالوا في نفس واحد:

- إنت واقف هنا وما شفتش حصل إيه؟ الدنيا مقلوبة! دول نازلين ضرب
بالخشب وبالأقلام، مش مخلين حد إلا ما يضربوه، ما بيضربوش العمال إلا
على قفاهم.

- ليه؟

- هُوَ حد عارف؟! إحنا جايين نقول لك. دا احنا لما شفناهم دورنا الجري
واستخبينا جنب الممكن.

- ما سمعتوش حاجة؟

- سمعنا إيه؟ سمعناهم وهمّ متلميين على واحد ونازلين فيه ضرب وعمالين
يقولوا له: «قول يا ابن الكلب إنك حتروح، لازم تسبب البلد دي.. غلितوا
المش.. علمناكم الشحاة حتسبقونا على الأبواب.. قول حتسبب البلد دي وَلَا
لأ». وما سابوهش إلا لما قال: «خلاص خلاص.. والله، والله العظيم حاروح، أنا
غريب مش من هنا.. حاروح». ولما سمعناه بيقول كده رقدنا جنب الممكن
خوفًا من أن يأتوا إلينا. ومسكوا واحد تاني وثالث، ولم يتركوا أحدًا إلا بعد أن
قال كالآخرين.. هذا ما رأيناه.

- طيب، واحنا حنعمل إيه يا ولاد؟

فرد الصفتي:

- حنعمل إيه؟ حنرّوح. لازم نرّوح. هوّ احنا أد دول؟! هوّ احنا مستغنيين عن نفسنا؟!

وقال الغريب:

- هوّ احنا مالنا؟ دا احنا صغيرين؟!

وقال الصفتي:

- همّ دول بيهمهم حاجة؟ همّ دول بيهمهم كبير ولا صغير؟ أنا حارّوح يا عم ومليش دعوة.

واستمرّا يتحدّثان وأنا صامت لا أتحدّث، وقلت في نفسي: «حنرّوح ونسيب البلد دي؟ وهوّ المرواح حيعمل إيه؟ ما هي كل الناس بتتخانق في البلد. واحنا كمان كنا بتتخانق مع العيال في البلد، وكانت أهالينا بتتخانق علشاننا». وتذكرت يوم ما كنت بالعب مع الأولاد عند الجامع، وجه الواد أحمد الشربيني وقال تعال لما أحش لك، والجدع يوقع الثاني، ولما رفضت هللت العيال ورفعوا إيد الواد أحمد الشربيني، رفعوها عاليًا ووقفوا يهللون. وكانت البنت رقية والبنت هانم والبنت صباح بنت عمي علي عجوة، كانوا كلهم واقفين بجواري يشجعونني قائلين:

- خش عليه، ما تخافش (لأنهم كانوا أصدقاء أختي) خش عليه يا واد ما تخافش احنا حنشجّعك.

ومع هذا كنت واقفًا صامتًا، والآخرين يهللون، والبنات تحاول أن تستفزني
قائلة:

- إنت خايف؟ إحنا حنقول لأختك إنك كنت واقف زي الغلبان.

وعندما قالوا ذلك خفت، خفت من أختي أحسن ترفض تجيب لي الحاجات
الحلوة من طنطا، فرفعت طرف جلابي، ووضعته في عبي، وكل ما في
جسدي ينتفض، وأسناني تصطك خوفًا من إن الواد يوقعني وأختي تعرف
وترفض توكلني. ووقفت البنات حولي، وقلت:

- خلاص، أنا رايح أخش لك، كل العيال تطلع برّه.

فالتفوا حولنا، وكل فريق وقف يشجع من يرغب في تشجيعه، ووقفت البنات
بجانبي تقول:

- خش عليه.. خش عليه جامد، اقصع ظهره، هاته الأرض.

فوقفت ورفعت يدي عاليًا وقلت:

- تعال يا واد.

ورفع هو أيضًا، والكل في انتظار إشارة من أحد الواقفين. وعندما بدأت
الإشارة، هجم كل منا على الآخر، ووقفت البنات تشجعني في حماس. وكانت
أصواتهن أعلى. كن يرددن:

- هاته الأرض يا واد، كعبله! فرهدته خلاص، أهو اتفرهد أهو. أهو خلاص وقع.

واستمرينا فترة، وكل منا يحاول أن يوقع الآخر، والعيال تهلل، والبنات تصرخ.
وأخيرًا جبت الواد في الأرض، وركبت فوقه على تهاليل العيال وزغاريد
البنات، وكانت لهذه التهاليل والزغاريد أثرها السيئ في نفس أحمد
الشربيني، فدور الجري بعيدًا وطاطى على حجر في الأرض، واقترب نحوي
وخبطني بالحجر في رأسي، فوقعت على الأرض ودمائي تسيل على وجهي.
وارتفع الصوت وصرخ الأطفال، وجروا لإبلاغ أمي، وجاء أخي، وجاءت أختي
جاءوا كلهم يجرون. وبدلًا من أن يمسح أخي الدم من على وجهي، جاء
وجذبني من بين أحضان البنات وضربني قائلاً:

- أنا رايج أموتك، إحنا ما احناش رايجين نأكلك إن ما كنتش تقوم دلوقت
وتسيح دمه، إنت ما تبقاش ابن محمد الخولي إن ما كنتش تسيح دمه، الدم
على وشك ده حيبقى عار في جيبك وفي جيب العيلة طول العمر! لا يزيل
الدم إلا الدم!

وكانت أمي تمسح الدم من على وجهي وتحتضني، بينما أخي يقول:

- قوم.. قوم امسك العصاية دي، امسك العصاية من هنا، اهجم عليه سيج
دمه!

وأمي تصرخ:

- خبر إيه يا وله، هوّ فيه حد عندنا بيتخانق؟ دا مفيش حد سمع لنا حس طول
العمر، وأبوك طول حياته ما حدش سمع حسه، إنت بتعرض أخوك؟! همّ
يعملوها العيال ويقعوا فيها الكبار؟

ولم يُجب أخي على كلام أمي، وشخط فيّ:

- اسمع كلامي أحسن ما أكلمكش، أنا ما ابقاش محمد الخولي إن ما كانش دا
يتعور دلوقت!

وذهبت نحو الولد وهو واقف وسط أبناء حتته، ورحت خابطه بالعصاية،
فارتمى على الأرض بين الحياة والموت. فصرخت أُمي:

- إلهي يبجي لك ويحط عليك، جايب لنا المصايب!

وجاء أبو الواد أحمد الشربيني وإخوته وهم يحملون العصي، وكادت أن تنشب
معركة لولا تدخل كبراء البلد والمشايخ والخفراء. وأُمي تبوس على دماغ أبو
الواد وهي تقول:

- معليهش، عشان خاطري، دول عيال زي بعضهم، إحنا لبعض، العيال مش
حيستغنوا عن بعض، إحنا اللي رايجين نقع فيها، أبوس جزمك، عشان
خاطري، عشان خاطر أبوه!

وكان لكلام أُمي أثره في نفوس الحاضرين، وعملوا مجلس صلح عند العمدة،
وحضر أخي وأبو الولد، وصفوا الموضوع. وجاء أخي وهو بيتسم وأخذني من
يدي وهو يقول:

- أهو كده، ما يمسخ الدم إلا الدم، أهو احنا دلوقت خلصنا تارنا.

وقالت أُمي شاتمة:

- اخرس! إنت حتودينا في داهية، إحنا طول عمرنا ما حدش سمع حسنا، جاي
انت على آخر الزمن تصور لنا قتيل؟ ويقولوا ابن محمد الخولي حيصور قتيل
ويسمع بينا الناس؟

فرد أخي:

- بس انتِ يا ولية بلاش كلام فارغ، إنتِ حتعلمي الواد من صغره الخوف؟ دا لو ما كانش ضربه وسيح دمه كانت العيال حتركبه ويصبح هفية قدامهم، أهو دلوقت مفيش حد حيقدر يكلمه، العصاية السابقة سابقة، البلد دي ما يعرفش يعيش فيها إلا القوي. الضعيف الناس بتركبه ويصبح هفية الأندال!

ووجه الكلام لي قائلاً:

- إوعى تسمع كلام الولاية دي! حتربي في قلبك الخوف من صغرك. إوعى تسمع كلامها. إللي يضربك اضربه، خلص تارك أول بأول، ما يهمكش. لازم تبان قدام العيال جدع.

تذكرت كلام أخي. ومر بخاطري في ثوان كلام أمي. وقلت في نفسي: «لو ما كنتش وقعت تحت تأثير كلام البنات وصياح الأطفال، ما كنتش اتعورت وشغلت البلد». وقلت في نفسي أيضاً: «ليه ما يكونش الناس دول اتجمعوا تحت تأثير البنات؟ يكونش البنات همّ اللي حرصوهم على ضربنا». وقلت: «طيب، همّ دول عيال صغيرين؟ دول رجالة، ومش معقول تكون البنات همّ اللي حرصوهم. أمال مين يا ترى هو اللي حرصوهم؟ يكونش بعض العمال غمزوا بعينهم لواحدة أو اتكلموا معاهم كلام مش كويس، ما هي البيوت مليانة نسوان ومليانة عمال. ما يكونش رجالة المحلة غيرانيين من العمال على نسوانهم، ما يكونش لاحظوا حاجة، وعشان كده بيضربوا العمال وعازين يطفشوهم من هنا، ولّا ليه بيضربوهم؟ وهل أسمع كلام الواد السيد الصفطي وأروّح؟ وماذا يقول عني أخي؟ ألا يعتبرني أخي جبانًا، وخفت، وتأثرت بكلام أمي؟ ألا يحزن أخي لو رأني هاربًا من المحلة خوفًا من

الضرب؟ وما قيمة كلامه لي إذن، وما قيمة تشجيعه لي عندما قال ما يمسح
الدم إلا الدم. وكيف أواجه أخي؟ لا أستطيع.. لا، لا، لا... لازم أستمر».

وزعقت بصوت عالٍ في وجه الواد السيد الصفطي قائلاً:

- لا، لا.. حنستنى هنا، حنستنى هنا.

قلت هذا بعد أن مر بخاطري كل تلك الصور. وتلفت حولي فرأيت الواد
الغريب يتهامس مع الولد السيد الصفطي في أمر الرجوع إلى البلد. كان
الفرع يملأهما، فقلت:

- إحنا لازم نستنى هنا، إحنا مش زي الناس اللي بتجري، إللي يجرى على
الناس يجرى علينا. إوعى يا واد يا غريب تسمع كلام الواد السيد الصفطي، دا
يظهر عليه خواف.

كان العمال يسيرون في العنبر كالنحل في الخلية، يتهامسون هنا وهناك، وكل
منهم يفكر فيما يفعل. كان العمال يعدون مسرعين وجاءني عبد العظيم
وهمس في أذني قائلاً:

- اسمع، المسألة يظهر عليها بقت جد. الدنيا مقلوبة. أهالي المحلة نازلين
على العمال ضرب، ما بيخلوش حد إلا لما يضربوه.

- ليه؟ ما تعرفش؟

- إنت فاكّر لما كنا ماشيين نتفرج على الفرّج، سمعتهم لما كانوا بيقلوا
أهالي المحلة بس، الشركاوية لأ، إللي غلوا علينا المش لأ، الغرب لأ؟ إنت
فاكّر لما داسوا على رجلك؟ أهو كانوا يومها عايزين يجروا الشكل، ولكن إحنا

قلنا اقصري الشري يا عورة. أهم بدأوا أهم يضربوا العمال، عايزين يطفشونا من هنا.

- وحنعمل إيه؟

- نعمل إيه؟ حنستنى. شايف العنبر كله عامل إيه؟ عَمَّال بيشغي. كل العمال تتساءل عَمَّ يفعلون. كل جماعة من بلد واحدة بيتجمعوا مع بعض خلف الممكن، وكل منهم يسأل الآخرين:

«ما سمعتش بيقلوا إيه؟».

«سمعت بعضهم بيتكلم وأجسامهم بتنتفض. منهم من يقول: لازم نرَّوِّح، وآخر يقول: كل واحد يكلم ولاد بلده ونستنى مع بعض وتتماسك، هَوَّ كل واحد متعلِّق من عرقوبه ولَّا إيه؟ هو مفيش حد قلبه على الثاني؟ ما احنا في مصيبة واحدة، لازم ندافع عن أكل عيشنا!».

- هَمَّ أهالي المحلة حيقدروا على كل العمال دول؟

- لا، ما يقدروش لو الناس وقفت مع بعضها وتماسكت.

- وازاي التماسك؟

- لو كل عمال من بلد واحدة أو وردية واحدة استطاعوا أن يتجمعوا مع بعض يقدروا في الحالة دي يردوا اللي يعتدي عليهم ويحموا بعض. هي دي الوسيلة الوحيدة، زي ما كان بيحصل في البلد. لما كانت عائلة تتخانق مع عائلة أخرى، فالعائلة القوية هي اللي كانت بتنتصر ويتعمل لها ألف حساب.

- دا كان في البلد، إنما هنا يبقى ازاي؟

- المصلحة تجمع الناس. كل واحد ما جاش هنا إلا عشان أكل العيش. كل واحد يهمه إنه يستنى هنا ويشتغل عشان يساعد إخواته، دا احنا هنا ما صدقنا لقينا عمل ثابت ومستمر. هوّ الواحد منا حيشتغل فين لما يروّح؟ حنرجع تاني نشتغل تملية عند العمدة ويتحكم فينا، يدينا قرش وباخد عشرة؟ ولاّ حنروح نشتغل في التراحيل، نشتغل يوم ونبتلّ عشرة؟ الواحد ما صدق لقي شغلانة زي دي، يبقى ولاد الكلب دول حيطفشونا، مش معقول، وعشان كده لازم نستنى. وانا رايح أتكلم مع كل الناس اللي أنا عارفهم من بلدنا أو من البلاد المجاورة. حاتكلم معاهم عشان ما حدش يفكر في المرواح، ونستنى هنا يد واحدة.

قلت:

- وهوّ انتم حتعملوا إيه باليد الواحدة؟ واليد الواحدة دي إذا كان كل واحد منكم ساكن في حي وبيوت متباعدة، وحتى في العمل متفرقين، كل واحد على مكنة وفي عنابر مختلفة. فكيف يمكن مواجهة أهالي المحلة؟! - إذا كان أهالي المحلة تجمعهم الرغبة في تطفيشنا، فاحنا كمان يجمعنا العمل، يجمعنا أكل العيش، وما اعتقدش إن فيه واحد من بلدنا يرفض الفكرة دي.. وانت حتعمل إيه؟

- أنا مش حاروّح، مش حاترك العمل، رغم إن الواد الغريب والواد السيد الصفطي قالوا لازم نروّح، وانا قلت لهم لأ، فسمعوا كلامي.

فشد عبد العظيم على يدي قائلاً:

- أهو كده، أهو أنت واحد بلدياتنا ورفضت ترؤح، فلأزم ولاد بلدنا كلهم يكونوا كده. إحنا مش رايحين نتخانق مع حد. إحنا حنأف عن نفسنا في حالة ما حد يعتدي علينا. أنا حتكلم مع كل واحد حيقابلني.

ولم تمر لحظة بعد أن تركني، وإذا بعامل من عمال النسيج يعدو مسرعًا في الطرقات، وجليابه قد تمزق ووجهه الأبيض النحيف قد تورم من كثرة اللكمات والدماء تنزف من فمه. ووقف بجوار أحد العمال وهو غير مطمئن، كثير التطلع خلفه وحواليه مما لفت أنظار الكثيرين. ووقف كثير من العمال ينظرون إليه بوجه شاحبة ونظرات حادة غاضبة. لم يستمروا في وقفهم طويلًا، فسرعان ما تسرب واحد وراء الآخر نحوه متطلعين خلفهم خوفًا من الرؤساء، والتفوا حوله متسائلين. واندفعت نحوه أنا الآخر لأنني لم أتمالك نفسي، وإذا بي أسمع يقول:

- ضربوني، اتلموا عليّ ناس من أهل المحلة، ناس كثير، اتحاوطوني، وكلما ضربني واحد منهم بالقلم واتطلعت له ناولني الآخر على خلقتي، ووقفت تايه بينهم من كثرة الضرب. ولم يكتفوا بضربي، بل جروني من جلايتي وقطعوها، ولكمني واحد منهم في أسناني وعورها!

فسأله أحد العمال:

- وانت عملت إيه؟ سكت لهم؟ استهفوك؟ ليه ما حطتش صباعك في عين واحد منهم؟ لو كنت عملت كده ما كانوش اتجروا وعملوا فيك كل ده!

فرد المضروب قائلاً:

- خدوني على خيانة. هُوَ انا كنت عارف انهم حيتلموا عليّ ويضربوني؟ دا انا ماشي في أمانة الله ورايح أغير لوحة المواسير، مواسير اللحمه الفارغة، وأجيب لوحة مليانة من عنبر اللحمه، ماشي في أمانة الله اتحاوطوني زي العجر. وقال أحدهم: «أهو حته فلاح.. أهو قفاه مترين.. تعالوا لما نصلحه له» وبعدها ما دريتش أنا فين. وهو عود في حزمة يا جماعة رايح يعمل إيه؟ هَمَّ كتار وانا وحداني! ما بقيتش لاحق ألاقي الضرب منين ولَّا منين!

فقلت:

- يا نهار أسود! فين أخويا محمد وهو كان طحنهم بالعصاية.

فرد كل الواقفين في نفس واحد قائلين:

- فين أخوك ده؟

قلت:

- في البلد.. كفر الحما.

فهبوا رؤوسهم، وقال أحدهم:

- في البلد؟ دا احنا افتكرنا إنه هنا، معانا في المصنع كان يبقى جنبنا في

المصيبة السوداء دي!

قلت:

- ليه، إنتم مش معاكم عصي؟ كل واحد يجيب عصاته معاه!

فقال آخر:

- هُوّ الواحد راح يشتغل والا يجيب العصاية معاه؟ إحنا حنلاقيها منين ولاء منين؟
مش كفاية الواحد ماشي وحاطط دماغه في الأرض؟ مش كفاية ضرب
الرؤساء فينا؟ قلنا الرؤساء وزى بعضه، والخفر وزى بعضه، عشان خاطر أكل
العيش قلنا حنستحمل عشان ما يرفدوناش! وإيه بقه حكاية أهل المحلة
دول؟ بيضربونا ليه؟ عملنا إيه معاهم؟ بيقولوا إن احنا غلينا عليهم المش،
وغلينا عليهم السكن. إحنا بنشتغل عمال.. سكن إيه اللي احنا غليناها؟ هُوّ احنا
أصحاب بيوت؟ همّ يسيبوا الحمار ويتشطروا على البردعة؟ ما يروحوش ليه
على الناس اللي بيغلوا عليهم السكن؟

فرد آخر قائلاً:

- دي البلد دي بتكره الغريب، وعشان كده عايزين يطفشونا وهمّ يتمتعوا
بالخير.

وآخر:

- خير إيه؟ هُوّ فيه خير والدنيا زي ما انت شايفها أهى، لا خير ولا حاجة!

وآخر:

- هُوّ احنا بنروح على طبلية حد فيهم وناكل عليها؟ دا كل واحد منا بياكل من
قفته، وساكن في أوضة وييدفع لها فلوس، هُوّ وكل العمال اللي ساكنين
معاه.. دول ناس يظهر ما عندهمش أصل!

وآخر:

- هُوَ احنا حنرّوح ليه ويقولوا علينا عواطلية؟! إحنا حنستنى هنا عشان ناكل من عرق جبيننا. المسألة مسألة شغل.. دفاع عن لقمة العيش. هيّ الدنيا سابت؟ ما بقاش إلا دول حيطفشونا. خلاص زي ما همّ بيعملوا رُباطيات نعمل احنا كمان رُباطيات. كل واحد يجيب معاه عصاته تحت باطه!

وآخر:

- واحنا حنجيب العصا ازاي؟ الواحد منا حيمشى بيها في كل حته؟ دي شغلانة إيه اللي زي الزفت دي؟ الرؤساء لما يشوفونا شايلين العصي حيسيونا؟ ما هم حىخدوها منا ويضربونا!

وآخر:

- إنت عايز إيه؟ هُوَ احنا اللي بنتخانق؟ إحنا بندافع عن نفسنا، ولازم نجيب العصي ونخبها.. نخبها في أي حته. همّ عايزينا نرّوح واحنا عايزين نستنى.. هي دي القضية!

واستمر الحديث إلى أن جاء أحد الرؤساء وشخط فينا وتفرق الجميع دون أن يصل العمال إلى رأي.

وينتهي اليوم. وجاءنا عبد العظيم يجري كما جاء الواد الغريب والواد السيد الصفتي.

وقال عبد العظيم:

- أنا جيت علشان نمشي مع بعض. أنا حاوصلكم لحد البيت أحسن حد يستناكم في السكة ويضربكم.

فرد الواد الغريب قائلاً:

- وانت مين حيقى يوصلك؟

لم يجب عبد العظيم، فقلت:

- تبقى تبات معانا بقه.

فقال:

- هيَّ المسألة مسألة ليلة، دي يظهر حتبقى على طول!

العراك

خرجنا من العنبر. وبينما نحن نسير في الطريق سمعت جموع العمال تتكلم.
لا حديث لهم إلا ما حدث: ضرب أهالي المحلة للعمال. أحاديث مختلفة
وشتى: - دول ناس قلالات الأصل. هُوّ فيه ناس يتلموا على واحد ويضربوه؟
هيّ دي شهامة؟ يضربوا الناس على خوانة؟ يتلموا على واحد.. هُوّ عود في
حزمة يعمل إيه بس؟

وآخر يقول:

- بقى المصنع ده لو كان في بلدنا كنا عملنا فيهم كده؟ ده الغريب بيكرم لاجل
النبي. دي البلد دي ما فيهاش خير.. دي البلد اللي ما تكرمش الغريب تستاهل
الحرق.

ورنت هذه الكلمة في أذني، وتذكرت ما سمعته في الصباح وما قالته لي
أمي. تذكرت زعيق البومة وقلت لعبد العظيم: - جالك كلامي؟ الكلام اللي
قلته لك الصبح؟ مش قلت لك إن الدنيا راح تحصل فيها حاجة.. هي البومة
رايحة تزعق على بلد وتفضل عمرانة؟ أهم أهالي المحلة أهم بيضربوا العمال
وحيموتوهم. جالك كلامي بقه؟ مين بقى اللي كلامه صح: أنا ولا انت؟ عرفت
إن أمي كان كلامها مطبوط؟!

وابتسم قائلاً:

- دي خناقة. وكل الناس بتتخانق، حتى المصارين اللي في البطن بتتخانق،
دول بيضربونا عشان نسيب البلد. همّ فاكرين إن احنا اللي غلينا عليهم كل
حاجة. ما هماش عارفين إننا عايشين في نفس البؤس اللي همّ عايشين فيه.

دائمًا يقولوا إن احنا بنجيب الزوادة من بلدنا. ما هماش عارفين إن الرغيفين
اللي بنجيبهم من البلد أهالينا طفحانة الدم فيهم، في الغيط والشمس طول
النهار، ولولا احنا النهارده بنساعدهم بدفع القرشين اللي احنا بنقبضهم ما
كانش حتى شوية الحب اللي بيطلعوا من الأرض دخلوا البيت، كان انحجز
عليهم. هُوّ صاحب الأرض بيرضى يخليهم يدخلوا حبة الدرة إلا لو خد كل
الفلوس!

الحكاية مش حكاية بومة تزق ولا حاجة.

كنا قد وصلنا إلى البوابة الخارجية للمصنع. فوقفت محاولاً أن أمنع عبد
العظيم من أن يسير معنا في الطريق قائلاً له: - إنت تعبان، ولازم ترّوح
عشان ترتاح. كفاية اتناشر ساعة الواحد واقفهم على رجليه، اتناشر ساعة
يهدوا الحيل.

ولكن عبد العظيم أصر على ألا يذهب إلا بعد أن يطمئن علينا. وأخيرًا تركناه
وسرنا، وإذا بنا نجد العمال على طول الطريق تجري نحونا، كل واحد واضعًا
طرف جلابه بين أسنانه. الكل يجري وينكفي على غير هدى. منهم من يقول:
- يا خلق هوه، خلاص، خدونا على خوانة!

وآخرون يقولون:

- وقف يا جدع، ما تخافش، يا نهار أسود، حيقولوا علينا إيه؟ حيقولوا علينا
دخلونا الشقوق؟ حيقولوا أهل المحلة طفشوا العمال، كل العمال.. يا دي
الفضيحة! هُوّ خلاص مفيش رجالة؟

أصوات وصيحات.. عمال تجري من هنا وعمال تجري من هناك قائلين: -
مفيش عصي.. هم مستعدين، أخذونا على خوانة!

وأخذني عبد العظيم بجوار أحد المنازل، ووقفنا ملتصقين بالحائط وقال: -
اسمع، خليك هنا إوعى تنتقل هات المقص اللي معاك هات، مفيش فايده،
لازم أموت واحد.

- وحموته ازاي؟

- الواحد قرف! كل يوم نسمع شتاييم! كل يوم يضربوا الناس! هو مش كفاية
الذل اللي احنا فيه؟ هو احنا حنفضل ساكتين لإمتى؟ هات. الواحد يخبط له
واحد بالمقص خبطة واحدة يجيب عمره. دول ناس أصلهم يخافوا ما
يختشوش. إنت شايف الناس دول اللي عمّالين يجروا، دول لو شافوا واحد
هجم على أهالي المحلة حيبطلوا جري. هات أنا حاعمل الحكاية دي.

- ولما يقبضوا عليك وبحبسوك؟

- وإيه اللي حيبخلهم يمسكوني، الدنيا ضلّمة، الواحد يقدر يضرب ويستخبي.
إنت شايف الناس عاملة ازاي؟ الناس هايصة. الشوارع مليانة والكل بيجري.

- وليه بيجروا؟

- بيجروا عشان كل واحد لوحده. ما هي لا إيد تسقف لوحديها، ولا وحداني
يكيد رجال. كل واحد ما بيفكرش إلا في أكل عيشه، وفي غرامات الرؤساء
وإهاناتهم، وفي ساعات العمل الطويلة. ما حدش قدر إن أهالي المحلة هم
راخرين حيكونوا على العمال. كنا فاكرين إن الخناقات اللي في العنابر
حتعدي بين الإخوة، ما كناش نظن إن حقد أهالي المحلة حيوصل لهذا الحد..

يوصل لحد إنهم يعملوا عصابات ضدنا. إنت شايف، دول شايلين العصي
والسكاكين.. دا شغل عصابات. دول بينتظرونا في الظلام زي اللصوص.. دول
بالتأكيد على اتفاق سابق.

فرد الواد السيد الصفطي:

- واحنا مالنا؟ إحنا زينا زي الخلق اللي بتجري دي. إحنا حنجري زيهم. إحنا ليه
نودي نفسنا في داهية؟!

فرد عبد العظيم قائلاً:

- داهية إيه يا عم؟ هُوَ احنا حنقعد نتكلم وهمّ نازلين ضرب في العمال؟ لو كان
كل واحد حيقول كده يبقى كل الناس حتروّح البلاد تاني.. لازم حد يتقدم.

وأخيرًا، خطف المقص من يدي، ودور الجري وهو يقول: - إوعوا تتعتعوا من
الحتة دي على بال ما آجي، أنا حاجي لكم.

ولكني لم أبال بهذا الكلام، فجريت خلفه مسرعًا أنا والواد الغريب والواد
السيد الصفطي لنرى ماذا سيفعل. كان يجري وهو يصيح: - ما تخافش يا واد..
ما تجريش يا واد.. خليك شجاع يا واد!

كان أهالي المحلة واقفين تحت الكوبري السفلي قاطعين الطريق، ويضربون
العمال كالمجانين.. وعبد العظيم يحمس الناس ويدعوهم إلى عدم الجري
وَألا يخافوا، وكان بعضهم يقول: - هُوَ احنا معانا إيه نهجم بيه؟ هُوَ احنا حنرمي
نفسنا في التهلكة؟

وعبد العظيم يجر على أسنانه وهو يقول:

- تهلكة إيه يا جُبنا؟ هَوّ فيه ألّعن من كده تهلكة؟ جريكم ده مخليهم يطمعوا
فينا، حيليهم يطفشوا الناس من البلد.

ووقف البعض يسمع لما يقول وقال أحدهم:

- قرب انت قرب ورينا شطارتك.. امشي انت واحنا نمشي وراك.. هَوّ بس
كلام؟ قرب انت إذا كنت راجل!

فرد قائلاً:

- أهه، قرب انت وهَوّ، تعالوا ورايا!

وتشجع آخرون، ورد آخر من الخلف قائلاً:

- ورينا شهامتك، وارفع راسنا. أهو دا الوقت اللي تبان فيه الرجالة.

وتسلل العمال واحدًا بعد واحد، وتساندوا على حائط وابور الحليج. ووقفنا
بالقرب منهم متطلعين. وتقدم من عبد العظيم واحد اسمه علي، وقال لعبد
العظيم: - إنت معاك إيه؟

- أنا معايا مقص.

- طيب ما تجيبه.

- هَوّ انا وانت إيه؟

- اسمع، ناولني المقص وانا أهجم بيه عليهم الأول، وانت تقف ورايا.

فرد عبد العظيم:

- لا أنا حاهجم، وانت تكون ورايا، وحاول تخطف عصا من اللي معاهم.
وهجم عبد العظيم، ودوّر الضرب من الخلف وهو يزعق عاليًا: - اضرب يا واد،
اضرب في أي مكان.

لم يكن أهالي المحلة قد أعدوا العُدّة للمفاجأة، خاصة بعد أن بدأوا بالهجوم
على العمال وسيطروا على الموقف وأخذتهم نشوة النصر الأولى، وجري
العمال أمامهم جعلهم لا يباليون، وبصوا لقيوا الهجوم من الخلف، وسقط
أحدهم والدماء تنزف منه. وكان اسم علي يتردد أحيانًا على ألسنة الواقفين: -
أهو كده يا شيخ علي.. أهو كده...

وآخرون:

- أهو كده يا عبد العظيم.. أهو كده يا ولاد رفعتم راسنا.. اهجم يا واد انت وهوّ
بقه!

وهجم العمال الواقفون وتوقف الآخرون عن الجري. وعاد العمال الذين كانوا
يختبئون خلف الجدران. وجرى أهالي المحلة وآلاف العمال خلفهم مهلين
فرحين. واستطاع عبد العظيم وغيره ممن هجموا أن ينتزعوا بعض الكراييج
والعصي من أياديهم. واستمر الجري خلفهم، ولم يتوقف إلا عند مبنى
البوسطة بالقرب من محطة السكة الحديد، وهو ميدان مضاء بعدد من
لمبات الكهرباء. ووقف الجميع هناك. وفي الوسط وقف عبد العظيم ويده
العصا التي انتزعها، وجواره علي، ومن خلفهما أعداد غفيرة من العمال.
واستطعت في الضوء الساطع أن أرى عبد العظيم وأتبينه على حقيقته. لم
يكن هو الإنسان الضحوك المبتسم الذي رأيته في عنبر النسيج، يوم أن
وقفت بجواره على الممكن في بداية التعيين، بل هو عبد العظيم فارع الطول،

قوي البنية، ذو العينين السوداوين الحادتين والنظرات الصارمة. كان واقفًا يلعب بالعصا كالمتمرن على استعمالها، وازداد وجهه شحوبًا وسمازًا.. وجهه الممتلئ بالدم قد انقلب على اصفرار وشحوب.. وعيناه الحادتان يتطاير منهما الشرر، واختفت البسمات من فوق الشفتين الغليظتين. كان واقفًا يشمر عن ساعدين قويين، وهو يتلفت يمينًا ويسارًا كالمتخوف أن يخونه أحد من الخلف. وبقي صامتًا على غير عادته. أما علي الذي تردد اسمه فجأة من عدد من العمال، والذي لازم عبد العظيم في هجومه، فكان شابًا لا يزيد عمره عن الخامسة والعشرين، أبيض البشرة، ذا عينين زرقاوين، يميل إلى السمنة، طويل القامة، يميل إلى الانحناء قليلًا، هادئًا لا يتكلم كثيرًا. وقد التف حوله عدد من العمال ممن يعرفونه. وفي وقفته لم تفارق عيناه عبد العظيم. وأخيرًا تقدم على مهل مُتجهًا نحو عبد العظيم، ومد يده مصافحًا، وقال: - إنت

منين؟

- أنا من الجعفرية.

- ساكن فين؟

- في عزبة أبو جحشة.

فقال علي:

- إنت شجاع، ولولاك ما كنا تقدمنا خطوة. لم يسبق لي شرف المعرفة بك.

محسوبك من المنوفية.

- وانت ساكن فين؟

- أنا ساكن في نفس العزبة اللي ساكن فيها، وفي نفس المصنع اللي بتعمل فيه. إنت من مديرية وأنا من مديرية، ودا ما منعش إن احنا نلتقي. أنا عايزك تيجي معايا الليلة عشان نقعد وناكل عيش وملح مع بعض. ما يخونش أكل العيش إلا ولاد الحرام.

سكت عبد العظيم ولم يتكلم. ونظر حوله فوجدني واقفًا بالقرب منه، فتقدم نحوي وأعطاني المقص الذي أخذه مني، والتفت نحو علي قائلاً: - ما أقدرش آجي معاك الليلة لأنني حاوصل الجماعة دول لسكنهم دول من بلدي.

فتمسك علي بأن نذهب جميعًا معه إلى حجرته، قائلاً: - إذا كانوا من بلدك لازم ييجوا معاك. تعال عشان نتكلم مع بعض، ما حدش عارف إيه اللي حيحصل.

وأخيرًا، قبل عبد العظيم بعد إلحاح طويل، وذهبنا معه.

إحنا مش جايين نعمل عصابات

ونحن في الطريق إلى العزبة قال علي:

- اسمعوا يا جماعة، إحنا نمشي في الحواري والعطف المضلمة عشان ما حدش يشوفنا من أهالي المحلة وياخدونا على خوانة.

فرد عبد العظيم قائلاً:

- ما هيّ دي المصيبة، ما همّ ما بيستخبوش إلا في الظلام ويأخذوا الناس على خوانة. يلاً نمشي في النور أحسن عشان نبقى نشوف اللي قدامنا.

فقال علي:

- لا، إحنا لسه ما استعدينا، وهمّ مستعدين، يقدرُوا يغلبونا ويبقى ما عملناش حاجة. يلاً نمشي كل ثلاثة مع بعض، واحد ورا الثاني، وبلاش كلام دلوقت. همّ كل حته عارفينها. يلاً نمشي في العطف والحواري.

سرنا، وكل منا ممسك بيد زميله، وشعرت برعشة خفيفة تنبعث من أصابع عبد العظيم بين حين وآخر، وسار بجواري الواد الغريب والواد السيد الصفطي. وتقدمنا علي، والتف حولنا آخرون. كنا نتلفت بين الحين والآخر خوفاً من أن يعتدي علينا أحد من الخلف. كانت الحواري والعطف معتمة، والمنازل التي نسير بجوارها لا ينبعث منها أي ضوء، وأكوام الزباله والرائحة النتنة تزكم الأنوف. وكانت المياه تملأ الحواري والعطف.. المياه التي يقذف بها أصحاب المنازل التي لم تصل إليها المجاري.

ووقف علي ينظر كالخائف وكأنه يتوقع أن يخرج علينا أحد من هذه المنازل
ويعتدي علينا. وتوقف عن المسير عندما أفرغت صفيحة مليئة بالمياه من
فوق أحد الأسطح فأغرقت كل ملابسه. ووقفنا ننظر إلى سطح المنزل الذي
أفرغت منه الصفيحة فلم نتبين شيئًا. وبعد قليل رأينا امرأة تنظر من الشباك
وتعود مسرعة.

وفي إحدى العطف المظلمة الحالكة السواد، وقف علي أمام أحد المنازل،
وفي العطفة وقف كل منا يحاول أن يتلمس زميله بيديه ليطمئن نفسه. وبعد
قليل، دخلنا منزلًا به حجرات كثيرة، وكان مدخل المنزل مظلمًا ما عدا ضوء
خافت ينبعث من الثقوب. ودخلنا حجرة على جدرانها نشع واضح، وأرضيتها
رطبة مع أن الجو كان حارًا. وبجوار الحائط المواجه للباب كانت القفف
مرصصة، قفة بجانب قفة، مكتوب على كل منها اسم صاحبها. وفي الجانب
الآخر من الحجرة حصيرة قش مفروشة وعليها بعض العمال النائمين
بشعورهم التي لم تغسل بعد من الزغبار، وملابسهم الملطخة ببقع كثيرة من
زيوت الممكن، ومنهم من كان نائمًا بحذائه لم يخلعه من شدة التعب وقسوة
يوم العمل وساعاته الطويلة المرهقة.

جلسنا بجوارهم بهدوء. وكانت الحجرة مضاعة بلمبة صفيح ينبعث منها دخان
كاد أن يكتم أنفاسنا.. ولم يكن بالحجرة منافذ سوى الباب. ولم تمر لحظة
على جلوسنا بالحجرة إلا وقد شعرنا بالغرف المجاورة تفتح أبوابها بهدوء
ويخرج منها بعض العمال سائرين على أطراف أصابعهم خوفًا من إحداث
ضجيج يصحي النائمين. وفي لمح البصر امتلأت الحجرة بالعمال الذين جاءوا
من الحجرات المجاورة ومن البيوت القريبة من المنزل، وصحا بعض
النائمين، ودار الحديث.

قال أحد الحاضرين، وهو شاب في نحو الثامنة عشرة من عمره:

- إنتم جيتوا ازاي؟ جيتوا إمتى؟ هوّ احنا إمتى دلوقت؟ هوّ احنا قرب الصبح؟

فرد آخر:

- ما بينامش الليل إلا أبو قلب خالي، أهه، آدي واحد من الآلاف اللي في المصنع، أول ما جه راح نايم على طول وما شافش الدنيا حصل فيها إيه!

وآخر:

- هوّ بينجم، هوّ كل واحد لازم يشوف ولازم يعرف، دا الواحد يا دوب بييجي ويتشندل ينام من القرف اللي هوّ شايفه طول النهار!

وجاء علي، وجلس في المكان المقابل لعبد العظيم، وقال بعد أن حيا كل الحاضرين:

- إحنا دلوقت اتعرفنا، وطبعًا همّ سمعوا أسماءنا وزمانهم بيستحلفوا لنا، ولا يجب أن نتراجع. لو تراجعنا حيستهيّفونا!

فقاطعه آخر قائلاً:

- ما يجيبها إلا رجالها يا شيخ علي. هوّ انت راح تبقى معنا وحننضام؟ إحنا معاك واللي تقول عليه ماشي. إحنا من إيدك دي لإيدك دي. إنت رفعت رأس المنوفية بوقوفك في وش الأندال دول اللي عايزين يطفشونا ويقطعوا عيشنا. هوّ انت ما شفتش العمال وهي بتجري؟ كانوا بيجروا قدامهم زي الغنم، ودا اللي طمعهم فينا، ولولا واحد زبك كان موجود والجدع اللي جنبك ده اللي هوّ عبد العظيم، كانوا دخلونا الشقوق، الله يحميكم... رفعتوا رأسنا

بهجومكم عليهم اللي خلاهم جريوا قدامنا، وشجع العمال وخلاهم يجروا وراهم. إحنا حنمشي وراك من دلوقت، إوعى تمشي لوحدك. إحنا نلم بعض في الشغل ونمشي مع بعض، وكل واحد يلم ولاد بلده، وما ينفعش إلا كده. وبقى نجيب العصي وبانا ونخليها مع العمال اللي جاية الوردية الثانية، وبستنوا بيها ونأخذها منهم واحنا طالعين. إيه رأيك في الفكرة دي يا سي عبد العظيم؟

فرد عبد العظيم قائلاً:

- هُوَ إحنا حنعمل زيهم؟ مش معقول! حنشيل عصي وسكاكين معانا؟ إحنا حنعمل عصابات زي اللي بيطلعوا علينا في الطرق؟ إحنا نمشي زي ما إحنا ماشيين، ولما يحصل ضرب ببقى نضرب. إحنا مش جايين نعمل عصابات. إحنا جايين ناكل عيش ولازم نحافظ عليه. هُوَ بيعمل كده إلا الناس قلالات الأصل؟! لازم نوريهم إن إحنا غيرهم. هم فاكرين إن إحنا اللي غلينا عليهم الحاجة. إحنا في الهم زيهم، وكلنا بلد واحدة ومصلحة واحدة ودي مسألة بُكرة تبان.

فرد آخر قائلاً:

- اسمع يا جدع انت وهُو، ما حدش يتكلم. يظهر فيه حد واقف على الباب اللي جنب الشباك، استنوا لما أطلع أشوف.

ولما رجع قال:

- اتكلموا بشويش.

وآخر:

- إللي بيزمر ما يخيش دقنه.

وثالث:

- إذا بُليتُم فاستتروا.

وأخيرًا، أحضر علي أكلاً يتكون من العيش والخيار المخلل وبعض قطع الجبنة القديمة، وقال وهو يقدم الأكل:

- المجية دي ما تتحسبش، وإن شاء الله تتعوض.

وأكلنا كثيرًا من شدة الجوع الذي كاد أن يفتك بأحشائنا. وبعد أن انتهينا من الأكل، قال عبد العظيم:

- يلاً بينا، أهو كل واحد عرف ازاي يقدر يدافع عن نفسه. كل واحد يلم ولاد بلده معاه. هُوّ ده اللي حيلينا نقف قدام أهالي المحلة نحافظ على أكل عيشنا. إحنا ما بنعملش حاجة وحشة وربنا بيبارك لكل واحد يهتم بأكل عيشه. وما دام الواحد مراعي أكل عيشه ربنا حيعينه. واحنا لا عايزين حد يعتدي علينا ولا نعتدي على حد.

وحاول علي أن يأتي باللمبة ليضيء لنا الطريق للخروج من المنزل ولكننا رفضنا. وقال عبد العظيم:

- هُوّ انت حتعمل زي اللي بيقول: ما شافوهمش بيسرقوا شافوهم بيتحاسبوا. إحنا عايزين نمشي واحد ورا الثاني ونطلع زي ما دخلنا من غير ما حد يشوفنا. هُوّ انتم ما سمعتوش المثل اللي بيقول: الحيطان لها ودان. يمكن يكون حد سمعنا أو شافنا واحنا جاينين وپروح يقول لهم يقوموا بيجوا يستنونا. أحسن

نطلع في الضلمة عشان ما حدش يعرف إحنا طالعين من أنهو بيت. لازم
نكون حذرين.

كان يتكلم بهدوء كعاداته. واستمر يتكلم وعلي يرد عليه، ولم نحتمل نحن كثرة
الكلام، ونحن وقوف، فجلسنا القرفصاء على الأرض، ووضع كل منا رأسه بين
راحتيه.. ورحنا في النعاس.

أرملة من المحلة

أيقظني عبد العظيم بعد جهد شاق. وعندما خرجنا من الحجرة واتجهنا إلى خارج المنزل رأينا امرأة بدينة واقفة بجوار إحدى الغرف ويدها شعلة مضاءة، وأذرعها نصف عارية، وعلى جسمها فستان أبيض خفيف شفاف واصل يا دوب إلى الركبتين، يكشف عن قميص أخضر محلى بالدانتلا حول الصدر، وصدرها وما حوله شبه عارٍ تمامًا، ونهودها الكبيرة التي تفوق أفحل الرمان مرفوعة بسوتيان له أشرطة حمراء.. كانت بيضاء، فارعة الطول، ذات عينين زرقاوين وشعر أسمر طويل مضفر يميل إلى الاصفرار، تحيط به رأسها في شكل مبدع. كانت واقفة ويدها شعلة مضاءة، وهي تسند نفسها باليد الأخرى إلى الحائط، فبان جسمها وصدرها أكثر جمالاً.

وظننت في الحال أنني لست في بيت معمول من الصاج في عزبة أبو جحشة، بل في مكان آخر.. مكان ذهبت إليه منذ أيام أنا وعبد العظيم وشحات. كانت جميلة سبحان من صوّر.. وشعرت بشيء ما في جسدي ينتفض، وتقدمت خطوة لأقترب منها. وكانت هذه أول مرة في حياتي أقترب من امرأة في جراحة لم أعهد لها في نفسي من قبل. ووقفت أحرق فيها محاولاً أن أنظر إلى كل ما بجسدها.. وشعرت برغبة ملحة في أن أقف بجوارها لأتبين ما بداخل الجسد. وإذا بالمرأة تتكلم بصوت ناعم قائلة، وذراعها مسنودة إلى الحائط:

- إيه يا حضرات؟ إيه يا سي علي؟ إيه اللي مسهركم لحد دلوقت؟ كنتم قاعدين تتكلموا في إيه؟! هيّ وكالة من غير بواب؟ خبر إيه يا سي علي؟! هوّ انتو عاوزين تهدوه لي ولأ إيه؟ أنا ما بنيتوش إلا أما بعث كل اللي كان حيلتي.. حضرتك عايز تهدولي.. ناس طالعة وناس داخلة، هو انتم إيه، ما بتتعدوش..

ما لهم بقه أهالي المحلة؟ عملوا فيكم إيه؟ قاعدين من أول الليل تتكلموا على أهالي المحلة.. مالهم؟ مش لموكم.. جايين لمامة من كل بلد ولميناكم، قاعدين تقطعوا في جدرهم ليه من أول الليل؟ هو ازرع ابن آدم يقلعك؟ عايزين إيه من أهل المحلة؟ عايزين تأخذوا بيوتهم؟ لأ، كله إلا كده.. كله كوم وده كوم. اتفضل وشوف لك حته تانية. أنا مش عايزة البيت بتاعي يبقى زي الوكالة، كل واحد يجرجر له شلة وداخل طالع بيها، أنا عايزة البيت بتاعي ما يخشهبوش إلا الناس اللي ساكنين فيه، البيت بتاعي ما يستحملش، أنا باربي ولايا.. كوم لحم، أنا عايزة الناس اللي في بيتي يكونوا ناس أمة.. إحنا ملناش غير البيت ده!

وعندما قالت المرأة كلمة «كوم لحم» تحول نظري عن كل ما بالجسد من روعة. تحول عن هذا الجمال الذي دفعني دفعًا إلى التطلع له والوقوف بجوارها، وأغمضت عيني، وأحيت رأسي إلى الأرض. وتحول ذهني عما يدور حولي من حديث. وتمثلت أمام عيني صور عديدة: صورة أختي خسكية وإخواتي جالسين على الفرن أمام ركية النار المشتعلة في قوالح الذرة في ليلة من ليالي الشتاء، وهم يقمرون عليها العيش. تصورت أمي وهي جالسة على الفرن في جلبابها الأسود الطويل الواصل لكعب رجلها، ذي الأكمام الطويلة التي تغطي أطراف أصابعها، وشعرها الطويل الأسود بضفايره الواصلة إلى فخذها والذي تخفيه الطرحة السوداء عن العين، ولم تخلع أمي هذه الطرحة عن رأسها منذ مات أبي، لا ليلاً ولا نهارًا، إلا في وقت تكون فيه وحدها. تصورت وجهها الأبيض وعينيها الواسعتين برموشهما الطويلة والحواجب الثقيلة التي تزيد روعة وجمالاً. تصورتها وهي غارقة في بحر من التفكير، واضعة يدها على خدها تارة، وتحت ذقنها أخرى، وشفاتها تتحرك وهي تكلم نفسها، وأصابع يدها تتحرك واحدًا بعد الآخر، وأنا يخيل إلي أنها

تحسب أشياء تائهة أو ضائعة أو ترصد حساب الزمن.. لم ترفع أُمي يدها من على خدها إلا على طرقات عالية متوالية على الباب الخارجي للدار. وهمت واقفة لترى من الطارق، وإذا بحبيبي السيد أبو خيره، الأخ الأكبر لجدي أبو والدتي، يدخل ومعه آخرون ليسوا من قريتي، بل من إحدى القرى المجاورة، قرية اسمها «خرسيت»، دخلوا الحجره، وعندما رأيناهم، وقفت أنا وأختي خسكية وأختي حُسن تنتلط على كتافه، فاحتضنا وقبّلنا. وجلسنا على الفرن، وأُمي جلست على الأرض في بحراية الحجره، وهذا من تقاليد الريف؛ فالمرأة لا تجلس مع الرجال في مكان عالٍ خاصة إذا كانوا غرباء عن القرية أو المنزل. ظلت أُمي جالسة في بحراية الحجره واضعة رأسها في الأرض. وإذا بحبيبي يزعم على والدتي، فتهب واقفة، فيطلب منها أن تجلس على الفرن. وبعد أن تمنعت، عادت وقبلت، وجلست في أحد الأركان. وكنت أنا وأختي خسكية تنتلط على أكتاف أُمي تارة، وعلى أكتاف حبيبي تارة أخرى، وإذا بحبيبي ينده على أخي محمد ويقول له:

- خد هات من الدكان ورقة معسل. وانتِ يا بت يا حُسن، روعي هاتي الجوزة من عند الحاج محمود.

وبعد أن خرجت أختي وأخي، قال حبيبي السيد موجّهًا الكلام إلى أُمي:

- اسمعي يا سيدة، إنت عارفة عيلة أبو شادي كويس، عيلة طيبة من خرسيت. عيلة بيتهم مليون خير، عندهم بدل الجاموسة اتنين، وبدل الحمار اتنين، غير الجمل. بيتهم مستور، ما يحتاجوش حاجة من برّه. والنسوان في البيوت بتاعتهم متهنية، ما يطلعوش برّه، والرجالة هيّ اللي بتشتغل في الغيط.. ناس مبسوطين، عندهم سبع تمان فداين، الخير ياما عندهم.

وسكت لحظة، كما لو كان يستعيد شيئاً قد نسيه، وعاود الكلام قائلاً:

- أبوهم راجل طيب يعرف ربنا كويس، عنده أكبر أولاده عُمره خمسة وعشرين سنة، جوّزوه وهو صغير عشان يفرحوا بيه، ولكن مراته ما بتخلفش عيال، ولفوا بيها كل الدنيا عشان تخلف ولكن ما لقوش فايده، وهَمَّ عايزين يجوّزوه واحدة بنت ناس طيبين، فالناس دلوهم علينا، وجم لأبوكي وكلموه عشان طالبين إنهم يجوزوكي لابنهم... عايزين ولد يقعد على الأرض، وهَمَّ عارفين إن جوزك مات، وكمان عارفين إن عندك عيال. وهَمَّ ما بهمهمش العيال، لكن اللي يهمهم النسب والأصل. وحيجيوا لك جاموسة هنا في البيت، تحلب لبن. وحتستني انتِ زي ما انتِ هنا في البيت، وهو اللي حيقى يبجي لك. أبوكي وافق، وأمك كمان وافقت. إنِ لسه صغيرة ما تبهدلتيش. هَمَّ حياخدوا عيالك في عينيهم، والعريس قاعد قدامك أهه، جدع مليح طيب اسمه محمد على اسم المرحوم أبو الولاد. وآدي احنا جينا نقولك عشان نشوف نكتب الكتاب إمتى. حنكتب الكتاب في الستر، لا من شاف ولا من دري. يبقى على سنة الله ورسوله. هو انتِ رايحة تتهجلي عليهم وانتِ صغيرة؟ كل الناس بتتجوز، وكلنا حنموت. كل شيء بيد الله.

وعندما سمعت أُمي كلمات «إنِ رايحة تتهجلي عليهم وانتِ صغيرة» أحنث رأسها واستسلمت للبكاء. وعندما رأيت أُمي تبكي، بكيت كما بكت أختي. وحاولت أن أضربه على وجهه فابتسم، وحاول أن يُقبِّلني. وازدادت أُمي في البكاء، وعلا نحيبها. وقال حبيبي موجهًا كلامه للرجالة:

- معلهش يا جماعة ما هي حلاوة من غير نار ما تنفعش، أصلها افتكرت أبو الأولاد.

ودخل أخي محمد بعد أن أحضر ورقة الدخان، ونظر لي وأنا جالس على حجر حبيبي، والتفت إلى أمي وهي تبكي، ثم وقف صامتًا مذهولًا، متطلعًا حوله في حيرة، وهمست أختي زينب في أذنه قائلة:

- عايزين يجوزوا أمك.. إنت شايف الراجل اللي قاعد في الوسط ده، هُوّ ده اللي عايز يتجوز أمك. وعشان كده هي بتعيط، أبوها عايز يجوزها وياخدوها منا.

فشحب لونه، وتدلى رأسه في صمت دون أن يتكلم. واتجه نحو أمه وجلس بجوارها واستسلم للبكاء، وكان يردد بين الحين والحين:

- آه يابا، تعالى لي يابا.. حياخدوا أمي مننا يابا.. آه يا خويا.. مين حيربي أخويا الصغير، مين حيعمل بوصية أبويا!

وإذا أمي تنتفض، وتهب واقفة وهي تصرخ بأعلى صوتها. واتجهت نحوي، واختطفتني من أحضانه وعيناها مبللتان بالدموع قائلة:

- تعال.. تعال... إنت حبيبي، إنت جوزي! آه ياني.. هُوّ انا اشتكيت لحد، هُوّ انا قلت لحد أنا عايزة أتجوز؟ همّ ولادي قعدوا على طلبية حد وخدوا منها رغيف، أنا مش مخلياهم عايزين حاجة. أنا حاتهجل عليهم... مش حيلمسني راجل بعد محمد الخولي. قوم يلا امشي من هنا.. قوم خد الرجالة اللي انت جايهم وامشي! هُوّ انا قليلة الأصل؟ أنا حاعمل بالوصية، وأخليه زي الناس اللي في مصر.. أنا مش عايزة حد يكلمني تاني في الموضوع ده... يحرم عليّ بيتكم ما انا داخله... دا انا ما قلعتش هدومي السوداء من نهار ما مات جوزي... أعمل إيه بس؟ أصبغ وشي عشان ما حدش يشوفني؟ آخدهم وأطفش من البلد دي عشان ما حدش يكلمني تاني في الموضوع ده؟!!

واحتضنتني وهي تقول:

- إنت اللي ليّ.. حرام يا جواز، حرام يا جواز من بعدك يا محمد يا خولي!

تصورت كلمات أُمي وهي ترفض باكية، وقلت في نفسي: «إن هذه المرأة، صاحبة البيت، مثل أُمي. مات زوجها ولم يترك لها شيئاً مثلما لم يترك لنا أبي شيئاً، وعندهم كوم لحم مثل أُمي». وسألت نفسي، وألححت في التساؤل: «ليه أُمي لابسة الهدوم السوداء لحد دلوقت؟ طب لابساهم عشان أبويا مات. وليه الولية دي لابسة هدوم تانية كاشفة عن كل جسمها رغم إن جوزها هوّ كمان مات وعندها عيال؟!». وإذا بعبد العظيم يقطع تفكيري دون أن أهتدي إلى شيء.

شدني عبد العظيم من جلابي وهو يقول:

- يلاً بينا، ما هو دايمًا كده، همّ لهم في كل خطوة سلام، واحنا لنا في كل خطوة عفريت!

ونحن في الطريق، لم أكن أصغي لعبد العظيم.. كان ذهني مشغولاً بأُمي والحين لرؤباها، متمنياً اليوم الذي ألقاها فيها وأقبلها. كنا نسير والخوف والفرع هما المسيطران. تلتفت حولنا في كل خطوة خوفاً من أن يهاجمنا أحد من الخلف. كان الطريق ساكناً، والمنازل مظلمة خاصة في الحواري والعطف التي تسكنها أعداد غفيرة من العمال. لم نكن نسمع على طول الطريق سوى بعض الأصوات المنبعثة من بعيد، كانت هي أصوات بعض الباعة المتجولين. كنا نسير واحداً وراء الآخر ملتصقين بجدران المنازل، متجنين السير وسط الطريق. لم نكن نتكلم خوفاً من أن يسمعنا أحد، وهبت رياح باردة منعشة، وكان الهواء يعبث بالأبواب المفتوحة يحركها جيئة وذهاباً.

كنت أسير وأفكاري مشتتة تتجه نحو أمي وإخواتي، وتساءلت: «هل جاء أحد لأمي مرة أخرى ليطلب زواجها؟ إن أباهم مصمم على أن تتزوج، وكثيرات من نساء بلدنا كلموها في هذا الموضوع.. فهل ستقبل؟». لأ، خاصة بعد أن كبرت وأصبحت عاملاً. لقد رفضت أمي وكانت مخلصاً في الرفض يوم أن قالت وهي تبكي: لن أتزوج، لن أكون لرجل آخر، لن يكون أبنائي خدماً عند الآخرين.. أسئلة كثيرة محيرة راودتني طول الطريق، ورغبة ملحة في أن أرى أمي لتزول عني هذه المخاوف والأحاسيس.

العفاريت والملائكة والجنة والنار

عندما اقتربنا من المنزل قطع تفكيري صوت الواد الغريب وهو يقول للواد السيد الصفطي: - إحنا حنخش البيت ازاي؟ البيت بتاعنا ضلمة، والأوضة بتاعتنا تحت بير السلم، حته كحل. أنا خايف أحسن حد يكون مستنينا تحت بير السلم وبخبطنا خبطة نموت فيها!

- طيب حنعمل إيه؟

- نقعد قدام الباب لحد ما يبجي حد من أهل البيت نخش معاه.

قلت:

- واحنا حنستنى لحد إمتى؟ حنستنى خايفين لإمتى؟ إحنا لازم نعتمد على نفسنا. كل واحد منا يملا كمه تراب ونخش، إن لقينا حاجة أو حد اعترض سكتنا نروح حادين التراب في عينه ونطلع جري.

اقتربنا من المنزل، ودخلنا من الباب الخارجي، كل منا يمسك جلاباب الآخر. وكانت الغرف مغلقة لا ينبعث منها أي ضوء. وشعرت برعشة تسري في جسدي، خاصة أنني كنت أسمع من أختي عن العفاريت، وأنهم لا يطلعون على الناس إلا في الظلام والحتت المقطوعة. تذكرت في تلك اللحظة ما كنت أسمعه عن «المتوهاتية» أو «النداهة» اللي بيطلعوا في الضلمة، لو مسكوا أي واحد وعصروه بأيديهم يتوه عن الوعي ويعملوا فيه اللي هم عايزينه، حتى لو رموه في البحر. وعندما تصورت هذه الأشباح ازداد خوفي. وعندما وصلت إلى مدخل السلم، وكان الظلام شديدًا، شعرت بقشعريرة تجتاح أوصالي، وأن شعر رأسي قد تصلب. وبدأت أترجع إلى الخلف بعد أن كنت في

المقدمة. وشعر الواد الغريب فتزحزح هو الآخر، وتبعه السيد الصفطي.
ووجدنا أنفسنا نتراجع. وبدأنا نتهامس من منا يتقدم.

قلت:

- ما تقرب يا واد انت وهَوَّ، هَوَّ احنا حنقعد نتكلم، يَلَّا يا واد يا غريب، خش.

فقال الغريب:

- ما تخش يا واد يا سيد.

والسيد يقول للغريب:

- ما تخش انت.

والغريب يقول لي:

- ما تخش انت.

وهكذا بدأ كل منا يقول للآخر: ما تخش انت.

وأخيرًا، استجمعت كل شجاعتي، وتقدمت، واضعًا إحدى يدي على درابزين السلم، ويدي الأخرى تحسس على الحائط، وبدأت أصعد سلمة سلمة في حذر، وعينا لا ترى شيئًا في الظلمة الحالكة. وفجأة اصطدمت قدمي على السلم بشيء ذي شعر ناعم، وبسرعة أفلت هذا الشيء من تحت قدمي جريًا. فانطلقت مني صرخات عالية متوالية، وتبعني في الصراخ الواد الغريب والواد السيد الصفطي. وعدنا مسرعين إلى الخلف وصرخاتنا تشق سكون الليل، مما أدى إلى يقظة كل سكان المنزل. وتفتحت الأبواب، وخرجت

النساء من الحجرات وفي أيديهن المشاعل، كما خرج الرجال يبحثون عن مصدر الصوت، فوجدونا واقفين على ناصية العطفة، ونحن لا نتوقف عن الصراخ، وكنا نردد بين الحين والحين: - العفاريت تحت السلم، إحنا شفناها، العفاريت مسكتنا من رجلينا، آه يا ناس!

كنا نصرخ كالصرعى. وجاءت النسوة محاولات تهدئتنا، قائلات: - اهدى يا وله!

وأخرى تقول:

- همّ منين دول؟!

وأخرى ترد:

- دول عُرب، ما همّاش من هنا، مش عارفة أهاليهم سايباهم ازاي يتغربوا كده من صغرهم، هيّ أمهاتهم دول ما عندهومش قلوب؟ همّ حاطين على قلوبهم حجارة؟! دي الواحدة ما بتجيبش العيل إلا لما بتطفح الدم.. يا عيني يا ولاد.. هاتي شوية ميه يا بت اسقيهم خليهم يشربوا، العيال انطربوا!

وأخرى تقول:

- هاتي يا بت المحارة والحجر من تحت النملية وادعكيهم بشوية ميه، وهاتيهم للعيال يشربوها لاحسن ينقطع خلفهم.. هاتي يا بت ينوبنا ثواب!

وآخرون ذهبوا للبحث عن العفاريت. وإذا بصوت امرأة تقول: - الله يلعنكم عيال ويلعن اللي خلفوكم، حتعملوا سمعة للبيت زي الزفت، حتخلوا السكان يخافوا ويسيبوا لنا البيت.. عفاريت إيه يا ولاد الكلب؟!

وأخرى ترد بصوت عالٍ صارخة في وجه مَنْ تكَلَّمَت: - إيه هو يا ولية؟! هُوّ مفيش في قلبك رحمة. العيال بتعيط، وانتِ جاية تشتمهم؟! هُوّ كل واحد ما بيدورش إلا على حاله؟! إنتِ في إيه وِلَّا في إيه؟ هُوّ انتِ ما عندكيش عيال؟ قوم يا ابني قوم. إيه اللي أخركم لغاية دلوقت؟!

وجاءت النسوة بالمشاعل، هن والرجال، وهم يقولون: - إحنا دَوَّرنا ما لقيناش حاجة تحت بير السلم، مفيش لا عفاريت ولا حاجة. دي كانت قطة نائمة. هَيَّ دايمًا القلط كده، تنام على السلم وتتكعبل في الماشيين.

فردت النسوة الجالسات بجوارنا:

- الله يلعن القلط ويلعن أصحابها! طربوا العيال! قوم يا ابني قوم، قوم لما نوديكم لحد جَوّه.

وفي الحجرة تركونا بعد أن أضاءوها لنا. ومنذ تلك اللحظة ونسوة كثيرات، ممن يسكن منزلنا، أصبحن يترددن علينا كثيرًا، كما كن كثيرًا ما يدعوننا إلى حجراتهن، فنشأت بيننا وبين أطفالهم علاقات صداقة، خاصة الكبار منهم.

بعد أن خرجت النسوة، بقينا وحدنا، وكل منا ينظر للآخر دون أن ينبس أحد منا بكلمة، وجلس كل منا بجانب الآخر، وأنظارنا متجهة نحو الباب. وإذا بخروشة تنبعث من مكان ما، وتلَقَّت كل منا حوله باحثًا عن المصدر. كانت الخروشة تأتي من خارج الحجرة، فقمتم وأغلقت الباب بالترباس، مطمئنين أنفسنا أن العفاريت لن تدخل طالما أن الحجرة مغلقة. وقلت: - خلاص.. خلاص يا ولاد.. آدي احنا تربسنا الأوضة ومش ممكن العفاريت حتخش.

فقال الواد الغريب:

- عفاريت إيه بقه؟ مش النسوان قالت لا كان فيه عفاريت ولا حاجة!

فرد الواد السيد الصفطي:

- هوّ إيه؟ ما هي العفاريت بتطلع في شكل ققط سمعت كده من أمي.

فقلت:

- آدينا قفلنا الأوضة أهه، ولو طلع علينا عفریت وَّلا حاجة نبقي نموّته. طول ما الأوضة مقفولة مش حياقي حته يطلع منها. قوم يا واد يا سيد هات حته جلابية قديمة أو حته خلقة ونحطها قدامنا، ولو خش نحدها على وشه ونغميه من غير ما يشوفنا. هات يا واد يا غريب المقص لما أحطه جنبي على الحصيرة، ولو جه إنتم ترموا عليه الجلابية وأنا أخبطه بالمقص خبطة يموت.

وجلسنا في انتظار العفاريت، دون أن يكلم أحد منا الآخرين. لا صوت، ولا حركة.. وانتظرنا بعيون نائمة، وطال انتظارنا. وأخيرًا كوع كل منا بجانب الآخر، وغلبنا النعاس، فنمنا دون أن نطفئ اللمبة. وإذا بفأر يجري من على وجهي وأنا في أحلى نومة، فأهب واقفًا، فأرى الفأر يدخل أحد الشقوق الكثيرة الموجودة في الحجرة، ولولا أنني رأيته لملاً الخوف قلبي.

طار النوم من عيني. وجلست في الحجرة أتأمل أسراب البق وهي تسير واحدة وراء الأخرى على الجدران في طمأنينة دون خوف، والصرابير وهي تنتقل من قفة إلى قفة، ونظرت نحو الواد الغريب والواد السيد الصفطي، وتأمّلتهما وهما نائمان ملتصقا الأجسام، وقد وضع كل منهما يده على الآخر كإخوة من عَصَب. ونظرت طويلًا للوجوه والعيون المسبلة، والبسمات التي ترتسم على الوجوه وهما يحلمان. ونظرت إلى جسديهما العاريين بعد أن

تكومت ملابسهما عند رأسيهما من شدة الحر، وبانت الضلوع، وجلست أعد هذه الضلوع. ونظرت إلى بطنيها الخاويتين، وراودتني فكرة أن أصحيهما ليأكلا، ولكنني قلت في نفسي: «حاصحيم ياكلوا إيه؟ مفيش حاجة.. مفيش غموس، إحنا آخر المدة والفلوس خلصت، والعيش كمان قرب يخلص، يا دوب يقضينا بالعافية.. أصحيهم يغمسوا بملح؟ النوم أحسن». ونظرت طويلًا إلى أيديهم المتشابكة على الأعناق، وعاودتني الذكريات.. ذكرى أختي يوم كنا تنتلط على الفرن، عندما كان النعاس يغالبني، وتحاول أختي أن تصحيني قائلة: - لا، ما تنامش، قوم لما نبقى ننام سوا...

وعندما لا تتمكن من منعي من النعاس، تنام هي بجواري وتحتضني، وتحاول تصحيني من جديد، قائلة: - واد، ما تصحى يا واد! اصحى وقوم نلعب.

وتفتح عيني، وتمسك الرموش، وتقول:

- فتح.. فتح يا واد، فتح عينك!

وتضع يدها على كتفي، واليد الأخرى تفتح بها عيني، وتقول: - اصحى يا واد.. فتح عينك!

وتضع يدها الناعمة على عيني، إلى أن تأتي أُمي بالأكل، فنأكل، ثم ننام متحاضنين. وأحسست بالحنين نحو أختي. وتحسست جيبي، فتذكرت أنني لم أشتري شيئًا للغداء لأنه لم يبق معي نقود منذ أسبوع، وقلت: «أهو بُكرة حنقبض، وأرّوح، وأقول لأمي على كل اللي شفته».

وتمنيت في هذه اللحظة لو أن معي نقودًا لكي أروح البلد وأرى أختي التي طال شوقي إليها وفكرت: «أستلف؟ أرّوح ماشي؟ مش معقول. أمال أعمل

إيه؟ أستنى لما أقبض، خلاص فاضل يوم، وأشتري منديل مشغول بالأوبة
وأعطيه لأختي عشان تفرح».

ودارت في ذهني صور أخرى عديدة: صورة العامل اللي مات على الممكن
ووقفت أنا مكانه، والدم المتجمد على جوانب الممكن. وتملكني الفزع. وتمثلت
أمام عيني كثير من الكلمات التي سمعتها من إخواني ومن العيال عندما كنا
نجلس على المصطبة عن الترب والملايكة لما تيجي وتحاسب.. وعن المرزبة
والتعابين اللي بيخوفوا بيها الواحد وهو ميت، وعن الجنة وعن الشجر الكثير
من كافة الأصناف - من عنب وتفاع وخوخ وقشدة - لما يمر على الواحد وهو
نايم، وتتدلل الفواكه من الأشجار التي تحملها إلى فمه، ويأكل زي ما هو
عاوز دون أن يتعب نفسه.. وعن النار الموهوجة، وعن الصراط المستقيم
اللي الناس بتمشي عليه، واللي أعماله طيبة يقع من عليه في الجنة، واللي
أعماله سيئة يقع من عليه في النار، واللي سرق البيضة ينشل البحر
بالقشرة.. وعن العيال الصغيرين اللي يموتوا وما عليهمش ذنوب ويشفعوا
لأهاليهم يوم القيامة.. عندما تخيلت هذه الصور، ملأ الخوف قلبي، وقلت:
«زمان الملايكة دلوقت بيحاسبوا العامل اللي مات على الممكن، ويا ترى
بيقولوا له إيه؟ يا ترى حيدخل الجنة ولا حيدخلوه النار؟ وحيدخلوه النار ليه؟
هو عمل حاجة؟ دي الممكنة هي اللي موته! يا ترى قال لهم على كل حاجة
بتحصل في المصنع؟! قال لهم على اللي حصل له؟ يا ترى قال لهم إن الممكنة
هي اللي موته، وإن الرئيس ما رضاش يصلحها؟ زمانه قال لهم عن إهمالهم
في تصليح الممكن مما أدى إلى موت الكثيرين. يا ترى قال لهم إن الرؤساء
بيضربوا العمال وبيمنعوهم من الذهاب إلى الدورة؟ لو قال لهم كده حيدخلوه
الجنة. إياك بس ما ينساش، عشان بيقولوا إنهم بيضربوا الناس بالمرزبة
ويجيوا لهم التعابين».

أفكار سوداء مرت بخاطري، وقلت في نفسي: «يا نهار أسود، دا انا بقيت عامل، ومسكت المكن، وممكن تجيني خبطة أموت فيها، وحيدفونوني فين؟ هنا في المحلة؟ بعيد عن بلدنا؟ وأمى حتعرف ازاي؟ يا ترى حيقولوا لها؟ مش معقول. يمكن يخبوا عليها. هُوَّ حد عارف؟ ما هو ناس كتير ماتت في المصنع.. هُوَّ حد عارف ودوهم فين؟ ما هو الواد الغريب يقول لها لو حصل حاجة.. وأختي لما تعرف حتعيط.. طيب وعلى إيه أستنى هنا وأموت غريب وأندفن في ترب ما أعرفهاش، والناس يقولوا لأمى ياللي ابنك مات غريب وما انتش عارفة له حته اندفن فيها».

وتجسدت أمامي الترب والمدافن وأشجار التوت اللي بتشرب من دم الميتين، والنعش والرجالة وهمَّ شاييلينه، والنسوان وهيَّ بتعيط، وأمى وهيَّ ملطخة بالطين وبتقول: «يا اللي مت وما شفتاكش.. يقطع المصنع وصحابه...». وعندئذ فرت الدمعة من عيني، وهزيت رأسي، وانتبهت، وقلت: «الله.. الله.. إيه ده؟ ما انا هنا أهه! ما انا صاحي، وإيه اللي حيموتني؟ الواحد ياخذ باله يمكن ما يموتش.. ولو مات، ما هو كل شيء بيد الله، وكلها ترب مسلمين، المهم الواحد ياخذ باله. أمى بتقول: «امشي في سكتك عدل يحتر عدوك فيك»، والواحد ما يمشيش قدام المكنة. المكنة هي العدو. هي اللي بتموت. الواحد يدوورها ويمشي من قدامها يقف وراها، يبعد عن المكوك وهو رايح وهو جاي ما دام المكن خربان. هو أخوبا ما كانش دايمًا بيقول: «إبعد عن الشر وغني له»، الواحد يدور المكنة ويدور الجري وراها. يبعد عن الشر يبعد عن شر المكن. وعليَّ آخذ بالي. حاعمل إيه في البلد لو روَّحت؟ أروح الكتاب والفقير يضربني بالفلكة؟ حاشتغل فلاح؟ ما عندناش أرض.. حاشتغل عند العمدة؟ حاشتغل خدَّام؟ ولَّا ألم دودة في أرض الوسية، أشتغل يوم وأبطل عشرة؟ لأ، هنا أحسن، بعيد عن الشمس، وشغل دايم. صحيح بيضربونا، لكن

الضرب مش حيدوم. حستنى هنا، واللى يجرى عليّ يجرى على الآخرين. ما
هو ناس كثير ماتت، ومفيش حد من العمال رَوَّح، وناس بتيجي كل يوم.
العربيات كل يوم بتيجي محملة».

أفكار كثيرة تراودني حتى غلبني النعاس، فنمت دون أن أرى العفاريث.

واحد من فتوات عزبة اللين

صحت في الصباح مبكرًا على نفس الصوت الذي سمعته بالأمس، صوت البومة. وتوقعت أن شرًا سوف يحدث كما حدث بالأمس. وفي الطريق إلى المصنع، كان العمال يسيرون في حذر، كل منهم يلتصق بالآخر إذا رأى ناسًا تقف على الرصيف بملابس حرير إفرنجي. كانوا يسيرون جماعات. منهم من كان يتطلع إلى الأمام، ومنهم من يتطلع إلى الخلف بعيون حادة النظرات. كان كل منهم يتوقع أن تهوي على رأسه شومة أو يطعنه خنجر أو تنغرس فيه سكين من الخلف.

وعلى الطريق، كان العمال يتجمعون، يشيرون ويلوحون بأيديهم، ويتهامسون ويتحدثون عما حدث بالأمس. يقول أحدهم:

- خلاص نبهنا على ولاد بلدنا وقلنا لهم.

وآخر:

- عملتم إيه في العصي؟

فيرد آخر:

- إحنا حنجيها من البلد، حنقبض النهارده ونجيها معانا واحنا جاينين.

أحاديث وأحاديث حول تجمع البلديات:

- شفت إيه اللي حصل امبارح، الرجالة اتصدرت، لازم احنا كمان نتصدر، إحنا

مش أقل منهم رجولية.. نبهت على ولاد بلدك؟

دخلنا المصنع دون أن يحدث عراك في الطريق إلى المكن. واستلمت المكن من زميلي كالعادة، وقبل أن يتركني همس في أذني قائلاً:

- خلي بالك، أهل المحلة بيضربوا العمال. العراك داير في كل مكان في المصنع.. طول الليل والعراك هنا وهناك.

- وانت عملت إيه؟

- حاعمل إيه؟ أنا مالي يا عم؟ ما دام مفيش حد جه ناحيتي يبقى خلاص.. قال يا جحا... ما دام بعيد عني خلاص.

تركني ومضى، ووقفت على المكن أتأمل ما قاله لي، كما تأملت ما سمعت بالأمس في منزل علي. وقلت في نفسي: «لو كان شاف أهالي المحلة وشاف علي وعبد العظيم لما جربوا وراهم كان اتشجع وما كانش قال كده».. وطال بي التفكير. وقلت: «إيه ده؟ يعني واحد ولّا اتنين ولّا ثلاثة هي كل العمال؟ كل عمال من بلد واحدة بيتجمعوا، سمعتهم بيتكلموا على طول الطريق وحيجبوا العصي لما يروحوا، وانا لما أروح حاقول لأخويا يجيب لي عصاية». وإذا بعبد العظيم يأتي من الخلف ويقطع تفكيرني بقوله:

- النهارده القبض، كل الناس حترّوج. كل واحد حيجيب له عصاية معاه.. إحنا اتفقنا خلاص. واتفقنا كمان على إن كل عمال من بلد واحدة رايجين يسكنوا مع بعض.

- وهيّ أوضة راح تساع؟

- لا، يسكنوا في أوض مختلفة في حي واحد أو في نقطة واحدة عشان يبقوا قريبين من بعض.. بس احنا مستنيين لما نقبض. كل شيء حيتم بعد القبض

عشان كل واحد يدفع اللي عليه.

واسترسل قائلاً:

- وانت حتعمل إيه؟

- حارّوح، وهاقول لاخويا يجب لي عصاية.

فقهقه عاليًا، وقال:

- عصاية؟ عصاية إيه؟

- عصاية من عند السيد البدوي، عصاية على أدي.

فطبطب على كتفي وقال:

- خلاص، بُكرة تيجي العصاية وحنشوفها.

وتركني، وتذكرت أنني لم أقل له ما سمعته من عامل الليل، فجريت نحوه مسرعًا، وقلت له ما دار بيني وبين العامل من حديث. فسكت لحظة وقال:

- روح على مكنك واشتغل، وما تفكرش في الكلام ده. بُكرة لما تطلع عليه شلة على خوانة ويرنوه علقه يبقى يعرف إن الله حق. فيه ناس بتخاف وتقول الباب اللي يبجي منه الريح سده واستريح، سمعت الكلام ده أنا امبارح.

وعدت إلى الممكن أفكر فيما قاله عبد العظيم وقلت: «دا لو كان كل واحد حيقول زي اللي قاله عامل الليل يبقى حنغلب صحيح». وإذا بالولد الغريب

يجري نحوي صارحًا:

- هات المقص. وقفوني على مكنة. مكن بايظ وخربان وفيه فتل كتير مقطعة، صاحبها ما جاش، وجابولي واحد من بتوع الفتل من أهل المحلة عشان يصلحها وطلب مني المقص عشان يقطع بيه الفتل.

فقلت له:

- ومالك جاي كده بترتعش؟

- أنا خايف لاحسن يمد إيده عليّ وبضربني.

- ما تخافش.. ما تخافش يا واد.. خد المقص، وما تبينلوش إنك خايف.

وأخذ مني المقص وذهب.

ووقفت على المكن أنظر وأفكر فيما سيحدث للولد الغريب: هل سيضربه بتاع الفتل؟ وإذا ضربه، فهل سنسكت؟ مش معقول حنسيه، صحيح، إحنا صغيرين، لكن العصاية السابقة سابقة.. هم أكبر منا، ولو مسكونا حيموتونا من الضرب.. ولكن، هل نسكت؟ لا! إحنا لازم نضربهم بأي حاجة: تقل حديد.. تقل من بتاع المكن.. خبطة واحدة في الدماغ تسيح دمه.. ديك الساعة، الناس دي كلها حيقولوا العيال سيحوا دم واحد من أهل المحلة، وأخويا لما يعرف راح ينبسط.

ووقفت أترقب عودة الولد الغريب، ولكنه لم يأت، فتركت المكن وذهبت إليه، فوجدته واقفًا على المكن، فطلبت منه المقص، فأخذ يتلفت حواليه باحثًا عن عامل الفتلة، وقال:

- أخذه مني ومشى.

ووقفت أتطلع ذات اليمين وذات اليسار، وإذا بي أجده واقفًا بجوار إحدى الماكينات، فأخذت الولد الغريب واتجهنا نحوه، ووقفنا بجواره، وتقدم منه الولد الغريب وطلب المقص، وكل ما في جسده ينتفض، وإذا بعامل الفتلة يقف متأملًا وجوهنا، ثم ابتسم ابتسامة صفراء، وقال:

- روح خده من العامل اللي واقف على الممكن اللي هناك ده.

وشاور بيده. واتجهنا نحو العامل. ووقف من بعيد يتسم، وشاور على واحد تاني وقال:

- روح خده من ده.

واتجهنا نحو الآخر. فوقف يتطلع للآخرين. ولاحظت أنهم يتسمون ساخرين. وقلت: «هذه الضحكات علينا». وأيقنت أن المقص قد ضاع، وأنهم لا يريدون أن يردوه إلينا.

انتابني الغضب، وتذكرت ما كنت أسمعه في قرיתי عن «غَيّ» اللي أخذت الفراخ وراحت عشان تبيعهم، وقابلوها رجالة في السكة وأخدوا الفراخ منها بعد أن... وأصبحت أضحوة البلد. عندما تذكرت هذا غلي الدم في عروقي وقلت في نفسي: «ما لم يأت المقص سوف يقولون عني ذلك». وأخذت الولد الغريب واتجهنا نحو الممكن، ووقفت وعيناى تقدحان شررًا لأهل المحلة الذين يحتقروننا ويرغبون في استكرادنا.

وذهبت إلى عبد العظيم وقلت له ما حدث، فقال:

- إيه اللي خلاك تديهم المقص؟ هو انت مش عارف إنهم بيحروا الشَّكل؟

فتركته وذهبت إلى الممكن، وقلت في نفسي: «أخويا لو دري مش راح يدخلني البيت». وأسرعت نحو الولد الغريب وقلت له:

- اسمع، خلي بالك، لو شفت المقص في إيده تعالى لي وقول لي.

ووقفت أترب من جانب، والولد الغريب من جانب آخر. وتذكرت قول أمي: «ما ياكلوش العيش إلا خبازينه»، وقول أخي: «ما يجيبها إلا رجالها». وإذا بي أجد عامل الفتلة يقف بجوار إحدى الماكينات ويخرج المقص من جيبه ويضعه أمامه. ووقف يشمر عن ساعديه. ويطرح خصلات شعره الناعم الطويل إلى الخلف بعيدًا عن عينيه. ووقف يتطلع حوله للعمال ذوي الجلابيب المهلهلة والوجوه المصفرة تارة، وينظر لملابسه الحريري تارة أخرى، ويرفع رأسه إلى الخلف تباهيًا، ويستمر في وقفته لحظة، ثم يعود وينظر للعمال مرة أخرى، وكنت أنظر أنا إليه وكل ما في جسدي ينتفض وقلت في سري: «إنه أكبر مني، إنه يتباهى بنفسه.. مستفحل نفسه على العمال، لو ضربني قلم حيجيني الأرض، دا مش لوحده، دا معاه آخرين، حيتلموا عليّ وبموتوني!». وقلت: «يعني إيه؟ أسيب المقص يروح وأفضل أسمع طول العمر ما كنت أسمع عن البت «غنى»؟ مش معقول.. أ ضرب أنا قبل ما انضرب، هو أخويا مش قال العصاية السابقة سابقة؟». كنت أشجع نفسي وأنا واقف أراقبه عندما يبدأ الشغل. وقلت: «أهو بدأ يشتغل أه». وتطلعت حولي فلم أجد أحدًا مشغولًا بما أفكر فيه، كان كل منهم يعمل في صمت، ويجري خلف مكنه في تباطؤ، والسيور يرتفع زئيرها، وعجلات الماكينات تسرع في الدوران، والماكينات تزداد سرعتها كلما زارت السيور. وانتابنتي رعشة، وقلت:

«اهجم!». وإذا بي أجد نفسي أعدو مسرعًا كالريح.. ووقفت بجوار الواد
الغريب وقلت:

- الولد يبشتغل بالمقص، تعال معايا لما نخطفه.. تعال شوف خشبة ولّا دراع
مكنة ولو حصل حاجة اضرب.. العصاية السابقة سابقة.. اضرب في أي حته!

وتركته وذهبت نحو المكن. وأنا في طريقي رأيت المقص يلمع أمام عيني،
فلم أحتمل. وتوجهت نحو عامل الفتلة منتهرًا فرصة انشغاله، واستجمعت كل
ما بي من شجاعة وانقضيت عليه وأخذت منه المقص، وماتت عليه يدي. وإذا
بعامل الفتلة يأتي نحوي مسرعًا رافعًا يده إلى أعلى يكاد أن يهوي بها على
وجهي، فلم أمهله مُستعيدًا كلمات أخي.. وإذا بالمقص يرشق في جبهته
والدماء تنزف منها بغزارة تلتخ كل بياض وجهه!

عندما رأيت الدم سابت رُكبي، ولم أقدر على السير، وإذا بي أجد الولد
الغريب والولد السيد الصفطي وعبد العظيم وعمالًا كثيرين يعدون من كل
مكان، وكلمة «هوه.. هوه» تملأ العنبر... ولم ينتبه أحد لي أو لوجودي قدر ما
كان الانتباه للعامل الغارق في دمه، محاولين تضييد جرحه. وجاء العمال من
أهل المحلة، ووقفوا بجواره محاولين الاستفسار عما حدث. وقلت في نفسي:
«خلاص.. أنا مت.. رايجين يموتوني!». وهمس عبد العظيم في أذني قائلاً:

- عملتها؟ خلاص، ما تخافش، ولا يهملك.. كسرت نفسه، جبتها الأرض، مهما
يحصل إنت عوّرتة.

لم ينتبه كثير من الواقفين، ولم يعرفوا ما دار من حديث. كانت وجوه كثيرة
تنظر لي، ولا تستطيع إخفاء البسمات رغم ما انتابهم من خوف. وجاء

الرؤساء، ودوروا الضرب في العمال، وتوجه كل منهم إلى مكنه. وشدني عبد
العظيم من يدي وقال:

- قرب.. هُوَ انت واقف لما ياخدوك؟ تعال.

وسرت معه ورُكبي قد سابت. ووقفت على المكن، وكلما نظرت نحو
المجروح زاد الخوف في قلبي. كان الرؤساء يسألونه وهو واقف لا يجيب.
وأخذه أحد الرؤساء وتوجه به خارجًا نحو العيادة.

وانتشر الخبر بسرعة البرق في العنبر. وبدأت التساؤلات عمن يكون
الضارب، وأيدي تلوح نحوي. ويأتي آخرون ويقفون بجوار المكن وبتهامسون.
منهم مَن يبتسم، ومنهم من يقرش على أسنانه، ومنهم من يهز رأسه في
استياء، ومنهم من كان مبهجًا دون أن يكشف عن بهجته.. ناس رايحة، وناس
جاية، والكل يتساءل، وأنا واقف أدور المكن في هدوء، بعد أن هدأت أعصابي.

اقترب البعض مني قائلين في دعر:

- يا نهارك أسود! إنت ضربته ازاي؟ دا من أهالي المحلة، وأحد الفتوات! سنتك
سودة! حتنقطع حنت!

واحتملت كلامًا كثيرًا وأنا واقف، وقلت:

- خلاص.. وماله؟ زي بعضه، أحسن ما كنت أسيب المقص يروح.

كانت الطريقة تعج بالمتفرجين.

وجاء أحد العمال وهمس في أذني في بهجة:

- شد حيلك، حتلاقينا وراك.. إحنا مستنيين لما نشوف حيعملوا معاك إيه؟ ناس كثير مبسوطه وفرحانة، لكن مش قادرين يعبروا عن الفرحة.

لم يكمل حديثه، وإذا بعامل الفتلة يدخل من الباب ورأسه مربوط بالشاش، وجواره الرئيس المباشر. وتوقعت إنهم حياخدوني ويطلعوني على برّه، ويضربوا فيّ لما يموتوني، وحاولت أن أبين أنني لست خائفًا، متجولًا بين الممكن تارة، واضعًا يدي على الفرامل تارة أخرى.. وجموع العمال تختلس النظرات من بين الممكن في انتظار ما سيحدث. وإذا بعامل الفتلة تتجمع حوله أعداد كبيرة من العمال من العنبر ومن خارجه، عمال كلهم بملابس حرير إفرنجي. التفوا حوله كالسامر، وكل منهم يحاول أن يسأله وهو يجيب على الأسئلة دون أن تشاور يده نحوي، وكلما ازداد العمال عددًا، ازداد خوفي. وقلت في نفسي: «خلاص.. كل دول رايعين يضربوني، وانا لوحدي مفيش حد معايا. حتى الولد الغريب والولد السيد الصفطي كل منهما على مكنه، وعبد العظيم هو الآخر لا يأتي ناحيتي.. إشمعنى دول اتلموا على بعض ويبتكلموا؟ يعني إيه؟ راح أموت؟ زي بعضه.. آديني عورته، ودافعت عن نفسي قدام الناس، الناس دول حيقولوا عليّ إيه؟ مش حيقولوا أهل المحلة اتلموا على واحد وموتوه؟ وهيّ دي تبقى جدعنة؟ زي بعضه.. ما هي البومة كانت بتزرق على بيتنا، كانت بتندرنى، كانت بتنصحنى لكن ما اتنصحتش.. خلاص اللي يقع لازم يسد».

وبينما أنا غارق في التفكير إذ بعامل الفتلة يتقدم نحوي في تباطؤ ومعه عدد من العمال ذوي الملابس الإفرنجي وقلت في نفسي: «أجري أسيب الممكن؟ أدور الجري على برّه؟ مش معقول.. خلاص، وقعت الطوبة في المعطوبة، دول جايين عندي.. دول قربوا ناحيتي.. يا نهار أسود.. هات المقص.. أطلعه

من جيبي يقوموا ياخدوه مني؟ زي بعضه، حابطحه قبل ما يبطحني، قبل ما أموت أموته.. أخويا كان بيقول لي كده». ومسكت المقص بإيدي، ووقفت كالزهار على الممكن أتطلع ذات اليمين وذات اليسار مُتفحصًا الوجوه، وجوه العمال المجاورة كالغارق في البحر في انتظار مَنْ يأخذ بيده. وإذا بي أطمئن. وتدخل الطمأنينة قلبي عندما وجدت عبد العظيم والولد الغريب وآخرين مختبئين خلف الممكن ويبد كل منهم ذراع من الخشب، وروبيدًا روبيدًا يقتربون. وعندما وجدتهم يقتربون أسرعت بالالتفاف حول الممكن، ووقفت أختلس النظرات وقلبي يدق. وُحِيل إِلَيَّ أن العنبر قد هدأ حتى من زئير الممكن رغم سرعة الماكينات.

كانت أنظار العمال تتجه نحوي دون أن يتجمّع منهم أحد. وقلت في نفسي: «ليه العمال ما تجيش تحوش عني؟ هَوَّ مش عبد العظيم قال إن كل العمال من بلدة واحدة اتفقوا على إنهم يتجمعوا مع بعض؟ أمّال لغاية دلوقت ما حدش اتجمّع! وما حدش جه ناحيتي! يمكن منتظرين لما يبدأوا بالضرب. ما هو عبد العظيم قال كده امبارح واحنا قاعدين في البيت بتاع علي بالليل». وإذا بعامل الفتلة وبعض العمال ذوي الملابس الحريرية يقفون على الممكن ويمسكون بالفرامل. وتسمرت في مكاني وقلت: «خلاص.. أمري لله، مفيش فايده.. حيموتوني.. أجري؟ لأ ما أجريش.. راح أروح فين؟ هي موته ولّا أكثر؟». وأخرجت المقص من جيبي وتوجهت نحوهم ويدي مرفوعة بالمقص، وإذا بعامل الفتلة يقف في مكانه لا يتحرك، وينظر لي طويلًا دون أن تصدر منه أي حركة.

وقفت على بُعد خطوة واحدة منهم نتبادل النظرات، والكل مُتحمز للآخر. ومن خلال النظرات وجدت عبد العظيم واقفًا ويده خشبة مستندة على

الأرض. وفجأة وجدت الولد الغريب واقفًا بجواري، والتصق بي وقال:

- أنا جيت.

وإذا عمال المحلة بيتسمون، وتزداد ابتساماتهم عندما رأوا الولد الغريب يقف بجواري، واطمأن قلبي لتلك الابتسامات، وبدأ عامل الفتلة يتقدم نحوي.. فرفعت يدي بالمقص، كما رفع الولد الغريب يده بالعصا، وإذا بعمال المحلة تعلو وجوههم الابتسامات دون أن يرفع أحد منهم يده، وزاد عامل الفتلة اقتربًا مني وزعق زعقة عالية تعلو على ضجيج الممكن:

- ما تخافش.. ما تخافش.. سألوني في المكاتب قلت أنا وقعت.. قالوا لي مين عورك، قلت أنا وقعت، مفيش حد عورني.

التفوا حولي. وقفت بينهم وقد ازدادت دقات قلبي.. ومددت يدي على الفرامل فأوقفت الممكن خوفًا من أن يرفعني أحدهم ويضعني تحت التروس، وإذا بعامل الفتلة يطمئنني بقوله:

- ما تخافش.. إنت خايف ليه؟ إنت واد جدع! مفيش حد عملها معايا إلا انت.. أنا باعتبارك زي أخويا الصغير. حد سلطك؟ حد قال لك؟

قلت:

- لا.

قال:

- كثير من ولاد بلدي حبوا يفسخوك، ولكن أنا ما رضيتش. إنت واد جدع صحيح، إنت صغير لكنك جدع وخفت على حاجتك، وعجبتني طريقتك في

خطف المقص، وعجبتني المفاجأة.. حد علمك؟ إنت منين؟

قلت:

- من طنطا.

قال:

- عشان السيد البدوي ما حدش حيكلمك.. إنت من طنطا واحنا من المحلة،
واحنا دلوقت نبقى صحاب.. إنت جدع في الشغل وفي الدفاع عن حاجتك..
وإذا احتجت حاجة، إحنا هنا وياك، إنت من طنطا، وطنطا كلها جدعان.

وشد على يدي، وذهب.

وقفت مذهولاً، وأنا لا أصدق أن هذا قد حدث. ونظرت حولي فإذا بالعمال
الواقفين حولي يتطلعون ورؤوسهم تهتز متسائلة، وجاء عبد العظيم يسأل:

- إنت عملت إيه وياهم؟ إحنا كنا منتظرين إن حد منهم بيتدي يعتدي عليك..
كل واحد منا كان معاه عصاية، ولكن وجدناهم بيتكلموا معاك.

وبعد أن حكيت له ما حدث، جاء آخر ليقول:

- دول بيمتحنوك.. كانوا عايزينك تقول إن فيه حد معاك، حد محرضك..
حيستنوك برّه.. دول قالوا لك الكلام ده لما شافوا العمال معاهم عصي.

وآخر:

- إنت عارف ده مين؟ دا واحد من فتوات المحلة، فتوات سوق اللبن.. وانكسف يقول للي معاه إن عيل خبطني، ما قالش لحد معاه، ما قالش لحد عليك.. ولكن على مين؟ دا كل الناس شافت، ما عادش حيرفع رأسه.. دا كان بيمشي يقول للأرض انهدي ما عليكى أدي.. ما كانش حد عاجبه في العنبر. ياما ضرب عمال.. صدق المثل اللي بيقول «زبله توقع جمل».. دي بداية عال، حتخلي العمال تتحمس.

وقبل أن يذهب شد على يدي وقال:

- النهارده القبض، حنقبض.. ولما نيجي حنتجمع في البيت.

وبدأت المواتير تتوقف، والسيور تتباطأ، والماكينات تتوقف الواحدة وراء الأخرى، وعقارب الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرًا. وهي الساعة المقررة للغداء.

لبست الجلاب، وجاء الولد الغريب والولد السيد الصفطي، كما جاء عبد العظيم، وتوجهنا للخارج للغداء، وكل منا يحمل منديله.. ونحن نسير وجدت خلفي وبجواني عددًا كبيرًا من عمال النسيج وسمعتهم يتهامسون:

- إحنا جنبه، هوّ احنا حنسييه؟ نسيبه يضربوه؟ لازم نبقى معاه! همّ حيسيويه؟ دول ما سابوهوش هنا إلا لما شافوا كل العمال معاه، شافوا العصي تحت الممكن. إحنا مش حنسييه!

وآخرون يقولون:

- يا عمي يلاً نتغدى، دي الساعة رايحة تخلص! إحنا مالنا؟! هوّ حد كلمه؟ هوّ احنا زبهم؟ دول ببشاكلوا الدبان اللي على وشهم. تعال احنا حنقبض النهارده،

خلينا نروح لأهالينا بسلام!

أحاديث مختلفة شتى طول الطريق. وأمام باب المصنع الخارجي كان العمال
يفترشون الأرض سريعًا، كانوا يجلسون جماعات ويأكلون في عجلة. وإذا
بأيدي تلوح نحونا.. كانت هي أيدي علي ومَن يجلسون معه. وقال علي:

- أنا اتكلمت مع عدد كبير من العمال، ووافق الجميع على إن احنا نسكن
بالقرب من بعض، ونمشي مع بعض، وانت شايف كل واحد بياكل مع الثاني
أهه، وحنمشي آخر النهار مع بعض.

فرد عليه عبد العظيم قائلاً:

- وانا كمان عملت كده، بس احنا مستنيين لما العمال تقبض.

وسأل علي:

- سمعت وانا طالع من العنبر إن عمال المحلة اتجمعوا في عنبر النسيج، وفيه
واحد عندكم ضرب واحد منهم بالمقص عوره.

فابتسم عبد العظيم، ووضع يده على كتفي، وقال:

- أهه.. أهو ده صاحب المشكلة، حبوا ياخدوا منه المقص لكنه قاوم ورفض،
وأخذه منه بعد أن عوره.

واسترسل قائلاً:

- إحنا حنروح نتغدى لاحسن الوقت يروح.

وبجوار أحد المنازل القريبة من المصنع افترشنا الأرض، وجلس كل منا يأكل بسرعة، كانت أصوات الباعة تخرق آذاننا، وعمال تجيء وعمال تروح، يشتررون ما يلزمهم، ويلتهمون الأكل وأيديهم ملطخة بالسواد. وصفارات المصنع تنبئ بانتهاء الساعة، وخفراء المصنع يلتصقون بالأبواب استعدادًا لغلقتها، ويد كل منهم على عصاته. ويهب العمال واقفين، واضعين ما تبقى من أكل في أيديهم متجهين للداخل يكملون الأكل في الطريق، وكانت الأحاديث كلها حول القبض. يقول بعضهم:

- حنرّوح النهارده ونسد اللي علينا، والباقي نديه لأهالينا، ونجيب معانا عيش بزيادة عشان ما نحتاجش.

وآخر:

- حاشوف أمي، زمانها مستنياني، وحاخذ لهم عيش خاص وحلاوة.

وآخر:

- أختي حتتجوز الليلة دي، حاخذ لها صابونة ممسكة ومنديل حرير استانبولي قالت لي عليه.

وآخر:

- حاشتري ربحة وانا مرّوح، واتريح بيها وانا داخل على البلد.

وآخر:

- إنتم بتحلموا؟ عاملين زي الفرخة الجعانة اللي بتحلم إنها في سوق الغلة، طيب استنوا لما تشوفوا حنقبض ولا مش حنقبض، دي دفاتر الغرامات اتملت

بأسامينا.. حيطلعوا لنا نص الفطرة خروب!

قرش تعريفه واحد

دخل كل منا عنبره. وقلت في نفسي: «حاقبض النهارده ثلاث برايز وقرشين صاغ، أحسن من الأول. حاقطع نص تذكرة بتلاثة تعريفه وتلاته مليم وأقول للكمساري أنا صغير.. ولأيه؟ يمكن يطوقني.. ما اقطع تذكرة بتلاثة صاغ ونص واقعد على الكرسي زي أي راجل وابد من الشباك، ولما يبجي الراجل اللي بيكشف على التذاكر أعطيها له وأنا مطمئن. ويبقى معايا بريزيتين وخمسة صاغ وتلاته تعريفه فكة أجيب بيهم هريسة لأختي وأنا مروّح، وأول ما أقابلها أروح مديها لها من غير ما حد يشوفني.. ما هي كانت بتجيب لي كل حاجة من الغيط، فليه أنا ما اخدلهاش حاجة معايا؟». أفكار كثيرة راودتني وأنا واقف على المكن غارق في التفكير. وإذا بأحد العمال يمر من خلف المكن ويزعق في أذني ويمسك بكتفي ويهزني هزًّا ويصرخ في أذني قائلاً: - المدير حيمر، خلي بالك.. بيرشوا الطرق.

انقطع تفكيري.. وتلفت حولي، فرأيت كثيرًا من العمال يسيرون حول المكن في تباطؤ شاردي الذهن. وأيقنت أنهم في وقتهم هذه يفكرون مثلما كنت أفكر.. النهارده القبض.. كل منهم يفكر في الأشياء التي يشتريها وهو مروّح البلد، وفي الأحباب، والأصدقاء الذين سيلتقي بهم ممن تركهم في القرية.. إنهم بالتأكيد يفكرون في هذا.. أو ربما هم يفكرون فيما سيحدث اليوم من تنقلات في السكن، ودفع ما عليهم من نقود؟ أم هم يفكرون فيما يجب أن يفعلوه إذا كان أهل المحلة في انتظارهم بالباب استعدادًا للاعتداء عليهم مثلما حدث بالأمس، وهل سيدخلون معهم في عراق؟ وهل سيكون هذا العراق تعطيلًا لهم عن السفر، وعن رؤية الأهل، والإتيان بالزوادة التي هي مصدر حياتهم لمدة خمسة عشر يومًا؟ أسئلة كثيرة راودتني عندما أطلقت

النظر في الوجوه.. وقلت في نفسي: «على أية حال، إنهم في وقتهم هذه لا بد أنهم يفكرون في أشياء كثيرة مثلي».

انتبهت للمكن خوفًا من أن يمر المدير ويجد المكن عطلان ويضربني. وبدأت أتحرك حول المكن بسرعة متفاديًا تقطيع الفتل ومحاولًا المحافظة على نظافة الأقمشة. وشعرت بإرهاق شديد من طول ساعات العمل. ونظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط وإذا عقاربها على الرابعة والنصف، فاضل لسه ثلاث ساعات ونصف الواحد حيفضل واقفهم على رجليه، الواحد راح يقع من طوله.. أقعد شوية؟ على إيه؟ المكن يقطع فتل ولا حاجة، والمدير يدخل يدور فيّ الضرب بالشلوت.. الواحد يستحمل شوية وما نعطيش ابن العويل فرصة يتحكم فينا. وتذكرت كلمة أخي عندما كان يقول: «لك يوم يا ظالم» - وهو شايل الغلق مع ناس كثير واخدهم العمدة يسدوا جسور البحر دون أجر. وقلت في نفسي: «هو إمتى الظلم ده حيروح؟».

ونظرت للساعة وكأن عقاربها لا تتحرك. وأطلت النظر فإذا بها الخامسة إلا ربع، فلم أصدق، وتوجهت نحوها بطيئًا بقواي المتهالكة، وحملت فيها للتأكد من أنها تدور، فوجدت عقاربها تتزحزح من حين لحين، وكأنهم اتفقوا معها على أن تسير ببطء لتطيل يوم العمل. وعدت إلى المكن أجرجر قدمي المتعبتين. ووقفت أتحرك خلف المكن وعياني لا تفارق الساعة في حركة عقاربها. حاولت أن أغض النظر عنها بالانهماك في العمل، ولكن الحنين للأهل، وكثرة ما انتابني من تفكير في أمي وإخواتي جعلني أطيل النظر في الساعة، لا تبارحها عياني، وتعود إليها كلما تلفت حولي. وسرت خلف المكن متبعمًا عقارب الساعة وهي تنتقل من دقيقة لأخرى. وعندما توقفت عند الخامسة والنصف شعرت بالنشاط يدب في جسمي عندما جاءني أحد العمال

المجاورين وقال: - خلاص، الرئيس طلعه في الإدارة عشان يجيب لنا فلوس القبض.

وتطلعت للوجوه وإذا كلها متجهة نحو الباب والبسمات تعلوها، والكل فرحان بقرب انتهاء يوم العمل، ويقرب موعد القبض. الجميع في حالة استعداد للوقوف في الصف عند دخول الرئيس للعنبر، وعمال النظافة يعملون في نشاط لكنس العنبر ورشه استعدادًا لمرور المدير، وعمال اللحمة يدفعون العربات أمامهم مسرعين، والمباشرون يلفون حول المكن، والعمال ينظرون إلى الباب بتلهف تارة، وإلى عقارب الساعة تارة أخرى.. عقارب الساعة تتحرك في تباطؤ غير مبالية. وإذا بالرئيس يدخل من الباب فتلمحه العيون القريبة وتزعق معلنة العمال الآخرين، مرددين بأصواتهم الصيحة المعتادة: «هوه.. هوه.. هوه».. أصوات جهورية غطت على كل ضجيج.. وحُيل إليّ أن الجدران تتزحزح. عمت الفرحة القلوب، والبسمات تعلو الشفاه. العمال يقذفون طواقيمهم في الهواء ويشقطنونها.. عمال تعدي من هنا وعمال تعدي من هناك في اتجاه الطريقة التي يسير فيها الرئيس ليروا بأعينهم النقود التي يحملها، وليطمئنوا بأنفسهم، وإذا بالرئيس يمر، فنلمح الكيس المكتوب عليه بالخط العريض «بنك مصر»، فتزداد القلوب طمأنينة. وعندما اقترب الرئيس مني، حملت بعيني، وشعرت بانقباضة تجتاح قلبي، إذ رأيت الكيس ليس مليئًا بالنقود. وقلت في نفسي: «دا الفلوس اللي في قلبه شوية، بقى الفلوس دي بس حتقضي كل العمال دي؟ مش معقول!».

وجاءني الولد الغريب يجري وشعره ملطخ بالزغبار وملابسه ملطخة بالزيوت. وعندما تقدم مني، أسرعت قائلاً: - إيه ده؟ مالك كده؟ عامل في نفسك كده ليه؟

فابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- مسحت المكن ونظفته من الزيوت، الرئيس قال لي كده.

واسترسل قائلاً:

- شفت؟ الرئيس جاب الفلوس.. حنقبض النهارده ونرّوح، وأمي تغسل لي الهدوم بالليل.

- وانت حترّوح كده بالهدوم المطينة دي؟

- أمال حاعمل إيه؟ آدي احنا حنرّوح بالليل ومفيش حد حيشوفنا، أومي حتغسلهم وأصبح من الصبح ألبسهم.

وهز رأسه وابتسم، وقال:

- المهم إن احنا حنرّوح النهارده.

- إنت شفت الكيس اللي مكتوب عليه «بنك مصر»؟

- شفته، بس الفلوس اللي فيه شوية صغيرين.

- يمكن الفلوس صحيحة؟!

- اسمع إحنا عايزين نتجدعن ونقف في أول الصف عشان نقبض ونلحق نساfer الليلة.

قالها وجري، والفرحة تملأ قلبه بقرب انتهاء اليوم والذهاب للأهل.

وقفت أترقب إلى أين يتجه الرئيس، وأين يجلس، حتى أبادر باحتلال مكان في الصف. وجلس الرئيس، وتجمع العمال من هنا وهناك بسرعة مذهلة، وكل منهم يقف وراء الآخر في صفوف منتظمة، فأسرعت أنا الآخر، وأخذت مكاني في الصف. وإذا بالرئيس يقف ويصدر أوامره لعمال الممكن أن يتركوا الصفوف ويذهب كل منهم إلى مكانه فورًا وإلا تعرض للعقاب، إلى حين المناداة عليهم بعد أن يقبض العمال الذين لا يقفون على مكان.

تسمرت في مكاني لا أتحرك. وقلت في نفسي: «إن هذه المدة التي تصرف لم أكن واقفًا فيها على مكان.. إن هذا الأمر ليس لي، بل لمن سبقوني في الوقوف على الممكن.. هو الرئيس عارف حاجة؟ حيقى مطهوم في الشغل ومش حياخد باله، عشان أقبض بدري وأروّح بدري وأبات في البلد الليلة.. أختي زمانها مستنياني، وأمي زمانها بتطبخ.. دا انا ما شमितش ريحة التقلية.. ما باكلش طبيخ.. زمانها بتطبخ عشاني».

وكلما فكرت في كل هذا ازدادت رغبتني في أن أترك مكاني وأذهب للصفوف الأولى وأخذ مكاني آخر بالقرب من الرئيس وأقبض بسرعة.. وحُيل إليّ أن القطار واقف في المحطة بيصفر، بيصفر للغريب يركب.. وقلت في نفسي: «على إيه؟ كل واحد نفسه يقبض وبروّح.. استنى.. كل تأخيرة وفيها خيرة».

وانتظرت في الصفوف فوجدتها تزداد طولًا.. وانتابني القلق.. خشيت أن يزعق الباجور على السفر دون أن أركب أنا فيه، وأمي تقلق.. وتطلّعت حولي بعينين زائغتين، وقلب متلهف، وإذا بي أجدني أقترب، والصفوف تتزحزح، والرئيس يسرع.. وعمال من بعيد واقفة شاردة الذهن، وآخرون يعدون الفلوس.. وأيدي تلوح بعيون دامعة.. وآخرون يلطمون على الخدود: - مفيش قبض! الشركة كلت فلوسنا!

وتعالى الهمسات، وقلت فى الحال: «أنا قلبى كان حاسس بأن كىس الفلوس ما كانش مليون.. الرؤساء ملأوا الدفاتر بالگرامات من يوم ما علقوا المنشور». وشعرت بقشعريرة، وقلت: «يا نهار أسود، أمال العمال اللى الشركة كلت عليهم الفلوس حىروحوا ازاي؟ دا مفيش ولا واحد معاه مليون، حياكلوا منين؟ دا كل واحد عامل حسابه إن النهارده القبض وحيرّوح يجيب الزوادة.. حيقولوا لأهاليهم إيه؟ حيسرقوا؟ وحيسرقوا ازاي دول فى الشغل؟». ودعيت: «يا رب ما أكونش منهم!».

وكلما اقتربت زاد الخوف فى قلبى. وحاولت أن أطمئن نفسى بقولى: «أنا خايف ليه؟ هوّ انا عملت حاجة؟ أنا اشتغلت كويس، ومفيش حد من الرؤساء أخذ اسمى، ومفيش حد جه ناحيتى. يمكن حد من العمال دول عمل حاجة». وغرقت فى التفكير، وإذا بي أجد نفسى واقفًا أمام الرئيس يزرق فىّ قائلاً: - اسمك؟ معاك ختم؟

- أيوه.

- هاته!

وأنا واقف مُنقبض.. ومددت يدي فى انتظار ما يعطيه لى، وعيناى مبحلقتان فى الكيس، وإذا الرئيس يمد يده ويعطينى الختم ومعه قرش تعريفه واحد. ووقفت أنتظر وبداى ممدودتان، فإذا بالرئيس يقول لى: - خلاص، إنت خدت فلوسك!

فقلت له:

- أنا أخذت قرش تعريفه واحد، ولم آخذ الباقي، ثلاث برايز وقرشين صاغ.. أنا حاسبهم.

قال:

- ملكش غير كده! امشي.

دارت بي الدنيا.. ووقفت زائغ العينين، وانا بابص في يدي في ذهول قائلاً: «أنا لسه ما قبضتش، دا لازم ناسي» وتطلعت يمينًا ويسارًا، وامتلت عيناى بالدموع ناظرًا للوجوه المرحه التي أسعدها الحظ وقبضت ما تستحقه كاملًا. ونظرت للتعريفه اللي في إيدي مرة ثانية، وقلت: «ده مش معقول.. أنا شغال مدة كاملة، ما بطلتش فيها ولا يوم، يبقى ليه أقبض قرش تعريفه؟! لازم الرئيس غلطان.. حاروح أقول له.. أمال حاروَّح البلد ازاي؟!». وإذا بالولد الغريب يقف في الصف أمام الرئيس وعيناه نحوي، وهو يهز رأسه في شبه تساؤل، ثم أعطى الرئيس الختم، فناوله الرئيس الفلوس كاملة: ثلاث برايز وخمسة تعريفه.. زي ما حسبنا. ووقف الولد الغريب يتفحص البرايز ويتأملها ويرنها في الأرض خوفًا من أن تكون مغشوشة. وقرب مني ويداه قابضة على الفلوس قائلاً: - مالك؟ إيه، ما قبضتش؟

- أبدًا.. إداني قرش تعريفه واحد!

- إزاي؟ روح له تاني، لازم غلطان، دا انا قبضت فلوسي كاملة.

فجن جنوني، واندفعت نحو الرئيس دون وعي زاعقًا: - إنت نسيت تديني الفلوس!

فلم ينتبه لي، ورد العمال الواقفون في الصف قائلين: - ما تعطلناش.. خلينا نقبض، خد دورك في الصف، خلينا نشوف احنا كمان حنقبض ولّا ما نقبضش!

والرئيس في مكانه لا يبدي اهتمامًا لصراخاتي.

وأخذت مكانًا في الصف، والعمال يتقدمون واحدًا وراء الآخر. ووقفت أمام الرئيس مرة أخرى. فنظر في وجهي قائلاً: - اسمك؟ معاك ختم؟

- أيوه.

- هات!

أعطيته له وقلبي يدق. وتأملته، ونظر لي قائلاً: - إنت قبضت. ختمك موجود قدامي أهه، جاي مرة تانية ليه؟

فصرخت عاليًا:

- أنا ما قبضتش.. العيال اللي ويايا قبضوا وخدوا فلوسهم كاملة. إديني فلوسي.. أمي مستنياني، حاقول لها إيه؟ إديني الفلوس ينوبك ثواب! ما عنديش ولا لقمة.. حارّوح ازاي؟! أمي حتضريني!

وزعق في وجهي قائلاً:

- امشي يا كلب! ملكش عندي فلوس!

وتشبثت به قائلاً:

- يا فندم إنت نسيّتي!

فدفعني بيده قائلاً:

- أهو ما بقاش إلا انت كمان حتتلامض! امشي! هات غيره.

وقلت: «أقف تاني في الصف، يمكن يكون من الزحمة غلطان، يمكن قلبه يحن. راح أقول له أبوبا ميت، مات وانا صغير، وأمي بتربيني، وهي عايزة فلوس عشان تصرف على إخواني، يمكن قلبه يرق.. حاقول له كل حاجة يمكن يعطيني الفلوس اللي باقية».

ووقفت أمامه مرة أخرى، ونظر لي قائلاً: - اسمك؟

فقلت له، فصمت لحظة وقال:

- إنت مش وقفت قدامي دلوقت؟ الاسم ده مر عليّ قبل كده!

- أيوه.

فشحب لونه، ومال وجهه إلى الاصفرار، ورفع يده إلى أعلى، وهب واقفاً، وكاد أن يهوي بها على وجهي، فملت جانباً. وصاح قائلاً: - عايز إيه يا كلب؟!

قلت:

- فلوسي.. الفلوس يا فندم! فلوسي ما أخذتهاش!!

وانفجرت باكياً واسترسلت:

- أبوبا ميت، وأمي عايزة فلوس! أمي رافضة تتجوز، وفي احتياج للقرش تصرفه على إخواني! اعمل معروف إديني فلوسي! أبوس رجلك!

أحنى الرئيس رأسه، وتراخت يدها.. وصمت لحظة، ثم قال: - أنا أعمل لك
إيه؟

- تعمل لي كل حاجة، إديني فلوسي!

وجلس الرجل يقلب في الورق بعد أن أخذ الختم من يدي.. ووقفت أجفف
الدموع بطرف كمي. وانهمك في البحث. وإذا بالمدير يدخل العنبر، ومن خلفه
شحاتة أبو دشيش، كبير مهندسي تركيب المكن، ويسود الذعر في العنبر،
وعمال تجري من هنا، وعمال تجري هناك لإدارة المكن.. والرئيس منهمك في
البحث وأنا واقف أمامه.. وعامل يقول: «عطلتنا عن القبض»، وآخر يقول:
«ما تسيبه يدور على أجرته». وتزداد الهمسات بين العمال، ويرتفع صوت من
الخلف قائلاً: «النار ما تحرقش إلا اللي ماسكها». وإذا بالرئيس يقول: - تعال
قرب، تعال هنا.. شوف بعينك.

كان يتكلم وهو يتلجلج لأن المدير بيمر.

- تعال شوف، اسمك ده؟ بص كويس.

قلت:

- أيوه.

قال:

- مكتوب إيه قدامه؟

وإذا بي أجد اسمي ومكتوب أمامه «المذكور حُصم عليه توب به عيوب،
والباقي له قرش تعريفة».

وقال الرئيس:

- سُفّت؟

قلت:

- توب؟! توب إيه اللي انا شايله؟! هو انا شايل حاجة؟ هوّ فين ده؟ أنا واقف
قدامك فاضي أهه.

فرد قائلاً:

- إنت حتستهيل؟ إنت عليك توب!

قلت:

- أنا ما علياش حاجة، ما خدتش حاجة والله العظيم!

فزقق في وجهي:

- إنت بوظت توب، واتخضم من حسابك.

قلت، والدموع تنساب من عيني:

- أنا ما بوظتش حاجة، أنا لسه واقف المدة دي على مكن، والمدة اللي فاتت
كانت باليومية، ما كنتش مسؤول عن مكن ولا عن حاجة، فليه يتخضم عليّ

التوب؟

فابتسم ابتسامة مريرة، وجذبني من يدي نحوه قائلاً: - إنت مسروع ليه؟ هدي
نفسك وحالاً تفهم.

- أفهم إيه، أنا عايز أروح!

فاسترسل قائلاً:

- التوب أصبح الآن ملكك، هوّ خلاص اتخضم حقه عليك.

قلت:

- طيب اديهولي.

- بعد أسبوع أو اتنين.

- أنا عايزه دلوقت.

فدفعني بيده قائلاً:

- إنت حتعطلني، أنا عرفتك إن التوب يصبح ملكك.

وابتعدت عنه، ووقفت أنظر له وهو يعد الفلوس وبقبض العمال بقلب حزين وعين باكية، ونظرت للعمال اللي بيقبضوا.. والعمال اللي اتقال لهم انخضم عليكم توب، رأيتهم وهم يلطمون. وأحسست أنني لست وحدي الذي أخذت الشركة نقوده، بل هناك عمال آخرون أكبر مني، وهم الآن يلطمون، وأنا أبكي. واتجهت نحوهم وقلت: - إنتم حتعملوا إيه؟

فلم يجيبوا. وقال أحدهم:

- حنعمل إيه؟! انخرب بيتنا!

وآخر:

- من يوم الرؤساء ما خدوا الدفاتر في إيديهم واحنا ما شفناش يوم هَنا!

قلت:

- حنعمل إيه دلوقت في الأتواب؟

فرد آخر وهو يجفف الدمع:

- نعمل إيه؟ هوَّ حد يقدر يتكلم؟

قلت:

- وحنروَّح ازاي؟

لم نكمل الحديث، وإذا بالمباشر يحضر ويدفع كلاً في اتجاه قائلاً: - المدير بيمر.. يا كلاب!

فتساندت على جانب إحدى الماكينات، ونبضات قلبي ترتفع، وقلت في نفسي: «المدير بيمر؟ طيب ليه ما روحلوش؟ حيعمل فيَّ إيه؟ حاقول له هوَّ كمان إن أبويا ميت، يمكن قلبه يرق.. حيرفدني؟.. يرفدني ليه؟ هو اللي يشتكي يفصلوه؟ أنا حاقف قدامه بأدب، وأحط إيدي جنبي بعد أن أضرب له التعظيم، وأحاول أبوس إيده يمكن يأمر ويديني الفلوس عشان أروح أجيب الزوادة.. أمال حاكل منين؟ ما هو أنا لازم أعمل كده.. إيش رماك ع المر، الأمر منه.. حيصربني قلم، أو يضريني شلوت، حاستحمل وأفضل واقف وأقول له أنا يتيم، أبويا مات وأنا صغير، مات وما سابش لنا حاجة ناكل منها.. يمكن قلبه يحن.» وبقيت واقفاً في مكاني، وعيناى تتبعان المدير وهو يدخل

من طرقة ويخرج من أخرى، ويداه متشابكتان خلف ظهره، ورأسه كثيرة الاهتزاز من كثرة التطلع للماكينات، وكلما اقترب مني ابتعدت عنه.

وقد تصلبت عيناى.. ووقف بجانبى أحد العمال فزاد خوف قلبى. وقلت: «دا مكشر.. دا ما بيتسمش.. دا بيقرش على نيايه.. يا نهار أسود! حاروح له إزاي؟ أموت من الجوع؟ مش معقول.. حاروح له وزى ما يحصل».

وإذا بالمدير يتجه نحو المكتب المخصص له في عنبر النسيج. ووقفت أنظر للوجوه، وعيناى الدامعتان لا تريان شيئًا. واقترب منى عدد من العمال قائلين:
- مالك كده بتعيّط؟

- باعيّط على حالى، الشركة خدت فلوسي.

- هو انت لوحدك اللي مظلوم؟ فيه ناس كثير زيك كلت الشركة فلوسهم.

- هوّ ليه ما يجوش نروح سوا المكتب نشتكى؟

- الشكوى لغير الله مذلة، هوّ فيه حد ينصف الغلبان؟

قلت:

- نعمل إيه؟ لازم نروح ونقول له.. يمكن قلبه يحن.

فرد أحدهم:

- مين يقرا ومين يسمع؟!

قلت:

- نعمل اللي علينا، ما يموتش حق وراه مطالب، الرئيس قال حنعطيكم
الأتواب.

فرد أحدهم:

- يوم الحكومة بسنة.. هيَّ النار بتحرق إلا اللي ماسكها؟ ما دام همَّ بياكلوا،
يبقى خلاص.. دا المدير بيمر وملغمط بدلته ريحة. جاي واكل وشبعان!

قلت:

- أنا حاروح أقول له كل حاجة قبل ما يروِّح.. فاضل ساعة.. تعالوا معايا.

وإذا بهم يرفضون قائلين:

- كفاية بلوى واحدة، بلاش يبقوا اتنين.

ووجدت نفسي مشتت التفكير، أكلم نفسي قائلاً: «أمي وأختي زمانهم
مستنيين.. مستنيين الهريسة والمنديل أبو أوية». وزاد حيني إلى قريتي.
واندفعت بلا وعي تاركًا العمال.

اندفعت إلى الداخل غير عابئ بما قد يحدث. وإذا برجل ضخم طويل القامة
أسود البشرة حاد النظرات له شارب ضخم وجلباب من الدبلان الأبيض،
وعلى رأسه طاقيه ولبس حذاء غليظاً.. وعندما تقدمت منه صرخ فيَّ قائلاً: -
وقف عندك! إوعى تتحرك! إيه حدفك هنا؟

قلت:

- الفلوس.. جاي أشتكي.

قال:

- ممنوع.

- ممنوع ليه؟

- روح لرؤسائك في العنبر.

- رُحِت ما عملوليش حاجة.. سيبيني أشتكى له!

وزعقت عاليًا مُستغيثًا:

- مفيش قدامي غيره، مفيش حد أشتكى له.. أهو قاعد جوّه أهه.. قاعد

قدامي، أنا شايفه من البنور.. يا حضرة المدير!

والرجل الضخم الجثة يكاد يكتم أنفاسي قائلاً: - احرص يا ابن الجزمة، حتقطع

عيشي!

- عيشك إيه؟ يا حضرة المدير!

كنت أزعق كالمجنون بأصوات عالية متوالية، وكانت أول مرة عامل يدخل

فيها مكتب المدير، وهذا ما أذهل الفرّاش.. وإذا بالباب يُفتح بعنف والمدير

يخرج ويقف بالباب زاعقًا: - إيه الدوشة دي؟

قال الفرّاش وهو يتجه نحوه مهرولاً متلعثمًا في كلامه: - عيل يا سعادة البيه!

جيت أحوشه ما انحاشش. حاولت أكتم نفسه اتفلفص مني وزعّق. والله لولا

سعادتك جيت ما كان حيفلت من إيدي!

التوب

زعق المدير فيّ بصوت جهوري:

- خد هنا، إيه جرّأك على الدخول؟

اتجهت نحوه في تباطؤ:

- أنا جاي أشتكي لك، ربنا يخليك!

كانت الكلمات تخرج سريعة، كنت خائفاً من أن يدخل دون أن يسمع شكواي. وعندما سمع أن أبوبا ميت وأني باجري على إخوانتي، نظر لي طوبلاً وصمت، وأخذني من يدي ودخل المكتب. ووقفت أنهنه بالبكاء، شارحاً ما حدث. فقال للفرّاش: - انده للرئيس.

وبقيت واقفاً أمامه، واضعاً يدي بجانبني كما كنت أقف أمام العريف. بقيت واقفاً أمامه أختلس النظرات إلى الحجرة دون حركة تلفت الأنظار. كان بالحجرة مكتب ضخم، وبجواره عدد من الكراسي الخرزان، وفي صدر الحجرة صورتان كبيرتان مكتوب على إحداهما «أحمد فؤاد - ملك مصر»، وعلى الأخرى «طلعت حرب». وكانت الحجرة مفروشة ببساط متعدد الألوان. ومن خلال النظرات الخاطفة، رأيت العمال من الشباك يرفعون هاماتهم عاليًا يختلسون النظرات نحوي، والبعض يصفق بيديه في استغراب، والبعض يختفي خلف المكن ليطليل النظر لي بعيداً عن أعين الرؤساء. وامتلات الطرقة القريبة من المكتب بعالم لا يُعد. كان أكثر المتحركين هما الولد الغريب والولد الصفطي.. كانا يتحركان في قلق خائفين من أن ينالني أذى.

بعد قليل، جاء الرئيس. رأيت من الشباك المطل على العنبر، كما رأيت العمال وهم يخفون أنفسهم عندما رأوه آتياً. ودخل الرئيس وتحت باطه أوراق كثيرة. عندما وقف أمام المدير حيّاه بالتعظيم. وقف ويداه جانبه، وكان وجهه مُحْتَقَنًا وخاصة عندما رأني واقفًا. وبادره المدير قائلاً: - إيه شكوى الولد ده؟ بيقول إنه حُصم عليه التوب.

وتلعثم الرئيس، وهو ينظر لي قائلاً: - أنا مش قلت لك؟ أنا مش وريت لك الدفاتر؟

قلت:

- أنا عاوز فلوس.. مليش دعوة.. أنا أول مرة أقف فيها على الممكن!

ولاحظ المدير لعثمة الرئيس، فصاح بصوت جهوري: - هات الورق.

واتجه الرئيس نحوه مُسرِعًا ورأسه في الأرض، ووقف بجواره مُنْحِنِيًا، واشتدت ضربات قلبي، وخشيت أن يقتنع المدير بكلامه، فزعقت كالخائف: - أنا مليش دعوة.. أنا عايز الفلوس أروِّح بيها!

نظر إليَّ المدير بعينيه الحادتين، وقال: - امسح الدموع وقرب قدامي هنا.

وتقدمت خطوة وأنا أشعر أن مفاصلي سابت. وقال: - إحنا رايعين ندي لك التوب.. حنديهولك النهارده.. حتروح تستلمه دلوقت. دي أول مرة وآخر مرة تدخل فيها مكتبي!

ولم تدخل كلماته الأخيرة في ذهني بقدر ما رنت كلماته الأولى. وأحسست بالخوف يفارقني، وحلت الطمأنينة، وكدت أطيّر من الفرح، وانهمرت الدموع

من عيني.

وقذف المدير بورقة مكتوبة على المكتب، فالتقطتها بيدي بحركة آلية،
واندفعت مُسرِّعًا نحو الباب، وكلمات تخرج من فمي دون أن أعرف لها
معنى: - ربنا يطول في عمرك.. ربنا يجعلك عونًا للمظلومين.

ولم ترَ عيناى الباب واتجهت نحو أحد الشبابيك ظنًا منى أنه الباب، وكدت
أقذف نفسي منه، لولا صرخة عالية من الخلف نهتني.. كانت هي صرخة
المدير. وأخذني الرئيس من يدي، وسرت معه كالأعمى قابضًا بيدي على
الورقة دون أن أعرف ما كتب.

وفتح الباب.. ولم أتمالك نفسي.. ولم أمر على السلم بطيئًا بل قفزت
الدرجات قفزًا.. وأمام الباب وجدت الولد الغريب والولد السيد الصفطي،
ومن خلفهما عبد العظيم وعمال كثيرون ممن كانوا مختبئين خلف الممكن،
وقد خرجوا لرؤيتي ومعرفة وسماع ما قد حدث، والتفوا حولي متسائلين.

ولم تمر لحظة إلا وتجمعت أعداد كبيرة من العمال الذين حُصمت عليهم
الأتواب. وعندما لَوَّحت لهم بالورقة اكتملت فرحة الولد الغريب والولد السيد
الصفطي، وهلل عبد العظيم وكاد أن يرفعني من على الأرض. وكبت وجوه
أخرى، هي وجوه كل من خصمت عليهم الأتواب. ودارت همسات سريعة
عاجلة من الأفواه.

- عيل دخل للمدير وما خافش، واحنا عاملين زي الشحطة وخفنا نخش!

ولم أستمع لباقي الكلمات، وعدوت نحو المخازن مُسرِّعًا قبل أن تغلق،
وخلفي يعدو الولد الغريب. وفي المخزن ناولت الرئيس الورقة قائلًا له: - دي

من عند المدير.

أضاء الرئيس لمبة كانت على المكتب، وتحت الضوء الساطع فحص الورقة، وهب واقفًا، وفتح حجرة فسيحة فيها أكوام من الأتواب، وعلى الأرض كانت أتواب كثيرة مترصصة مكتوب على كل منها اسم صاحبها والمبلغ المخصوص، واستمر يفرز الورق الملصق على الأتواب المرصصة، وأنا أسير خلفه مُتطلعًا مُتلهفًا إلى رؤية اسمي، وإذا به يقف عند أحد الأتواب قائلاً: - هذا هو توبك.

فحملته على كتفي وسرت في اتجاه العنبر.

كان التوب ثقيلًا، فتبادلت حمله مع الولد الغريب. وفي العنبر تجمع العمال حولي، وقولت بالفرح. ووقف كثير منهم يتفحصون الثوب، وآخرون وقفوا والدموع تسيل من عيونهم موجهين السباب لبعضهم قائلين: - عيل ومقاوح التيار أهو.. استلم التوب وحيرّوح.. وأدي احنا الواحد منا حيتفلق نصين.. واقفين قدامه نعيط والواحد منا زي الفلق وما قدرش يعمل حاجة!

وأخر يقول:

- ده ما جابتوش ولّادة.. دا عمل بالمثل اللي بيقول «اسحلب لما تتمكن».. أهو اسحلب لما استلم التوب قبل كل الناس. حد كان يقدر يخش للمدير؟! هوّ دخل! دا احنا لما بنشوفه بنتفض من الخوف.

وأخر:

- روح الله يحميك لأمك.. عيل لكن زي الراجل.

قلت:

- لو كنتم جيتم معايا كنتم خدتم أتوابكم.. أنا قلت لكم، لكنكم خفتم.

وإذا بالمواتير تتوقف، والسيور تسير في تباطؤ شديد، وعجلات الماكينات السريعة تتوقف معلنة انتهاء اليوم. والعمال يزداد تجمعهم حولي. الكل يتساءل وأنا أجيب، والعرق يتصبب من جيني.

وفتح الباب. وخرجت دون أن أقابل زميلي عامل وردية الليل. خرجت من العنبر والفرحة تملأ قلبي بقرب الذهاب إلى البلد، خاصة بعد أن أخذت التوب. وسرت، وخلفي أعداد كبيرة من العمال. والجميع راغبون في معرفة ما سأفعله بالتوب، ليهيئوا أنفسهم هم الآخرون عندما يتسلمون أتوابهم. ولهذا ساروا ورائي ولم يتركوني. كنت أسير بينهم زي الحاوي اللي بتتفرج عليه الناس. عمال لا أعرفهم من مختلف العنابر يتساءلون وبتهامسون قائلين: - إيه الولد اللي شايل التوب على كتفه في قلب المصنع ده؟ مش خايف؟

أحدهم يقول:

- دلوقت الغفر على الباب حيحوشوه.

وآخر يقول:

- دا مكتوب عليه اسمه.

وآخر يرد:

- دا مش لوحده، هناك غيره لم يستلموا أتوابهم بعد، بس هو دخل للمدير واشتكى له فأمر بصرفه في الحال.

وازدادت الهمسات:

- الواد ده دخل للمدير ووقف قدامه؟ إزاي؟! دا لما المدير بيخش بيهتز العنبر،
ويخيل للواحد إن الماكينات تتزحج من مكانها، دا باين عليه جاسر.

وأمام الباب، اتلم عليّ الخفر قائلين: - إيه ده؟ تعال يا واد هنا.. هيّ وكالة من
غير بواب يا لص؟ إنت طالع كده تتمخطر وشايل التوب؟! هوّ مفيش حرّاس
ولّا إيه؟!

قلت:

- ما تقولش كده، هوّ اللي بيسرق حاجة بيشيلها على كتفه؟ إوعى تقول كده!

فردوا قائلين:

- يلاً يا لص على المكتب، على مكتب الضابط.

ومسكني أحدهم من جلبابي وزر على رقبتني وهو يكاد يخنقني، وآخر سحبنني
من يدي، والباقي يدفعونني من الخلف مُرددين: - ما مسكناش حد من زمان..
دي فرصة.

وحاولت أن أتفلص من أيديهم، ولكنهم كانوا أقوياء.

كنت أصيح:

- سيبوني وانا أمشي معاكم.

ولكنهم لم يعيروا كلماتي اهتمامًا. واستمروا يجرجرونني. وفي المكتب، كان الضابط جالسًا على الكرسي مجعوسًا، ورأسه تستند على الحائط. دخل الخفر بجلبه شديدة، وأحذيتهم الغليظة تدك الأرض دكًا. واصطفوا أمامه رافعين أيديهم بالتعظيم. وقال أحدهم: - حرامي يا بيه.. مسكناه عند الباب.

فصرخت عاليًا والدموع تتساقط من عيني: - ما تقولش كده.. أنا مش حرامي.. الشركة خصمت عليَّ حقه. والله العظيم التوب ده بتاعي. حرام عليك، أنا يتيم وباجري على إخواني.. سيوني عشان ألحق الباجور أروح وأجيب زوادة!

وذهل الضابط للمنظر. وتأملني طويلًا. ورد قائلًا: - ما بناكلش من الكلام ده يا شاطر. قول لي جبتة مين وانا أسيبك. مين اللي اداه لك؟

قلت:

- المدير مضى عليه.. مدير النسيج.. اسأله وهو يقول لك!

كنت أتكلم كالواثق، وهذا ما أذهله. ووضع يده على التلفون وسأل. وإذا بالأمر يقول: «اتركوه.. اتركوه.. التوب الآن ملكه.. التوب مكتوب على طرفه ورقة مكتوب عليها عدد الياردات والتمن».

وأخذ الضابط يبحث ويُقلِّب، وأخيرًا قال: - اتركوه.. وصلوه للباب.. التوب الآن ملكه.. هكذا قال الرؤساء.

وخرجت من المكتب في اعتزاز.. وعند الباب الخارجي كانت جموع العمال تنتظر مُتلهفة. ولما رأوني عمت الفرحة قلوبهم وهللوا قائلين: - وجه التوب! وجه التوب!

ورأيت ابتسامة العطف ترتسم على شفاه الواقفين عندما رأوني آتياً نحوهم.
ولاحظت الولد الغريب وهو يميل من وراء ظهر عبد العظيم ويهمس بصوت
مسموع قائلاً: - أهه.. أهه.. إحنا حنروح، وكل واحد حيشوف أمه.

وسأل عبد العظيم قائلاً:

- إنت حتعمل إيه؟

قلت:

- يلاً نبيعه.

وفي أحد المحلات، دخلت رافعاً التوب على كتفي. وعندما رأني صاحب
المحل اقترب مني، ونظر للعمال الواقفين وقال: - إيه ده؟

قلت:

- توب قماش من الشركة.

- جايه ليه؟

- أبيعه.

- سارقه؟

- سارقه إيه؟! ما تقولش كده!

- تبيعه بكام؟

- الشركة خصمت عليّ كل ماهيتي، ما سابتش ليّ ولا مليم هوّ انا حاكسب منه؟

قال صاحب المحل:

- تبيعه بخمستاشر قرش؟

- توب بحاله بخمستاشر قرش ده شوية.

- تمتاشر.

- هيّ نهية؟ هوّ فطيس؟ دا أجر المدة!

- بثمانية وعشرين.

قلت:

- دول شوية.

- بتلاتين.

وعندئذ أدركت أن الثوب غالي، وتمسّكت بالزيادة أكثر.

قال البياع:

- بخمسة وتلاتين.

فخطفته من يده، ودخلت عند راجل آخر. ونحن على باب المحل، همس في أذني عبد العظيم قائلاً: - ما تستعجلش، كلما طالبت بزيادة كل ما كان أحسن.

وعندما رأي صاحب المحل، قال:

- حَتْبِيعَه؟

- أَيُوه.

- اتفصل لك بكام؟

- بخمس برايز ونص، وما رضيتش أبيعه، أصل ما جابش ثمنه.

قال:

- أربع برايز.

فابتسمت، وملأ الدم وجهي، وقلت:

- زوّد شوية.

فقال بهدوء ملحوظ:

- كلمة واحدة مش حاغَيِّرها.. خمس برايز إلا قرشين صاغ.

فهمس الغريب والولد السيد الصفطي وهما لا يُصدّقان: - اقبل.. اقبل..

لاحسن يرجع في كلامه.

فاتجهت نحوه قائلاً بصوت مُتلهف عالٍ: - هات!

فتح الدرج، وبدأ يعد.. بريزة، اتنين، ثلاثة.. خمسة إلا قرشين صاغ. ومددت

يدي وقلبي ترتفع دقاته. وخرجت من المحل وكان الضوء أمامي يزدهي

ويزهو، وتطلعت في المحلات راغبًا في شراء كل ما فيها بالخمس برايز إلا
قرشين صاع.

الزوادة من البلد

كانت المحطة مزدحمة، والميدان الواصل إليها أكثر ازدحامًا بالعمال - بملابسهم المهلهلة - والباعة المتجولين من رجال ونساء بالجلابيب الزرقاء والسوداء، يمرون بينهم ويبيعون ما تبقى معهم من أشياء تالفة أو قابلة للتلف.. كانوا ينادون بأصوات عالية جعلتنا نسد آذاننا. وكان بعض العمال الواقفين يقولون لهم: - ابعدوا عنا.. دماغتنا واجعانا من دوشة الممكن.. نحن لا نرغب في شراء الفواكه التالفة فهي لن تصل إلى أهالينا سالمة.

وفي وسط هذا الضجيج وعويل الباعة نسمع صوت جرس رفيع يواصل دقاته، وهذه الدقات هي إعلان فتح شباك قطع التذاكر.. واصطف العمال واحدًا وراء الآخر، وكل منهم يحمل القفة أو الشوال الذي يستحضر فيه الزوادة من البلد، وإذا بصوت يرتفع من بعيد: - كل واحد ياخذ باله من جيبه.. فيه عمال اتسرقت ماهيتها!

تحسست جيبتي، جيب جلابي لأطمئن نفسي. ولكي أزداد اطمئنانًا وضعت النقود في يدي دون أن يشعر بذلك أحد، وقلت في نفسي: «وما اشتريته لأختي موضوع في آخر القفة، والقفة قدامي، ماسكها في إيدي، ومفيش حد حيقدر يبجي ناحيتها».

وبينما أنا غارق في التفكير إذ بالولد الغريب يزعم قائلًا: - أنا قربت على شباك قطع التذاكر.

- اقطع لي معاك تذكرة عشان أقعد بيها على الكرسي وأبص من الشباك.

فرد الولد الغريب:

- ليه يعني؟ هُوَ علشان ما اتفتحت لك طاقة القدر وقبضت فلوس كثير تقوم تقعد على الكرسي؟! إحنا غلابة.. أنا حاقطع إنصاص تذاكر ولما الراجل يبجي نبقى نتني رجلينا ونبان قدامه صغيرين! ولو كنا ما نقطعش ونستخبي تحت الكراسي يبقى أحسن.. النهارده زحمة.

قطعت الكلام خوفًا من أن ينتبه لي أحد وخاصة بعد أن قال الولد الغريب «إنت قبضت فلوس كثير». خفت أن يسرقني أحد.. ولم أستمر في الصفوف المتراصة طويلًا، فقد وصل الولد الغريب إلى الشباك وتمكن من قطع التذاكر، فتركت الصفوف مهللاً.. وبدي تقبض على الفلوس بقوة.

وعلى الرصيف، كانت الجموع البشرية متراصة بغير عدد، وأخذت مكاني بينهم.. كانوا يتطلعون في قلق منتظرين مجيء القطار. وإذا برجل له وجه أسمر، ضخم الجثة، قصير القامة، يلبس بدلة صفراء، يحمل فانوسًا في يده ويسير على الرصيف معلنًا قرب مجيء القطار، وذهب ليضيء له الطريق عند دخوله المحطة.. واتجهت الأنظار في الاتجاه الذي يسير فيه الرجل ليروا القطار وهو آتٍ من بعيد.

لم تكن كثير من الوجوه مبتسمة، بل كانت مكتئبة.. وجوه حزينة لا تنبس بكلمة.. كانوا واقفين شاردي الذهن، وكأنهم يقولون لأنفسهم: «كيف نلتقي بأهالينا؟! كيف ندخل عليهم وليس معنا نقود؟! وماذا نقول لهم?!».

ودق الجرس دقتين متواصلتين يُنبئ الواقفين بدخول القطار.. ودب الهرج، وعمت الفوضى.. وبدأ كل منهم يقذف الآخرين إلى الخلف.. وتعالى المناداة.. كل واحد ينادي على كل من يعرفه.. وإذا بالقطار يدخل، والدخان يتصاعد من القاطرة السوداء.. وبدأ كل منهم يحدف نفسه من الشباك إلى داخل

العربات، محدثين ضجيجًا شديدًا يصم الآذان وهم يركبون.. وكدنا نضيع تحت أقدامهم لولا أن أحد الرجال رفعنا وقذف بنا من أحد الشبايبك. وازدحم القطار، وامتلاً بالركاب، واشتدت الحرارة، وتصيب العرق.

وزعق القطار مُعلتًا السفر، وسار بطيئًا بطيئًا. ووقفت أتطلع من الشباك، وحققت الأمنية. ووقفت أتطلع إلى المنازل، والأطفال وهم واقفون على قارعة الطريق يلوحون بأيديهم. وبدأ القطار يسرع، والأطفال يطلون من الشبايبك، ومداخن المصانع العالية تقذف بالدخان في الهواء. وزاد القطار من سرعته المذهلة وهو يطوي الأرض طيًّا. ولم يتوقف القطار في المحطات إلا قليلًا. ومن على بُعد، رأيت مئذنة السيد البدوي تعلوها الكهرباء المضيئة. وهللنا لقرب الوصول. ووقف القطار في المحطة، محطة طنطا.

أسرعنا بالنزول، وكان علينا أن نقطع مسافة ثلاثة كيلومترات مشيًا على الأقدام. وفي الطريق إلى البلد، كانت الدنيا ليلاً والسماء صافية، والأرض المزروعة عليها عيدان الذرة وسنابلها وأوراقها الخضراء تتمايل مع الريح. كان كل ما يخيفنا على طول الطريق هو الوصول إلى أشجار الجميز كثيرة الأفرع لأنها تحجب ضوء القمر، ولكننا اجتزناها بسلام رغم الرعشة وانقباضة القلب التي انتابتنا في الظلام.

كانت قرينتا، ككل القرى، لا ينبعث منها ضوء بعد صلاة العشاء، في هذا الوقت، تكون القرى ساكنة هادئة والناس فيها نيام من كثرة عناء العمل في الحقل. وقلت في نفسي: «زمان أُمي نائمة، وكذا إخواتي.. كانوا في انتظاري، ولكنني تأخرت.. زمانهم نائمون على المصطبة اللي في وسط البيت بالقرب من الباب، فارشين الحصيرة. أُمي نومها خفيف، مفيش حد من

إخواتي دلوقت بَرّه، عشان كده ساعة ما أخبط خبطة واحدة أمي راح تعرف وحتصحى.. أختي لازم تكون صاحبة لأنها بالتأكيد في انتظاري».

ومن على بُعد خطوات من القرية سمعت أصوات عيال صغيرين يلعبون فقلت: «يمكن أختي تكون فيهم.. دول بيلعبوا في أول البلد.. كانوا بيلعبوا عند الجامع.. طيب ليه بيلعبوا في أول البلد؟! يمكن تكون أختي في انتظاري زي لما كنت أنا وهي نستنى أمي في أول البلد وهي جاية من طنطا ونخطف من على رأسها اللي هيّ جايها. هيّ عارفة إني جاي.. يمكن تكون جابت العيال تلعب معاها عشان تستناني من بعيد، وتجري تقول لأمي». وكلما اقتربت من القرية بانّت الأصوات واستطعت أن أميز بعضها. كان صوت البنت رقية الذي تعودت سماعه عندما كانت تأتي عندنا كثيرًا وتلعب معي «جمال الملحة» قبل أن أذهب للعمل في المصنع. رقية صاحبة أختي، وهي التي مسكتني عندما كنت راجع من المحلة بعدما هربت. إنها لم تتعود للعب هنا. لا بد أنها في انتظاري، وأختي لازم معاها.

واقتربنا من الطريق. وعندما وصلنا إلى مشارف القرية في اتجاه الدخول وكل منا يحمل قفته، إذا بالعيال تجري نحونا مسرعين، متأملين وجوهنا في الظلام، قائلين: - مين دول؟ اظهر وبان عليك الأمان!

وإذا بصوت يصرخ:

- أخويا.. أخويا فكري.. هيه.. هيه.. أنا مستنياك.. هيه.. هيه.. حاجري أقول
لأمي!

وتوالت الصرخات والمناداة. ولم تتمالك أختي نفسها، فتركتني وجرت على بيتنا، وكنت أسمعها وهي تجري على طول الطريق. كنت أسمع صوتها وهي

تعدو مسرعة يشق أذني من بعيد: - أخويا جه ياما...

ولم يبقَ معي إلا البت رقية والبت زينب العرجة والبت هنا، وشالوا منا القفة.

وعلى صوت أختي العالي فُتحت أبواب، وخرجت نساء كثيرة قائلات: - إيه يا
ولاد؟ إيه اللي حصل؟ إيه الصريخ ده؟!

فردت البت رقية قائلة:

- مفيش.. مفيش حاجة.. دا الواد ابن أمك السيدة البناية جه.. جه من الغربية.

وإذا بالنسوة يهجمن علينا وبأخذتنا بالحضن وهن يقلن: - ليه يا ولاد كده؟! ليه
تشحططوا قلوب أهاليكم؟! دا أهاليكم كانوا هنا دلوقت مستنينكم جنب
الحيطة.. يا دوب لسه دلوقت مروّحين!

ونحن في أحضان النسوة، إذا بالأصوات تأتي من بعيد. ولم تكن هذه الأصوات
سوى صوت أختي خسكية.. كانت أمي تسبقها في الجري وهي تقول بصوت
مرتفع: - يا ابني.. يا حبيبي.. هوّ فين؟ هوّ فين يا ولاد؟ أنا مانيش شايفة!

وأختي خسكية تقول:

- قدام.. قدام يا ولية.

لم تتمالك أمي نفسها عندما وجدتنني جالسًا والنسوة حولنا، فانكفت عليّ
وهي تقول: - آه يا ابني! آه يا حبيبي!

وضممتني في حضنها، ودموعها الساخنة تنساب وتبلل خدي وهي تُقبلني من
كل مكان في وجهي. وجاءت أيضًا أم الولد الغريب وأم الولد السيد الصفطي

وإخوته.

حاولت أُمي أن تحملني، ولكنني عصلجت، فأخذتني من يدي. وفي الطريق إلى المنزل مالت أختي على أذني قائلة: - أمك قطعت لك جلاية حلوة وجابتها لك من عند الخياط.

وعندما دخلنا الحارة، رأيت كثيرًا من النساء واقفات على الأبواب، يحملن المشاعل ليضئن الطريق. والتفغن حولي. ودخلت المنزل، وقعدنا على الحصيرة، وإذا بالبنت رقية تلتصق بي، وتجلس بجواري لا تفارق عيناها وجهي. وإذا بأُمي تقول: - قومي يا بت انت وهي، قومي يا بت يا خسكية.. روعي يا بت اندهي خالتك عفا الله.. يا ليلة بيضة.. يا ليلة بيضة الليلة دي.. البيت بتاعنا نور.

وأخي يقول:

- هاتوا يا ولاد العشا لما نتعشى مع أخونا.

وإذا بخالتي عفا الله تأتي وعلى رأسها مترد لبن، وعلى وشه كوم قشدة، وهي تزعق: - بالسلامة.. بالسلامة.. حضن.. حضن لخالتك يا وله.. حضن بالقوي!

وأُمي تقول:

- إلهي ما يتحرقش لكي قلب على غالي يا اختي يا عفا الله.. يا رب.

وناس كثير تأتي، والمصطبة تترص عليها النسوان، والرجالة في الحوش، وأُمي تهيص وتجري من هنا لهنالك وهي تقول: - ولعي الكانون.. ولعي الكانون

يا بت.. حطي عليه ميه سخنيها عشان يستحمى.

وأختي تقول:

- بالليل يا ولية؟! لاحسن أخويا يستهوى.. يستحمى عند النوم.

وأضيء المنزل، وكاد يُشبه الفرح. والبت رقية تغمزني باستمرار وتشدني للجلوس بجانبها. وبين الحين والحين تهمس في أذني قائلة: - اتحجج لهم بأي حاجة عشان نطلع برّه سوا.

وبعد إلحاح وتلكؤ.. استجبت. وقبل أن نذهب، همست في أذني: - جدا الجامع.. على الكوم العالي حاستنى.

وانتهزت فرص انشغال أمي مع النسوة بالحديث، وتسلفت خارجًا دون أن تشعر أمي. وفي المكان المحدد، التقينا هناك. كان القمر قد ملأ المكان بنوره، وكان السائر في الطريق يستطيع أن يرى ما فوق الكوم. وتنبهت رقية لذلك، وعلى جانب الكوم، وفي مكان لا يستطيع السائر أن يراه، جلست، ومدت لي يدها، وتكلمت بصوت يشبه الهمس: - اقعد.. اقعد قبل ما حد يبجي ويشوفنا.

ونظرت لي بعينين شبه ناعستين. واستطعت على ضوء القمر أن أتبين وجهها الأبيض كاللبن، وعينيها السوداوين الواسعتين ذات الرموش الطويلة والحواجب الثقيلة التي بعثت الراحة والطمأنينة إلى قلبي عندما تطلعت وأطالت النظر لي وهي تقول: - إنت جيت لأختك إيه؟

- منديل.

- منديل جنسه إيه؟

- منديل بترتر.

- وإيه كمان؟

- وعيش وحلاوة وفلافل.. وهريسة كمان.

فقال:

- وانا جبت لي إيه؟ ما جبتليش منديل زي أختك؟

- نسيت.

- نسيت؟ هوّ اللي بيروح المحلة الكبرى بالعجل ينسى صحابه؟ هوّ انت نسيت
لما كنت آجي عندكم في البيت وأشيلك على ظهري وألف بيك ع الفرن،
وأعمل لك جمل؟ دا ما حدش ركب عليّ إلا انت.. تقوم بالعجل كده تنساني؟!

كادت أن تبكي مع أنها أكبر مني.. كانت في حوالي الثالثة عشرة أو الرابعة
عشرة.. اقتربت منها محاولاً أن أهدئها. وبعد فترة صمت، عادت وتكلّمت: - أنا
زعلانة منك! أنا كنت فاكرة إنك رايح تجيب لي معاك حاجة!

واسترسلت قائلة:

- اسمع.. هيّ المحلة الكبيرة منين؟ هيّ قرب النبي؟ هيّ بينها وبينه أد إيه؟
مش هيّ اللي بيشتروا الحجاج منها الدبل والخواتم والمناديل الحرير وهمّ
جايين؟

فابتسمت وقلت:

- إيه ده؟ إيش جاب النبي هنا؟! واللي بيروح يحج بيقعد ست شهور؟! وانا رحت المحلة الكبيرة ماشي؟!

فدقت على صدرها وهي تقول:

- يا خرابي! رحتها ماشي على رجلك؟! ورجلك ما ورمتش؟! وهي زي بلدنا كده؟

- هوّ إيه؟! دي زي طنطا.. فيها سرايات، وعدد الجوامع فيها زي عدد أيام السنة، ٣٦٦ جامع.

- وانت بتعمل إيه هناك؟ بتلعب إستغماية؟

- إستغماية إيه؟! هوّ الواحد بيملك يهرش؟ أنا باشتغل.. باشتغل هناك على الممكن.

- ما بتلعبش هناك؟

- لا.. أنا واقف ع الممكن، باشتغل قماش زي اللي انت لابساه ده.

- يا خبر أبيض! بتشتغل قماش زي ده؟! هات إيدك.

ورفعت يدي على صدرها، وقالت:

- حسّس! حسّس هنا.. ناعم زي ده؟

واستمرت تمرر يدي على صدرها وهي تقول:

- ناعم؟ ناعم زي ده؟

إلى أن وصلت يدي عند نهودها، وقالت:

- يا بختك! اسمع.. إنت فاكِر لما الولد أحمد الشربيني وقف على حيله وطلب منك تخش باط وانت ما رضيتش، وانا اللي كنت واقفة أشجعك؟ فاكِر انا عملت معاك إيه؟ مش كنت باقول لك خش، خش عليه، هاته الأرض؟

- فاكِر. بس اللي حصل إن انا اتعورت.

- بس انت راخر سيحت دمه.

واسترسلت قائلة:

- إيه رأيك؟ مفيش حد هنا أهه.. تيجي تخش لي، والجدع اللي يغلب الثاني؟

- هَوَّ انتِ راجل؟

قالت بدلال:

- ليه؟ هَوَّ انتِ فاكِر إن انت حتغلبني؟ تعال نجرب.

قلت:

- ومين اللي حيشهد؟

- كل واحد يحلف على عينه إنه حيقول الحق.. واهو.. آديني حاحلف الأول.

ووضعت يدها على عينها، وقالت:

- وحياتك يا عيني، وحياتك يا عيني، إني لو اتغلبت أقول الحق..

وعادت تقول:

- احلف انت كمان، حط إيدك على عينك عشان تقول الحق..

فوضعت يدي وأغمضت عيني، وإذا بها تقول:

- اسمع.. إحنا حنخش لبعض واحنا قاعدين.. ترفع إيدك وانا أرفع إيديّ الاتنين،
وأول ما نعبط على بعض نبقى نقول احنا الاتنين في نفس واحد «خلاص»..
يبقى «خلاص».

- زي بعضه.

هي:

- خلاص اقعد، ومد رجلك، وارفع إيدك الاتنين، وانا كمان حارفع إيدي، وأمد
رجليّ، ولما أقول خلاص حاتزحزح، وانت تتزحزح.. عليك خطوة وعليّ
خطوة.. ولما نقرب على بعض تبقى تفوت رجلك من عليّ وانا أفوت رجليّ
من عليك.. لما كل واحد يتملك من الثاني نبقى نقول احنا الاتنين «خلاص»
في نفس واحد.. يبقى «خلاص».

رفعتُ يديّ، كما رفعت يديها. وفتحت قدميّ كما فتحت هي الأخرى. وكلما
تزحزحت خطوة تزحزحت هي. وخلال الزحف تكوم جليباي كما تكوم جليباها،
وتعري فخذها الأبيض. وكنا قد اتفقنا على أن تبقى أيدينا مرفوعة إلى أن
يعبط كل منا الآخر. وقلت في نفسي: «مستحيل البت تغلبنيني.. أول ما حاعبط
بأيدي على وسطها حاجيها الأرض طوالي». كانت تتزحزح وعيناها شبه

ناعستين، وقد شعرتُ برعشة تتنابها من خلال زحفها السريع نحوي، وأنها
تتعجل انتهاء هذا الوضع حتى ولو انغلبت لي.

ولما اقتربنا من بعض، فوت قدمي، كما فوتت قدميها هي الأخرى، وألصقت
جسدها بي، وبدأ كل منا يعبط على الآخر. وقد شعرت بدقات سريعة تخرج
من صدرها، ولم تتوانَ عن اجتذابي نحوها، اجتذبتني نحوها بقوة كادت أن
تعتصرني، وقدمها تلتفان حول ظهري، وإذا بها تقول بصوت ضعيف: - شدني
شوية عليك! عبّط عليّ عشان ما ييقاش لك حجة.. عبّط أوي!

وعندما تملكك منها، إذا بها تقول:

- استنى! استنى!

وشعرت برعشة تتنابها. ومالت برأسها على كتفي وهي تقول: - زقني.. أنا
رايحة انغلب لك!

ولم تحتمل زقة صغيرة، فأخذتني معها، ونامت على ظهرها وهي تقول: -
خلاص.. خلاص.. وحياتك يا عيني انا اتغلبت!

وإذا بيدها وهي تضمني نحوها تكاد تعتصرني.. وفجأة قبّلت وجهي، وعضتني
من خدي.

- الله! هوّ فينا من عض؟! هوّ إيه ده؟!

- أيوه.. فينا من عض.. بس على خفيف!

ثم تراخت يداها ورجلاها.

وإذا بصوت يزعق من بعيد.. كان هذا هو صوت أختي التي تبحث عني
وتناديني.. فقالت رقية: - قوم.. قوم وقابلها قبل ما تيجي ناحيتنا.

وأختي تواصل المناداة. وقبل أن أذهب، مالت على أذني هامسة: - بُكرة
الصبح أنا جياالك.

التقيت بأختي في الطريق فأخذتني من يدي قائلة:

- رُحت فين يا ولد؟ سبتنا قاعدين ومشيت كده لوحدك؟! الأكل انحط وإخواتي
كلهم قاعدين مستنينك عشان ياكلوا معاك، أمك جياالك لحمة.. جابتها
عشانك.. هي عارفة إنك ما بتاكلش، وأختك زينب طول النهار تقول: ربنا
بيعت لنا أخونا وناكل على حسه.. خالتك عفا الله جابت قشدة.. وحاكل أنا
وباك.. مش كده؟

وعندما دخلت المنزل، وجدت إخواتي حول الأكل، وأسرعت أُمي وأخذتني
بجوارها وهي تقول: - إلهي ما ينقطعش لك حس يا ابني!

وبعد الأكل حمّنتي أُمي وألبستني الجلابية الجديدة، وجلست بين إخواتي.
وأخرجت أختي خسكية المنديل من القفة وهي تكاد تبكي من الفرح. وأختي
زينب تقول: «دا بتاعي»، وأختي حُسن تقول: «دا بتاعي». وكدن يتشابكن
فقلت: - أنا جايه لأختي خسكية، والمرة اللي جاية حاجيب لكم إنتم الاتنين،
دا في المحلة الكبيرة من ده كثير.

وإذا بأُمي تعطيني صرة مربوطة، حسست عليها لقيت فيها ملح. حاولت
أرميه، ولكنها قالت: - سيبه، دا يمنع عنك الحسد، يمنع عنك عين الناس.

ومالت على أذني قائلة:

- ما تتلامضش كثير أحسن واحدة تخبطك عين.. الناس ما بتخليش حد على حاله.. إنت متغرب وواقف على الممكن، ربنا بيعد عنك يا ابني عينين الناس!
وسألتني النسوان عن المحلة وعن القماش وكيف يصنع. وعندما أجبت على الأسئلة كن يصفقن على أيديهن متعجبات. وحكيت عما رأيت في المصنع، وعن الممكن، وعن السيور، وعن الناس اللي بتموت، فقالت خالتي عفا الله:-
قادر.. قادر وغيره ما يقدر.. قادر يجيب العالي في الواطي.

وأخرى تقول:

- عشنا وشفنا يا ولاد، صدق المثل اللي بيقول «يخلق من الفسيخ شربات»..
مكن من حديد يطلع القماش اللي احنا بنلبسه ده؟!

وأخرى:

- ما هو راحر اللي بيشتغل على الممكن بيتنقط وما بيحيش عليه يوم لقدام..
هو انتم ما بتشوفوش الرجالة اللي بتشتغل في باجور الطحين؟ ما بتشوفوش
عامل فيهم ازاي؟ الواحد منهم بيطلع لونه زي اللمونة!

وقالت أمي:

- بس يا ولية انت وهي.. إللي بتحبنى ما تتكلمش الكلام ده.. سبيوه بحاله
أحسن ياخذ في نفسه.. دا بيوقف على الممكن.

وقال أخي:

- تعال هنا.. تعال.. شوف عمك الحاج محمود الصعيدي عايز يسالك بتشتغلوا
ازاي.

اتجهت نحوه وهو ماسك السبحة يسبح، وبجواره آخرون. وبدأوا هم بالكلام مع بعض في مواضيع شتى ومختلفة. كان الكلام عن القطن وانخفاض سعره، وعن اللي فلسوا.. وقال السيد أبو الذهب: - راحت الرحمة وحلت اللعنة يا رجالة! هُوَ احنا حنشوف أيام زي أيام سعد.. إن مشيت الملايكة جات الشياطين.. دا انا سمعت من طنطا وانا جاي إن الحكومة حتخلي كل ثلاثة يقسموا مليم! أيام طين يا رجالة!

ورد عمي الحاج محمود الصعيدي:

- هُوَ ده بس؟ دا بُكرة ياخدوا منا الأرض.. دا جابوا الحديد وبيدقوه ويحوطوا على حته أرض كبيرة حيدوها للملك!

ورد السيد الصواف:

- وهُوَ احنا حنسكت؟ دا احنا نقلَّعه! يبقوا ياخدوها على جتنا!

وقال عمي محمد الصفطي:

- إحنا نكتب شكاوى كثير.. العيار اللي ما يصيبش يدوش.. نكتب للحكومة.

فرد آخر:

- حكومة مين يا عم، دي ألغت الدستور وبيعملوا حزب الشعب، وهُوَ الحزب ده حيعمل حاجة؟ دا تبع عدلي.. هَمَّ دول اللي خلوا الإنجليز قاعدين لحد دلوقت!

وآخر:

- إنت حتهد من عزيمتنا؟ إحنا قلنا العيار اللي ما يصيبش يدوش.. إحنا نعمل
اللي علينا، واللي على الله يكون.

واستقرت هذه الكلمات الأخيرة في ذهني، وقلت في نفسي: «لازم لما أروح
المحلة وأقابل عبد العظيم حاقول له لازم نكتب شكاوى نقول للحكومة
الناس بتموت.. لازم نبليهم».

وطال الحديث، ونادتني أمي:

- تعال.. تعال هنا جنبي.. تعال جنب أمك، تعال لما أشيع.. إنت مطير النوم من
عيني!

وضمتني لصدرها وهي تقول:

- الله يلعن الغربة ويلعن يوم ما شفناها! أجيب لك إيه؟ نفسك في إيه؟ قول
لي يا ولد.. إيه بقى اللي محبيك في المصنع وتعيش غريب عنا؟ خليك معانا
ولقمة هنية تكفي مية.. دي اللقمة اللي بناكلها من غيرك بتنزل في بطوننا زي
السم!

ولكن كلماتها لم تدخل ذهني وقلت:

- خبر إيه يا ولية؟ دا انا اتعلمت.. اتعلمت الوقوف ع الممكن والرؤساء
مبسوطين مني.. هو انت مش كنتي بتقولي صنعة في اليد تغني عن الفقر،
أهي صنعة أنا اتعلمتها، صنعة كويسة.. باطلع القماش اللي إخواني بيلبسوه.

فردت قائلة:

- إنت بقيت مسلوخ كده ليه؟ خفيف زي الريبشة! يا خرابي! هُو انت ما
بتاكلش يا ولد؟!

- باكل، بس باكل عيش حاف، وعيش وفلافل ساعات، في الأيام الأولى من
المدة.

- ليه يا ولد؟

- لأن الفلوس بتخلص.. لكن الفلوس بُكرة تكثر.

كنت أتكلم وعينا يغالبا النعاس، وإخواتي يحاولون إبعاده، وأمي تمنعهم
قائلة: - سيبوه.. سيبوه بحاله، دا طول النهار شقيان.

وفي ثوان، لم أشعر بكل ما حولي، وغرقت في النوم.

أحسست بأيدي ناعمة تمر على وجهي وتفتح عيني وشفتي بأطراف الأصابع،
وتفك الرموش وتبعدها عن بعض بخفة ريش النعام. ففتحت عيني، وإذا بالبت
رقية جالسة بجواري لابسة جلباب من الشيت كثير الألوان، وقد ألفت
بصفائرها من الخلف على صدرها فبانة أكثر جمالاً.

لم تمهلني حتى أصحو على مهل، بل شدتني من يدي وهي تحاول أن تكتم
بقها من الضحك. وقالت بهدوء: - إنت لسه نايم؟ قوم، دي أول ليلة ما أنامش
فيها.. حاولت، لكن النوم طار من عيني! إزاي تغلبنى توقعني إزاي؟! طول
الليل وأنا أقول: إمتى الفجر يطلع عشان أجي لك، وما صدقت النهار شقشق.
قوم.. قوم معايا نروح الغيط، مش حنغيب، عبال الشمس ما تطلع نكون
رجعنا.

واستمرت قائلة:

- إنت قلت لأختك؟

- لا.

- النهارده حاخدك معايا الغيط أشوي لك درة.

ولم تكمل كلامها، إذ دخلت علينا أمي، وسألت:

- مين اللي قاعدة معاك دي يا ولد وانت وشك في وشها؟ إنت مين؟

فردت:

- أنا ياما السيدة.. أنا رقية.

فقال أمي:

- الله يحوسك، أمال قاعدة ساكتة ليه؟

- أمي بعثاني.. بعثاني عشان آخده معايا، أمي عايزة تشوفه.

- إلهي ما حدش يجيلها في وحش.. أهو كده، إلهي يحب ابني يبقى بيحبني.

فردت رقية وهي تنظر بوجهها المشرق الباسم:

- ما هو ياما السيدة إحنا بنحبه، وانا حاخده معايا لحد الغيط أملاك حجره درة
خضرة عشان يشوبها وياخذها معاه.

- كتر خيرك يا بنتي.. سيبه.. سيبه يا بنتي نشيع منه دا جاي يوم واحد بس
وحيمشي.

وأمام إلحاح البنت رقية قلت:

- أنا رايج معاها ياما، وحاجي بسرعة.

أنا ورُقِيّة

كان كل شيء في الطريق هادئًا، لا حس ولا حركة. لا مكن سريع داير، ولا سيور تهتز، ولا ضجيج يصم الآذان، لا عمال بتجري، ولا غفر على الباب، ولا دم يسد الطريق.. عيال صغار سائرون على مهل بجلايبهم المهلهلة وصدورهم المفتوحة العارية، يسرون في تباطؤ خطوة خطوة مع خطو الأغنام والماعز البطيئة التي ترعى.. وآخرون يسرون وراء الحمير المحملة بالسيخ، ترتفع أصواتهم بالغناء، والرجال يعملون بجد في عزق الأرض ورش السيخ.. وآخرون يسرون وراء البهائم وهم يمسكون المحارث لحرث الأرض، وهم يسلون أنفسهم بكلمة «عا» و«حي» يزعمون بها للبهائم، ومن وسط الأرض ينبعث غناء: يا ليل يا عيني والبين عملني جمل

واندار عمل جمّال

لوى خزامي على إيده

وشيلني تقيل الأحمال

أنا قلت تجزى من الله يا بين

هوّ الحمل التقيل انشال

قللي الخطى يا جميل وامشي على مهلك

وكل عقدة لها عند الكريم حلّال

كان يغني بصوت حزين عالٍ يُسمع من السائر في الطريق.. وقلت في نفسي:
«إيه ده يعني؟ إيه البين ده؟ إيه اللي عمله جمل واندار عمل جَمَّال وشيَّله
تقيل الأحمال.. يعني إيه؟ ويقصد إيه؟ يقصد العمدة اللي بيشغله ببلاش يوم
واتنين؟ مش معقول! أمال مين اللي بيشيَّله تقيل الأحمال؟». وتذكرت
كلمات لعبد العظيم عندما قال لي عن أصحاب الأرض اللي بيدوها للفلاحين
غالية وينتهزوا فرصة تأخرهم في دفع الإيجار ويروحوا حاجزين على كل اللي
موجود في المنزل، حتى البهايم والحمير اللي همَّ عصب الفلاح.. يبقى لازم
هوَّ يقصد صاحب الأرض، يبقى ده هوَّ البين اللي بيستغيث منه. طيب،
بيستغيث منه لمين؟ لنا؟ واحنا حنعمل له إيه؟ بيستغيث وهوَّ في قلب الأرض
عشان يسمع اللي ماشيين في الطريق.. واحنا حنعمل إيه؟ هيَّ أمي مش
كانت بتقول «الشكوى لغير الله مذلة».. يبقى لازم هوَّ بيستغيث بالله.. يمكن
يكون فاكر إن أبواب السما مفتوحة.. هوَّ إيه ده؟ طيب دا انا من يوم ما
اتولدت لحد دلوقت وانا باشوف أمي وهيَّ بتصلي ورافعة إيديها الاتنين
وتدعي على العمدة اللي بياخد إخواني ويشغلهم ببلاش في أرضه، ولحد
دلوقت العمدة قاعد زي الفحل. والعمال اللي بيشتغلوا في المصنع بيدعوا
كل يوم على الرؤساء والمديرين والممكن اللي بيموَّت كل يوم عمال،
والرؤساء عايشين همَّ والمديرين، وما حصلش لحد دلوقت لهم أي حاجة.
أمال ليه ربنا ما استجابش للدعا دا كله؟ يمكن غضبان، وعشان كده سايبهم
يتحكم فيهم البين.. يا ترى عملوا حاجة أغضبته؟ وإيه اللي ممكن يعملوه
عشان ما يغضبش ويستجيب للدعاء وينزل نعمته على البين، على الناس
اللي بتحجز على البهايم وتموَّت العمال في المصنع، وهو حيفضل غضبان
كده؟ بُكرة يصطليح ويفتح أبوابه.. مش معقول حيستنى كده، يمكن بيحوّش،
يمكن السنين اللي فاتت ما كفتش، يمكن أبواب السما ما اتفتحتش، ولما
تتفتح يموت الظالم ويسعد المظلوم.

أفكار قاتمة سوداء راودتني وأنا سائر في الطريق، وإذا برقية تضع يدها
الناعمة على كتفي وهي تقول: - إنت ساكت ليه؟ شاردي في إيه؟ إللي واخذ
عقلك يتَهَيَّئْ به، هُوَّ انت رُحْت المحلة يومين جاي عامل زي الللي غاب عن
البلد سنين؟! شيل ديل الجلابية في إيدك لاحسن تتوسخ من الوحلة.

ابتعدنا عن القرية.. وعلى البحر نسوة كثير يقفن على الشاطئ يملأن بلايص
الماء، ومنهن مَن كانت تستحم بجانب الشاطئ، وأخريات يغسلن الملابس أو
يصفين الغلة المغسولة. وعندما رأوني أقترب منهن وقفن يتطلعن، وإذا
بالبنت رقية تهمس في أذني قائلة: - امشي على طول.. دول نسوان
حيعطلوك، ويمكن واحدة تفقعك عين، دا فيهم حسادين.. امشي على طول
خليك ترجع سالم!

وحاولت أن أسير، ولكن لشد ما كانت دهشتي عندما وجدت أن كل النسوة
قد تجمعن على الطريق يسدونه عليَّ قائلات: - مين الللي ماشي على الطريق
ولابس الجلابية الحلوة دي؟

فردت البنت رقية قائلة:

- دا ابن أمك السيدة البناية جاي من الغربية.

فقلت واحدة منهن:

- يا حلوة! هيَّ عندها ولد حلو زي ده؟ هُوَّ الللي كان هربان؟ تعال يا ولد، إنت
جيت إمتي؟ شبشبت قلب أمك، تعال يا حبيبي هات بوسة.

وقالت أخرى:

- عاش في الغربية ازاي ده؟ دا خلف الأيام دي شياطين! دا بيستحموا ما

بيسموش!

وأخرى:

- صلي على النبي يا ولية، دا يتيم وأمه متهجلة عليه! وانتِ يا بت يا رقية
واخداه على فين كده على الصُّبح؟ يا حبيبي يا ابني حتترى من صغرك كده
على الغربية.

وشدتني رقية من وسطهن قائلة:

- سيوه خليني أجيب له كوزين درة يشوبهم.

وعلى جانب الطريق، كانت فروع شجر الجميز والصفصاف والسنط تُلقي
بظلها على الأرض والمياه تندفع سريعة وتلاحق الأمواج الصغيرة بعضها بعضًا.
ومنذ تركنا النسوة لم يقابلنا أحد في الطريق، ولم نعد نسمع سوى أصوات
العصافير وهي تغرد على الأشجار، وعيدان الذرة وسنابلها وأوراقها تهتز
عندما تلمحها الرياح، ورقية تسير بجواري تواصل الحديث: - مفيش حد ماشي
في السكة، الناس مشغولين كلهم في ري الأرض.. إنت حتسافر إمتى؟
وحتقعد في المحلة لوحدك؟

- لا، أنا والولد الغريب.

- إنت بتاكل إيه هناك؟

- باكل عيش وحلاوة وفلافل كمان.

- بتنام ازاي؟ ما بتخافش؟

- حاخاف من إيه؟

- يا قلبك يا أخي! هو انت قلبك جاسر من صُغرك؟! اسمع، هو في المحلة في

بنات؟

- أيوه، فيه بنات.

- بيلبسوا إيه؟

- بيلبسوا هدم محزقة على وسطهم.

- ما هم بندريين مش زينا، الواحدة منا لابسة جلاية تساع اتنين.. آه، تساع

اتنين، تلبسني وتلبسك.

وكنا قد وصلنا إلى الغيط، فقالت:

- أهه.. أهو غيطنا أهه.

وقبل أن ندخل الغيط تلفتت حولها وقالت:

- مفيش حد، خش.

وتسللت بهدوء وهي تزيج بيديها عيدان الذرة، وقالت: - أنا حافرق العيدان

وانت امشي ورايا عشان الورق ما يجيش في عينيك.

كان الجو ساكنًا إلا من صفير الهواء واهتزاز عيدان الذرة وأوراقه. وفي وسط

الغيط توقفت، وقالت: - في الحته دي ننقي الملوخية ونقطع الدرة.

وقبل أن تبدأ، قالت:

- اسمع، مفيش هنا حد، عاوزين نتجدعن، إوعى جلايتك تنعاص طين لاحسن
أمك تبهدلنا!

- وانا حاعمل إيه؟

- اقلعها وخليك بالقميص.

ولم تمهلني، بل رفعتها من الديل وسحبته من رأسي، واسترسلت: - خلاص،
اقعد على كيفك مرتاح.

- أقعد عريان كده؟

- أيوه، يعني هَوَّ انت كبير؟ حتختشي من إيه؟ هَوَّ فيه حد غريب؟ اقعد، اقعد
قدامي.. هَوَّ انت كنت بتختشي؟ إنت نسيت قبل ما تروح البندر كنت بتعمل
إيه؟ مش كنت بتقلع ملط وتمشي في الحارة؟ خلاص يعني نسيت لما كنت
بتعاكس البنات وتطلع لهم عريان؟ هَوَّ دايمًا كده.. تعال يا واد، تعال هنا جنبي،
إنت بتعمل إيه؟

- باقطع القلب.

- قلب إيه يا وله؟

- قلب الدرة.. باقطع السنابل.

- سنابل إيه؟ تعال.. تعال هنا، تعال هنا حُد.

ولمَّا لم أُجبها أسرع نحوِي محاولة الإمساك بي. وأخذت أحاورها إلى أن
أمسكت بي قائلة: - تعال.. تعال، دا انا طول الليل وانا باستحلف لك.. تعال،

طَيَّرت النوم من عيني، أول مرة ما انامش فيها، هَوَّ انت عملت لي إيه؟
وجذبتني من طوقي، وجلست في قلب قناية دفعتني إليها، وكانت خالية من
عيدان الذرة. قلت: - القناية طرية، والأرض مبلولة، حاقعد ازاي؟

قالت هامسة:

- ما تزعقش كده، حد يسمعنا!

وبسرعة، راحت تقطع الأوراق وتفرشها على الأرض كالحصيرة، وقالت: - خد
افرش كمان.

واستمرت في التقطيع، وأخذت أنا أفرش حتى امتلأت القناة بأوراق الذرة،
وقالت: - تعال.. تعال هنا نرتاح.

وجلست بجانبها، وإذا بها ترفع جلبابها وهي تقول: - أحسن الجلاية تتلَّعَّ
بالورق الأخضر.

وجذبتني نحوها قائلة:

- بَقه انت تغلبنى؟ ما بقاش إلا انت! قَرَّب هنا، أنا لازم آخذ تاري، لازم أوقعك!

وشدتنني من قدمي، وقالت:

- فرشح.. فرشح كده رجلك أنا لازم أقرقشك باسناني!

وملكتني من وسطي، وألقت بنفسها عليَّ، وقالت بصوتها الناعم: - تبقى
تجيب لي معاك منديل!

وزادت من التصاقها بي، واقترب وجهها من وجهي، وقلت بصوت خافت: -
المرّة الجاية حاجيب لك منديل.

ومالت عليّ وصدورها ملتصق بعنقي حتى كاد يخنق أنفاسي، وانزاح جلبابها
حتى تعرى فخذاها، فقلت لها: - رجليك باينة يا بت!

فالتهب وجهها بحُمرّة شديدة، ودفنت خدها في عنقي وهي تقول: - الهوا هوّ
اللي شاله.

وأطبقت بيدها على ذراعي، فحاولت أن أتملّص منها، ولكنها استمرت وقالت:
- هوّ انت حتغلبيني.. تعال.

والتفت ساقها حول وسطي وهي تعتصرني في رعشة شديدة، فصحت: - هوّ
إيه؟ هوّ انت حتاكليني؟! ضلوعي حتتكسر! هوّ احنا فينا من خوانة؟!

فقال بصوت متهدج:

- أنا عاوزة أخلص تاري، إنت بس شاطر توقعني امبارح؟

فقلت:

- لا، الواقعة دي ما تحسبش، دا انا سبت لك نفسي، إوعي تفتكري إنك
غلبتيني.

وازدادت عيناها السوداوان اتساعًا، وهي راقدة فوق بيكل ثقلها، وهي تهتز
قائلة: - خلاص.. خلصت تاري!

وامتدت يداها تمسك بشعري، فانتفضت غاضبًا، وأنا أرفعها من فوقي صائحًا:
- لا.. ما فيناش من خوانة.. إنت خديني على خوانة!

ولكنها جذبتني نحوها في رقة شديدة، وهي تضع فمها على فمي قائلة: - ما
تزعلش.. مرّة توقعني ومرّة أوقعك.

وألبستني جلابي، وقبل أن نخرج ضمتني من جديد إلى صدرها: - ما تنساش
تجيب لي معاك منديل، والمرّة الجاية حاخلك توقعني.

واجتاحنتي رغبة مُلحة في أن أجيبها الأرض، ولاحظت هي ذلك عندما أطالت
النظر لي ورأت أن عيني يتطاير منها الشرر، فقالت: - إنت مالك؟

- أخذتيني على خوانة دون أن أستعد!

فقالت والبسمة تعلو شفيتها:

- هوّ انت خايف أحسن أقول لحد؟

وغطت عينيها بيديها وقالت:

- وحياتك يا عيني ما حاقول لحد!

قلت:

- لا، إحنا عاوزين نخش لبعض بصحيح، ارفعي إيديكي وأنا أرفع إيدي، ولما كل
واحد يعبط ع الثاني ويقول خلاص، يبقى الجدع اللي يغلب.

- وحنخش ازاي والدرّة واقف؟!!

- أمال يعني يبقى اسمك وقعتيني؟

- هيّ دي يعني اللي مزعلاك؟ تعال نروح القناية تاني.

ولم أعطها فرصة للتفكير، فبمجرد أن رفعت يديها، رُحت معبّط عليها بإيدي الاتنين، ولم تمر لحظة إلا وبداها تتراخيان وهي تشهق شهقة عالية، وارتمت في الأرض والعرق يتصبب من وجنتيها وهي تقول: - خلاص.. أهو دلوقت بس انت غلبتني!

وراحت في غيبوبة أفقدتها الوعي لحظة. وبعد أن فاقت، هبت واقفة لتمسح العرق المّتصّب على وجنتيها بطرف جلبابها، وقالت وهي تقبض على يدي وتحملق في وجهي: - يا ريتك تستنى هنا على طول!

وبكت دون أن أعرف سبب بكائها. وقلت في نفسي: «ليه بتعيط؟ يمكن لأنها اتغلبت؟ يمكن خايفة أحسن حد يعرف؟ يعني إيه؟ يعني خلاص هي مش مصدقاني؟ أنا حلفت على عينيّ، واللي يحلف على عينيه كذب ربنا يعميه... هي عارفة إني ما كذبتش، تبقى ليه بتعيط؟ يمكن بتعيط عشان حسافر رغم إنها قالت خليك معانا هنا؟». ولاحظت من ملامح وجهها أنها تريد أن تقول شيئًا: - ما تسافرش! اسمع كلام أمك، دي بتعيط، خليك جنبها!

ولكن شيئًا ما منعني من أن أجيبها إلى هذا الرجاء، وقلت في نفسي: «أقول لها هناك أحسن.. أنا أصبحت عامل، وأحسن أكون هناك مع العمال وأجيب لإخواتي من هناك مناديل، وأجيب لها هيّ كمان، وأجيب فلوس لأمي تساعدنا، شغل دايم أحسن من هنا، أحسن من العمل طول النهار في الصيف، أحسن ما نشغل يوم وأبطل عشرة، أمي تكلمت كثير وما زالت تلح في بقائي، ولكني ألححت عليها أيضًا في ضرورة البقاء في المصنع».

كانت رقية تبكي، وجال بخاطري لحظة أن أقول: «حاستنى هنا».. ولكن سرعان ما اختفت الفكرة من ذهني وقلت في نفسي: «أنا هناك في المصنع ولكن قلبي هنا مع أمي ومع كل من يحبني.. ولو قلت لرقية ذلك فربما تهدأ. إنها تعرف أن أمي كلمتني ومع هذا صممت على السفر، وهي تعرف أن أختي كلمتني وقلت لها إن صنعة في اليد تغني عن الفقر». وإذا بها تهزني وتشتت أفكارى بقولها: - خد في حرك.. خد في حرك كوزين الدرّة.

قالتها برقة وعطف شديد. وحبست الكلام لحظة، وإذا بها تعود وتتكلم قائلة: -
إنت فاكِر؟

- فاكِر.. مش عاوزة أجيب لك معايا المرة الجاية اللي انت قلت عليه؟

- آهو كده، آهو انت فاكِر آه.

وفي الطريق كانت الريح قد هدأت والعصافير تقف على الأشجار رافعة ذيلها إلى أعلى وتحرك رأسها ذات اليمين وذات اليسار وهي تعلن تغاريدها في طمأنينة لأن أحدًا لن يقذفها بحجر. كان كل شيء في الطريق هادئًا حتى الميه في الترعة هادئة وأشعر بأنها واقفة.. وكان الرجال يأتون من داخل المزارع يسيرون على مهل ناحية الأشجار ليجلسوا في ظلها ويأكلوا ما أتت به نساؤهم ويريحوا أنفسهم قليلًا من عناء التعب. وحتى الحمام لم يكن سريعًا في طيرانه، بل كان يطير في تباطؤ، كان يحط بين الحين والحين على ما تبقى من القمح في الأجران.. وإذا برقية تتوقف فجأة وهي تقول: - تعال شوف الحمام، شوف بيعمل إيه؟! الحمام بيبوس بعضه!

توقفت، وإذا بي أرى الحمام وهو يضع رأسه في رأس بعضه، وإذا برقية تصرخ: - شوف.. النقرة دي.. دي بوسة.. أنا سمعت من النسوان إن الحب ما

اتعرفش إلا من الحمام. شوف، حتى الطير بيحب بعضه، أmaal يبقى بني آدم
يعمل إيه؟!

ووقفت أنظر، وإذا بي أصرخ قائلاً:

- هوه.. هوه.. هوه.

خرجت الصرخة دون وعي مني، وهي الصرخة التي كنت أنادي بها العمال في
المصنع، وانتابني خجل عندما تنبهت لنفسي، وخاصة لما لاحظت أن رقية
بهتت عند سماعها هذا الصوت، وقالت: - إيه ده؟

- هي دي لغة العمال اللي بينادوا بعضهم بيها، هناك دوشة ولا يستطيع حد
ينادي حد باسمه، ولهذا تعودت أن أنادي بهذه اللغة.

- وبتنادي بيها هنا ليه؟

- نسيت.. جات على لساني، ما احنا طول النهار ننادي على بعض.

- يا نهار أسود، دا شيء يهبل!

- لا، دا شيء يسر. أنا لحد دلوقت وأنا مسرور من الدوشة.

اقتربنا من القرية، وكانت قريتي كباقي القرى: بيوت متشابهة، كل بيت من
دور واحد، له شبابيك عالية لا يستطيع السائر في الطريق أن يطولها أو ينظر
منها ليرى ما بداخل الحجرات.. كانت كلها مبنية بالطوب التّي، جدران من
الطين ومليسة بالطين.. لم يدخل الجير قريتنا، ولا في القرى التي وقعت
عليها عيناى.. حتى الجامع مبني بالطين.

ليلة السفر

عندما اقتربنا من مشارف القرية كانت شمس الصباح الساطعة قد ملأت الأرض. وعندما دخلنا القرية كانت منازلها هادئة ساكنة خالية من الرجال والشبان، كلهم في الحقول يعملون في حرث الأرض ورش السيخ وبذر البذور، حتى الزوجات ذهبن للأزواج بالأكل، ولم يتبق في القرية إلا الأطفال يملأون المنازل بالصراخ والعيول.. وأمام المنازل يجلس بعض الأطفال الذين لم يبلغ الواحد منهم أكثر من عام بملابس رثة بالية يمرغون أنفسهم في التراب ويمسكون بجواليص الطين ويملأون بها أفواههم. حتى الفراخ تسير هي الأخرى على مهل، وتلتف حول الأطفال تلتقط بعض حبات الذرة أو فراغيت العيش الملقاة على الأرض والتي قد تكون وقعت من سيالة الأطفال أو من المقاطف التي نفضتها النسوة.

وفي ميدان القرية الفسيح، أي في الجرن المقابل للجامع، كانت الماعز والأغنام تلتقط بعض الأعشاب الملقاة حول أكوام السيخ. وفي العطفة التي يقع فيها منزلنا، كان بعض الأطفال يلعبون، ولما رأوني من بعيد نظروا إليّ وعلى وجوههم تساؤل لأنهم لا يعرفونني؛ لقد كبروا وأنا بعيد عن القرية.. وكانوا مستغربين ملابسهم الجديدة المخططة.. وعندما اقتربت منهم وقفوا يتأملون وجهي، ثم ساروا خلفي متسللين، ينظرون إلى بعضهم البعض لأنهم لم يسبق لهم رؤيتي. ومالت رقية على أذني قائلة: - شايف، بص وراك.. شوف العيال بقوا أد إيه؟ كلما مروا على بيت نادوا على العيال اللي فيه وهم الآن يجرون وراءك في انتظار البيت اللي حتدخله.

لم يكن أحد من إخواني بالمنزل، لم يكن به أحد سوى أمي. ودخلت والأطفال ظلوا واقفين عند الباب. ونادت أمي عليهم قائلة: - خش يا ولد انت وهو، خش.. إنتو خايفين من إيه؟

وكانوا يجذبون جلايب بعضهم البعض، كل منهم يحاول أن يقذف بالآخر إلى الداخل... ورقية واقفة بجواري. ثم جاء أخي ويده الغلق والفاس، وأمي تناديني، وقالت لرقية: - هاتي الحصيرة وافرشيها واقعدي جنبه لحد ما أجيب الحطب من فوق.

وجاءت أمي، وجلست بجانبني، وتساقطت دموعها وهي تقول: - ليه كده يا ابني بس تتأخر علينا؟! إخوانك من زمان مستنيينك! تقوم إنت من بدري تدور الجري على الغيط؟! الله يلعن اللي منهم السبب!

واسترسلت قائلة:

- جبت إيه معاك؟

فقال رقية:

- جبت له كوزين درة.

- كام؟ عشرة؟

- لا.. خمستاشر.

- أهم كويسين كل كوز والثاني.. جدعة يا بت.

وجاءت أختي وهي تقول:

- الله يقطعك يا رقية، إنت خدت الواد على الصبح ودتيه فين؟

- رحنا الغيط واتمشينا وجينا.

- إنت كلت؟

قلت:

- حاكل فين؟

فقال أمي:

- قومي يا بت قومي هاتيله مترد لبن بحاله، بالقشدة اللي عليه عبال ما نولع الفرن ونعمل له فطير.. أخته زينب اتأخرت.. زمانها جاية جاية البطاطس واللحمة من طنطا نبقى نطبخها على آخر النهار.

فردت أختي:

- للعشاء.. آهو يوم ناكل فيه، ربنا يوعدنا بضيف وناكل على ريحه، الصبح لبن والظهر فطير والمغرب لحمة.. ابقى تعال يا واد كل يوم علشان ناكل على طول كده. إنت عامل زي اللي جاين من الحج. كل الناس جات الصبح يسألوا عليك، جاين عشان ياخدوك.. البت هنا والبت زينب العرجة، والبت هانم، كلهم جم سألوا عليك وقالوا لما يبجي ابقى تعالي لنا.

وعندما قالت ذلك شحب لون رقية، ونظرت لي، وكادت أن تقول شيئاً، كادت أن تقول: «قول لأختك ما تروحش». لكن أختي لم تترك أية فرصة للتفكير، وهبت واقفة ودورت الجري زي الريح، وبعد قليل عادت ومعها البنات الثلاثة. وعندما جلسن، كانت كل منهن تحاول أن تجلس بجانبني بعد أن وضعن أيديهن

في يدي بالسلامات، كانت كل منهن تحاول أن تبدي اهتمامها وتسالني عن
المحلة الكبيرة وعن بناتها.

وعندما قلت لهن عما رأيته من ملابس نظرن إلى ملابسهن في أسى وقلن: -
همّ بتوع البندر كده، بيلبسوا الهدوم المحزقة، إحنا عاملين زي الرجالة،
مفيش فرق بينا وبينهم في اللبس! إحنا بنلبس هدوم شيت وهمّ بيلبسوا هدوم
دمور وزفير، والجلابية تكفي نفرين!

فردت رقية قائلة:

- ما هو لازم كده، أصل الواحدة منا طول النهار بتلف ورا الحمير وتشيل
سبخ.. الهدوم الواسعة دي تعيش أكثر، ما تتفرتكش.. أما النسوان اللي في
البندر طول النهار قاعدين على طيازهم بارشين، لا شغلة ولا مشغلة.. أمال
زيننا؟ طول النهار شقيانين؟

ثم قالت وهي تتوجع:

- ناس لها فت وناس لها قلايط!

كانت تتكلم وعيناها لا تفارقني. وتلملت البت زينب في مكانها، ثم جلست
في مواجهتي، وخلعت منديلها الأحمر من على رأسها وقالت: - مفيش حد
غريب، تعالي يا بت يا خسكية ضفري لي شعري.. أحسن إنت جيتي قبل ما
أضفره.

كان شعرها أسمر طويلًا تفوح منه رائحة الجاز. وإذا بأختي تقول: - إف! إف!
إنت ملغمطاه جاز كده ليه؟!

- ما هو الجاز يموت القمل ويقطع دابر السبان، أمي قالت كده، هُوَ احنا
بنفضى نغسله، أمي قالت اغسله بالجاز.

فصرخت رقية وهي تقول:

- يعني هُوَ انتِ ما تقدريش تيجي نص الليل وتسخني شوية ميه وتقيدي اللمة
وتقعدي تغسله؟! هِيّ الواحدة فينا بيزبنها غير شعرها! النتنه نتنه من يومها!

ووضعت يدها على رأسها وخلعت المنديل، وكشفت عن شعرها الأصفر
الناعم المسرح، وقالت في تباهي: - أهه، شايفة الفرق؟

فردت زينب العرجة قائلة:

- هُوَ انا زيِّك؟ أنا طول النهار شقيانة، شقيانة في الغيط، أما انت فإخواتك
غنينك، يا دوب بتودي لهم الأكل.. زينا غلابة؟ من البيت للغيط، للعجين،
للخبيز، ولم الجلة من تحت البهايم، وشيل السبخ!

فردت البت هنا:

- يعني هُوَ انتِ عاوزة تقولي إنك مش فاضية تقعدي شوية وتفلي راسك؟!
وأخذت كل واحدة تكشف عن شعرها وتنكته لتبين أن شعرها خالٍ حتى من
السبان.

وكان شعر البت رقية أكثر الجميع جمالاً. وقطع الحديث أخي عندما دخل
ومعه أحمد ابن عمي، فأسرعت البنات بالوقوف وكل منهن تحاول أن تغطي
شعرها بالمنديل. وإذا بأخي يقول: - عال، عال، والله اتلميتوا على بعض يا
ولاد.

ووجه كلامه للبت رقية قائلاً:

- آهو جالك، كنت كل يوم خوتانا عليه «جه؟.. جه؟».. آهو جه يا اختي، بليه
واشربي ميته.

ونظر لي بابتسامة عريضة قائلاً:

- هيص يا عم، أهم البنات حواليك أهم.. أمال يا اخويا مفيش حد بييجي ناحيتي
ويسأل عليّ!

وعندما قال أخي هذا أخفت البنات وجوههن بأكفهن وصهلن من الضحك،
وأخي يسترسل في كلامه مُداعبًا: - قول لي بقه يا سيدي، مين في دول
تعجبك؟

وحاول أن يرفع رأس البت رقية، ولكنها عصلجت وهي تواصل الضحك.
وأخيرًا، قال أخي: - أنا حاسيكم تقولوا لبعضكم الحواديت.. خدي يا بت يا
خسكية، خدي المنديل ده وهاتي لي الجلايبة من جوّه، أنا رايح الجامع عبال ما
تخلصوا الحواديت.

ووضع قدمه على العتبة، وطل برأسه للبنات ليراهن وقد رفعن وجوههن،
وعندما رأينه واقفًا أسرعن في إخفاء وجوههن مرة أخرى، وذهب أخي،
وطلت البت رقية فلم تجده، فقالت: - ارفعوا يا بنات رؤوسكم.

فرفعوها متلفتين حولهن، وهن يقلن والبسمة تعلقو شفاههن التي كشفت عن
أسنانهن البيضاء المنتظمة: - هوّ راح فين؟

فقال أختي:

- راح الجامع.. هُوَ انتم مكسوفين؟ ما هو بُكرة حنجوزه، واللي بتحب أخويا
أكثر حنجوزها له.

وأطلت البت رقية لي، وبان من ملامح وجهها إنها عاوزة تقول «أنا أنا اللي
باحبه»، لولا الخجل والكسوف. ودخلت أُمي من الخارج بجلبابها الأسود الذي
لم تغيره منذ مات أبي وهي تقول لأختي خسكية: - قومي يا بت قومي.. ولعي
الفرن، العجينة خمرت.. وانتِ يا بت انتِ وهَيِّ، خدوا الرز ده نقوه، ما هو اللي
حياكله انتم بتحبوه.

وعادت أختي زينب من طنطا، ورمت الغلق في الأرض وهي تقول: - قطيعة..
أف.. أف.. هاتي شوية ميه يا بت، روجي حتطلع، الدنيا حر نار، ولا نار جهنم..
قومي يا بت.

وأسرعت رقية تصب الميه على رأس أختي.. وعندما أفاقت قالت: - هُوَ انتو
لسه ما خبزتوش؟ هُوَ انتو مستنيين لما آجي؟ الشرد موتني وانا جاية في
الطريق!

ونظرت لي في حزن قائلة:

- طول السكة ما نشفتش الدمعة من عيني.. يوم؟ يوم واحد وحتسينا
وتسافر؟ حتقعد هناك في الغربية؟ ومين يجيب لك تاكل؟

وبكت. وإذا بالبت رقية تقول:

- متخليك هنا.. اسمع كلام أختك.

ولم تكمل كلامها. وإذا بأخيها يزعل:

- تعالي يا رقية.. تعالي كلمي أمك.

ومن على عتبة الباب طلت لي وهي تقول بعين متوسلة: - خليك هنا ما
تمشيش!

وعند أذان العصر، هدأت الرياح الحارة. وقال أخي:

- أنا عاوز أروح الغيط أفتح الميه، أقطعها على الدرة وأسقيه. وعلى بُكرة
الصبح تكون الأرض شربت الميه عشان نضمن عدم وقوع الذرة لو اشتدت
الريح.

واسترسل قائلاً:

- بُكرة نبقي فاضيين نقعد مع أخونا قبل ما يسافر.

وأصر على أن يأخذني معه رغم معارضة أمي وهياجها. وفي الطريق، كانت
الشمس قد مالت للغروب والرجال عائدون من الحقول ساحبين البهايم،
وآخرون يركبون الحمير وأمامهم آلات الحرث. وصبايا كثير شايلين الزرع على
رؤوسهن وهي مملوءة بالمياه، وكل واحدة عاوجة الزلعة على ناحية وهي
تدب في الأرض. كن يتمخطن، وكل منهن تحاول التباهي بعوجة الزلعة على
ناحية. وإذا بصوت ريان جميل ينطلق من على شجرة الجميز المجاورة للبحر
قائلاً: يا ليل يا عين قلبي عشق بنت بيضا بتملا والغروب نازل

والشعر المهدل على النهود نازل

حطيت إيدي على الصرة وانا نازل

قالت الجميلة شيل إيدك يا جدع

لتموت قتيل المحبة.. والغروب نازل

وعندما انتهى من غناؤه انتبهت الصبايا، وبدأن يتلفتن، وكل منهن تنظر في وجه الأخرى. نظرت البنات، وأطلن النظر، وعاودن النظر لوجوه بعضهن ليرين لمن يكون هذا الغناء. وكانت زينب بنت عم علي الجوهري هي أجمل البنات. وعرفت أنها هي المقصودة لشدة احمرار وجهها. وقلت: «لا بد أن يكون هذا الغناء لها». وعندما اقتربت منهن توقفن جميعًا والتففن حولي محييات بأيديهن بعد أن مسحنها في الجلابيب من البلل. وتحت شجرة الجميز أخذ صوت يناديني قائلاً: - أنا البهي. البهي الصعيدي.. باختن الجميز.. استنى لما أجمع لك غلق تاخده من هنا وياك.

وقال أخي:

- يَلَّا، يَلَّا.. تعال عشان نلحق نقطع القنا بدري.

وبعد أن انتهينا من قطع القنا، توجهنا إلى الغيط، وسقينا الذرة، ثم عدنا، فوجدنا أمي جالسة أمام الفرن تنهي ما تبقى من خبز. بدت وكأنها لم تنتبه لوجودي، وبقيت ناظرة إلى الأرض، وهي تحاول أن تخفي عينيها عني لكي لا أرى دموعها المنهمرة. كانت تبكي حظها المنكود: «ليلة واحدة وحيسافر».. تبكي في صمت دون أن تبدو منها حركة ظلًا منها أنني لا أراها. ولاحظت ذلك أختي فهمست في أذنها قائلة: - خبر إيه يا ولية؟ بتعيطي ليه؟ الولد قاعد يبص لك إنت عاوزه تقهره؟ ما تسيبيه بحاله.. خليه يسافر بالسلامة.

وحاولت أمي أن تكبح دموعها، ونظرت في الأرض. ومن كثرة إلحاح أختي نظرت إليّ، ولكنها لم تستطع أن تمنع الدموع، فبكت.. وبكت أختي.. وخرج أخي من المندرة وجاء على صوت البكاء وزعق قائلاً: - خبر إيه؟ إنتو حتقلبوها

محزنة؟ ما هو راجل.. هُوَ الراجل حينخاف عليه؟ هَيَّ الرجالة انخلقت إلا
عشان كده؟ إنتِ عاوزاه يطلع إيه، عاوزاه يطلع صايع؟ لازم يطلع من صغره
كده، يتودك على الدنيا.. هُوَ فيه حاجة نقصت؟ ما هو زي ما راح زي ما جه..
ما تقدرني إنه راح الجهادية.. إللي يقدر ما يغلبش! هُوَ حد بيموت ناقص عمر؟
إنتِ عامله كده ليه يا ولية؟ عياطك ده هو الللي حيعقده! أمال أخويا إبراهيم
لما خدوه السلطة وودوه آخر الدنيا وشغلوه ببلاش ما عيطتيش عليه كده
ليه؟ عيطتي شوبة وسكتي!

فردت أُمي بصوت حزين باكٍ:

- لما خدوا أخوك إبراهيم السلطة كان أبوك عايش.. كان أبوه مالي علينا
الدنيا، مالي علينا البيت، ولما خدوه، خدوه غصب عنا. أما ده، إيه الللي
غاصبه؟ لما حاقابل أبوه، لازم حاقبله، وبسألني عملتي إيه بالوصية؟ علمتية؟
أبقى أقول له إيه؟ أقول له هرب وساب البلد وطفش؟ حيقول لازم جوعتية..
حيقول إني لازم جوعته أو ضربته.. كان منى أبوه إنه يتعلم ويبقى زي الناس
بتوع مصر.. حاقول له إني ما عرفتش أعلمه؟ آه ياني! آه ياني يا الللي مليش
بخت ياني! لما أقابله، أقول له إيه بس يا ولاد؟! مسير الوجوه تتقابل!
وبكت أُمي، وبكى أخي أيضًا، وبكيت أنا.. وانقلب البيت في لحظة إلى ميتم..
الكل بكى.

ودخلت خالتي عفا الله وخالاتي.. وقالت خالتي:

- إيه؟ حد الله! حصل إيه كفى الله الشر؟ مالك بتعيطي كده؟

فمالت أختي خسكية على أذنها:

- بتعيط.. بت.. عي.. ط.. عشان أخويا بُكرة الصبح حيسافر.. حيسافر ويسيينا!

فزعت في وجه أمي قائلة:

- الولد ده لو جرى له حاجة حتكوني إنت السبب، كل ما حييجي تعيطي في وشه؟ قومي يا بت إنت وهيَّ.. قومي كده، وضبوا له الشيء اللي حياخده معاه.. كل واحد عقله في راسه يعرف خلاصه.. ما هو اسم النبي حارسه داخل على جواز وعارف مصلحته.

واسترسلت خالتي عفا الله قائلة:

- إنتِ حتتكدي على نفسك ليه؟ إللي ما علمتوش الأهل تعلمه الأيام والليالي.. خليه يطلع متودك على الحياة من صُغره، يمكن ربنا ينصره ويبارك لك فيه.

وقبل أن تنتهي خالتي عفا الله من كلامها، إذا بشلة كبيرة من البنات على الباب ينادين على أختي خسكية. كانوا من أصدقائها. وعندما دخلوا، توقفت أمي عن البكاء، كما توقفت خالتي عفا الله عن الاستمرار في الحديث. وجلست البنات بجوار أختي في أحد الأركان يتهامسن، وهن يعاودن النظر إليَّ. وازدادت الهمسات، وإذا بأختي تقف قائلة: - فين الطلبة؟ الطلبة فين؟ البنات جايين عشان نطبل.. عاوزين نغني.

نظرت أمي في دهشة قائلة:

- حتغني إيه يا بت انتِ وهيَّ؟

ثم نظرت إلى النسوة الجالسات:

- طبله إيه انتِ وهيَّ؟

ونظر البنات بعضهن لبعض والبسمات تعلقو شفاهن:

- الطيلة فين؟ إحنا عايزين نطبل عشان خاطر ابنك.. إحنا فرحانين لما جه
وقعد بينا.

وإذا بخالتي عفا الله تقول:

- إنتم عاوزين تغلوشوا علينا؟ ما تسيبونا نتكلم!

وإذا بالبت رقية تقول:

- خبر إيه يا خالتي عفا الله؟ ما تخليكم في حالكم وتخلونا في حالنا!

وجاءت أختي بالطيلة، وأشعلت ولعة صغيرة، وشدتها، وبدأت البنات الغناء
بأغنية «آه يالموني يالموني يا لموني».. وعندما بدأ الغناء التهبت القلوب
المكبوتة وأشجاها الغناء. وإذا بالنسوة الجالسات المنهمكات في الحديث
ينتبهن، ثم يتوقفن فجأة عن الحديث، وترتفع أكفهن بالتصفيق، وينسين
همومهن بالاشتراك في الغناء مع البنات المرحات. وهمت أختي واقفة،
واتحزمت بالشاش، وبدأت ترقص رقصة مبدعة. وكان لرقصات أختي صداها
بين البنات مما دفعهن إلى الرقص متتابعات، واحدة بعد الأخرى، ودب
التنافس بينهن.

وقفت البت رقية، وخلعت الشاش من على راسها، وبقيت بمنديلها الأحمر
الزاهي، وانكشف شعرها الأصفر المجدول الواصل إلى فخذها. وبدأت تهتز
بين الجالسات، فزاد الحماس، حتى الرجال الواقفون دب الحماس فيهم،
فأخذوا يصفقون ويحدفون اللبد على بعض، مما جعلها تواصل الرقص ببراعة
وخاصة بعد أن نظرت إلى الجالسين، وحدفت شعرها المجدول من الخلف

إلى صدرها.. كان كل ما بجسدها يتحرك.. وعندما وقفت ترقص رقصة الرقبة
وتطيل النظر، صاح كل الجالسين، حتى أمي الباكية الحزينة جفت دموعها
وعلت البسمة شفيتها وكشفت عن أسنانها البيضاء المنتظمة وابتسمت،
واحمرت وجنتها عندما رأت البت رقية بالقرب من قدمي تواصل رقصاتها..
وانطلق لسانها يردد الدعوات: - إلهي ربنا يجعل لك عيش في بيتنا! إلهي
يعدلها لك! إلهي ما حدش يبجي لكم في ردى! نورتم بيتنا! إلهي ما
ينقطعلكوش حس!

وامتلاً البيت بأبناء الحارة. وانطلقت القلوب المرحه، وعلت البسمة شفاه كل
من اشترك في الغناء. وأخيراً جلست رقية إلى جانبي بعد أن رقصت رقصات
طويلة. جلست على تصفيق حاد متواصل، والجميع يتطلعون وينظرون إليها،
وهي تبتسم. وبدأت الهمسات.. همسات بعض النسوة.. منهن من تقول: - دي
ولا الغازية، دي كانت بتهز وسطها ولا التعبان.. شوفوا يا ولاد! هو انتو
شوفتوها وهي راكزة على ركبتها وبتهز...!

وأخرى:

- شفتم بطنها كانت بتعمل إيه، كانت بتهزها زي اللي عندها رعشة!

- يا بخت اللي حيتجوزها، حتبقى في إيديه زي الميه!

همسات وهمسات.. والتصقت البت رقية بي، وغنت أغنيات أخرى، والجميع
يردد: «سالمة يا سالمة، تروح وترجع لنا بالسلامة». وكادت الحيطان تتزحزح
من كثرة التصفيق والأغاني. وقبل أن تذهب البت رقية إلى بيتها مالت على
أذني قائلة: - أنا ما رقصتش لحد.. دعوني في أفراحهم وكنت ما ارضاش.. أنا
ما رقصتش إلا علشانك.. علشانك بس.

واسترسلت:

- حتمشي إمتى؟

- الصبح.

- الصبح؟

وصممت لحظة، وشحب لونها، وهمست:

- الصبح؟ الصبح إمتى؟

- بعد الضحى.

- إوعى تمشي إلا لما آجي وودّك!

واقترب وجهها من وجهي وكادت تُقبلني لولا وجود النسوة. واقتربت، زادت اقترابًا مني، وكادت أن تقول لي شيئًا.. كادت أن تقول: «اتحجج بأي حاجة!» كأنها تريد أن تقول: «على الكوم حاستنى في نور القمر، نكمل كلام امبارح!»، ولكن شيئًا ما منعها. وإن كنت قد أيقنت من نظراتها الزائغة أنها ترغب في الاستمرار في الجلوس بجانبني. وعادت وكررت ما قالت منذ ثانية.. وإذا بصوت يناديها من الخارج، فهمست إليّ قائلة: - أنا ماشية.

واتجهت مسرعة نحو الباب وهي تحاول إخفاء دموعها. وقالت بصوت مبحوح لا يكاد يُسمع: - اتحجج.. وان ما قدرتش، بُكرة الصبح هاتحجج من أمي وآجي لك تاني قبل ما تسافر.

لم يبق في المنزل إلا بعض الأقارب.. التفوا حولي. وقالت أُمي لخالاتي: -
شايفين بيتنا عامل ازاي؟ منور عشان فكري موجود.. ليلة حلوة!

فردت خالتي عفا الله:

- ما تقعد يا وله وبلاش تسافر.. هَوَّ انت بتعمل هناك إيه؟

- باشتغل هناك عامل.

فقال خالاتي وهن ينظرن إلى بعض متسائلات: - عامل؟ عامل إيه؟
إيه الأسامي اللي انت جايها لنا دي؟

فقال واحدة:

- ما هم بيقلوا كده في البندر.. بيقلوا على التلمي هناك عامل.

قلت:

- تلمي إيه؟ التلمي ده عند العمدة اللي بيشتغل طول السنة نظير قيراطين
بيزرعهم يشتغل فيهم هَوَّ وولاده. وآخر السنة ياخذ منهم العمدة المحصول
وبديهم القليل منه. إنما هناك، كل واحد واقف لوحده على مكن، والقبض كل
خمستاشر يوم. مكن داير. وشغل داير. ما احناش عارفين واحد بنشتغل
عنده، عشان كده يقولوا عليهم عمال وما يقولوش تلمية.

قالت أُمي:

- ما هو انا مانيش خايفة عليك إلا من اللماضة بتاعتك دية.

فرد أخي قائلاً:

- جرى إليه يا ولية؟ مفيش على لسانك إلا كلمة لماضة؟! قومي شوفي حياخذ
إيه في السفر وباه.

وبعد أن انتهت أمي من إعداد كل شيء، وجهزت كل ما أحجاجة، وحرصت
العيش في القفة، جلست بجواري.. وبدأ النوم يغالبني.. وتشاجرت إخواني
لأن كل واحدة تريد أن تنام بجواري، فقالت أمي: - لا انتِ ولا هي.. معاي أنا
في حضني حينام.

وبدأ كل من إخواني يأخذ مكانه للنوم. ووضعت أمي يدها تحت رأسي. وبعد
فترة وجيزة، رفعت أمي رأسي، وسحبت يدها بهدوء، ثم نهضت، وتوجهت
إلى الغرفة المجاورة، بالقرب من عتبة الباب بدأت تخرج فلوس من التي
كنت قد أعطيتها لها، وأخذت ترن البراييز، بريزة وراء الأخرى، وعلى ضوء
لمبة الجاز أخذت تنظر في البراييز لتتأكد من أنها ليست مغشوشة، وأن
الكتابة اللي عليها واضحة. وكلما رنت بريزة أشرق وجهها وابتسمت، وهي
تنظر لي تارة، وإلى البراييز أخرى. وبعد أن انتهت من فحص البراييز، اتجهت
لي، وعلى نور الللمبة وقفت وهي تتردد في تصحيتي. وهي لا تعلم أنني صاحي
ألاحظها، لقد تتبعت كل حركاتها وابتساماتها في هدوء دون أن أشعرها. وكلما
اقتربت مني كنت أسبل عيني لكي لا ترى أنني صاحي. كانت واقفة وشففتها
تتحركان في صمت حتى لا تقلق أحدًا من النائمين. كانت ترفع يدها إلى
السماء تارة، وتتوجه إليَّ تارة أخرى... وأخيرًا، رقدت إلى جواري في هدوء،
ورفعت رأسي، ووضعت يدها الناعمة تحتها.

وفي ساعة متأخرة من الليل، صحت على شيء دافئ يتساقط فوق خدي،
فهممت واقفًا. كانت دموعًا تنساب من عيني أُمي.

- إيه ده؟

- مفيش.. نام يا ابني!

- إنتِ قاعدة كده ليه؟ إنتِ بتعيطي؟ بتعيطي ليه؟

- لا، مفيش.. نام يا حبيبي!

- أمال الدموع اللي نزلت على وشي دي مينين؟

- لا، مفيش حاجة. أنا كنت باشرب ونقطت فيه ووقعت غصب عني.

تلفت حولي، فوجدت إخواني كلهم نائمين.. وقالت أُمي: - ما تنام.. نام يا وله.

- أمال انتِ قاعدة ليه؟

- نام.. نام.. أنا رايحة أنام أهه.

وراحت نائمة، وضماني في حضنها، وأغمضت عينيها متظاهرة بالنوم. وانتابني
القلق، وقلت في نفسي: «خلاص، بُكرة الصبح أنا مسافر. وُبكرة زي دلوقت
أكون ع المكن واقف.. اتناشر ساعة، من أول الليل لحد الصبح، وأمي حتكون
هنا نائمة، أو صاحية بتعيط.. وتعيط ليه؟ هيَّ بتعيط عشان أنا موجود هنا
قدامها. بتعيط عشان خايفة من أبويا حيزعل عشان ما حافظتش على الوصية
وما علمتنيش.. هيَّ قالت كده النهارده.. وأبويا حيزعل منها ليه؟ هيَّ عملت
حاجة؟ دا انا اللي هربت ورحت المحلة، أنا من نفسي.. هيَّ حاولت معايا، وما

زالت تحاول.. هيَّ لازم تقول له الحقيقة.. يمكن خايفة أحسن يضريني؟
وحضريني ليه؟ مش يدوب حيزعل؟ حيعمل إيه آخرتها يعني؟ حضريني
قلمين ولَّا عصائتين يا دوب وبرجع تاني يصالحني، زي بعضه، وأبقى انا نفدت
اللي في مخي.. خلاص، عرفت آخرتها. حلني لما أنا أقابله. موت يا حمار عبال
ما يبجي لك العليق. حاقبله إمتى؟ مش يوم القيامة؟ حلني لما القيامة
تقوم.. هو مش مكتوب في القرآن ألف ولا تؤلفان.. دا يوم القيامة ناس كثير
حتموت.. هوَّ حد حيعرف حد.. افرض.. ما هو مات وانا صغير، وشكلي حيكون
اتغير، مش حيعرفني. يمكن يحصل حاجة في الغربية وتتدفن هناك في ترابها،
ويبقى لا شافني ولا شفته».. خلاص، أقول لأمي الكلام ده عشان أريحها
وتبطل بكا.. خلاص. حاقول لها أهه.

- أما.. أما.. اصحي ياما.. ما تردني، ساكتة ليه؟ عنكي مفتحة أهي، ما بترديش
ليه؟! ما هي الدموع نازلة أهي!

فأغمضت عينيها ولم ترد، ومالت بوجهها جانبًا. وحاولت أن أجذب بيدي وجهها
نحوي، ولكنها قالت بصوت مبسوح: - نام يا وله، والصبح نتكلم.

وحاولت أن أنام، ولكن النوم ضاع من عيني. ومر بخاطري عديد من الصور.
تذكرت عبد العظيم وهو واقف على المكن وأنا بجانبه، تذكرته عندما قال: «ما
تنساش تجيب معاك عصاية من طنطا، أخوك يجيها لك عشان أهل المحلة
بيستعدوا ولازم نستعد احنا كمان».. وتذكرت الشيخ علي ونحن في بيته
عندما قال: «إحنا لازم نبقي نجتمع ونواصل الاجتماعات عشان ننظم نفسنا،
ونواجه أهالي المحلة». وقلت في نفسي: «بكرة الصبح أنا مسافر، وبالليل
حاشتغل، والصبح حواصل الاجتماعات في بيت مين؟ في أي بيت يقولوا همَّ
عليه».

بُكرة الصبح أول ما أصحى أبقى أقول له.

وتذكرت قول الرجالة اللي كانوا عندنا امبارح: «نكتب شكاوى للحكومة..
الظرف اللي ما يصيبش يدوش».. قلت: «أنا لما أسافر حابقى أقول لهم..
أقول لعبد العظيم نكتب شكاوى وتمضي عليها العمال للحكومة وللنيابة تيجي
وتحقق، حنخسر حاجة؟ ما هو الرجالة اللي كانوا قاعدين هنا قالوا كده، قالوا
الظرف اللي ما يصيبش يدوش.. يمكن يبجي من ورا الشكاوى حاجة فيها
فايدة. المهم حابقى أقول له. أمي مش كانت بتقول ما يموتش حق ووراه
مطالب، إحنا نطلب واللي على الله يكون. أنا مش فضلت ورا التوب لحد ما
أخدت، مش دخلت للمدير وكلمته.. كنت صاحب حق.. عمل فيّ إيه المدير؟
مش هوّ ده اللي بيخوف العمال، واللي ساعة ما كان يخش العنبر تنهز
حيطانه وبتهيأ للواحد إن الممكن اتزحزح من مكانه؟ عمل إيه، مش اداني
التوب؟ أهو كل مرة يبقى أخش له، وأقول للعمال تبقى تخش له.. ما حدش
بياخد الروح إلا اللي خالقها.. أخويا قال كده».

أفكار.. وأفكار.. وأخيرًا قلت: «بُكرة الصبح أنا مسافر، والبت رقية حتيجي
وحتقول لي: مع السلامة، ما تنساش تجيب لي معاك منديل».

خليكم معنا شوية

صحت على أصوات الديوك التي طال شوقي لسماعها، وأخذت أعبث بكل ما في المنزل. كنت أدخل حجرة بعد أخرى، أنظر إلى الخشب وإلى العنكبوت المعشش في السقف، وإلى القفف المترصصة هنا وهناك. ودخلت الزريبة والجاموسة نائمة دافنة دماغها عند أرجلها، والحمار واقف ومعزة أختي وولادها بجوارها، والأرانب وهي طالعة من المجاهر.. طالعة في حذر واحدة وراء الأخرى تأكل، والديك وهو ينط على الفرخة ويزعق بعد ما ينزل.

سمعت دقات سريعة متصلة على الباب، فقلت يا ترى مين بيخبط؟ أمي نائمة، وإخواتي نايمين، يبقى يا ترى مين على الباب؟ تكون خالتي عفا الله؟ مش معقول! دا لسه بدري.. لسه على الشمس بدري.. يكون الولد الغريب جاي يصحيني؟ ولأ أمه جاية تاخذ من عندنا حاجة؟ وانتظرت أن تقوم أختي وتفتح، وأخيرًا وجدت نفسي عند الباب. وإذا رقية تدخل مسرعة، وعلى طرف المصطبة قعدت ساكتة لا تتكلم، وقالت محذرة لكي لا تقلق أمي: -

هس!

فقلت:

- مالك بتنهجي كده ليه؟ نفسك مكروش كده ليه؟

فجذبتني من يدي وهي تضع يدها على فمي قائلة: - اسكت. ما تتكلمش لما أستريح. هات إيدك.. اتكلم بشويش.. شوف صدري بيعمل إيه؟ قلبي بيدق!

- بيدق؟ بيدق من إيه؟

- من الجري.

- من الجري؟ وبتجري ليه؟

فسكتت لحظة لتأخذ نفسها، واسترسلت قائلة: - علشانك.. خفت.. أحسن..
تمشي.. من قبل ما.. أشوفك.. خد.. خد الدرّة ده.. درّة طازة.. رحّت الغيط..
أول ما.. الفجر أدن.. دورت الجري، ورحت قطعته علشانك.

كدت أطير فرحًا، وقلت في نفسي: «آخده معايا، آخده المحلة للبت اللي
صحتني وإخواتها.. مش همّ اللي سقوني وانا مطروب، لما العفاريت طلعت
لي، وهمّ اللي بيصحوني الصبح كل يوم من النوم؟ آخده معايا هدية لهم
وأديهم فطيرة من عمايل أمي».

وجلست بجانبها نواصل الحديث في هدوء. وتلفتت حولها، وفردت ذراعها
على الآخر بعد أن تأكدت من أن أمي وإخواتي نايمين، واحتضنتني وهي تقول:
- جريت ورحت الغيط وجمعت الدرّة بدري، وأهو آديني لحقتك قبل ما تسافر!

ثم سألت:

- إنت حتسافر إمتى؟

- الصبح.

- الصبح إمتى؟

- بعد الضحى.

- وحتعمل إيه؟

- حاشغل.

- وإيه كمان؟

- حاقول للناس نكتب شكاوى.

- شكاوى إيه؟

- شكاوى للحكومة وللنيابة.

- بس؟

- الله، أمال عايزة إيه؟

- بس؟!

- وحاكل.

- حتاكل إيه؟

- عيش.

- وإيه كمان؟

- وفلافل.

- وإيه كمان؟

- وفول.

- وایه کمان؟

- مفيش.. لما الفلوس تخلص آكل عيش حاف!

- يا خرابي! ليه كده؟

- يعني الفلوس لما تخلص، أعمل إيه؟ مفيش غير كده، نستحمل أصل مفيش

حد هناك بيسلف!

- طيب. وانت جاي حتجيب إيه؟

- حاجيب إيه؟ حاجيب معايا عيش خاص وفلافل كمان لإخواتي.

- وایه کمان؟

- وحلاوة كمان.

- بس.

- الله! أمال حاجيب إيه كمان؟ آه.. آه.. نسيت، حاجيب معايا لك منديل.

فاحمرت وجنتاها ودقت على صدرها قائلة:

- نقيه كويس، أحسن من اللي انت جيته.

- عاوزاه لونه إيه؟

- أحمر مشغول.. مش زي بتاع أختك.

ولم تتمالك نفسها من الفرحة، فمدت يدها نحو شفتيَّ وداعبتهما بطرف
إصبعها، وكدت أن أصرخ لولا أُمي النائمة.

زعقت الديوك من جديد إيذانًا للنائمين بأن يصحوا.. وبدأت الديوك تتحرك من
الداخل إلى الحوش بجوار النائمين لتلتقط ما تبقى من حبوب. والفراخ تكاكي
هنا وهناك. والديوك تدن هنا وهناك في البيوت المجاورة، وخرجوا بغاغة،
قالت رقية في همس: - الفراخ عاملة هيصة كده ليه؟ أمك حتصحى!

ولم تكد تتم كلامها حتى صحت أُمي ورفعت رأسها متجهة نحو الفراخ، وكادت
أن تقول لها «هش»، عندما رأنتي جالسًا ورقية بجواري.. فبادرتنا قائلة: - الله!
إيه اللي جابك بدري يا بت؟ إيه اللي جابك بدري كده؟

فأجابت رقية باضطراب:

- جيت أشوف فكري قبل ما يسافر، رحى الغيط أول ما عيني فتحت وقطعت
له درة ياخده معاه.

فقالَت أُمي:

- الله! الشمس قربت تطلع! ولما جيتي يا بت يا مقصوفة الرقية ما صحتنيش
ليه عشان أقوم أوضب الحاجة؟

وقامت لتزيح الحطب المتنطور في الحوش، وزعقت على إخواتي: - يا بت
انتِ وهيَّ.. قوموا بقه، الشمس قربت تملا الدنيا.. ما هو راحت علينا نومة من
السهر.. صحي أخوكي يا بت، صحي أخوكي محمد يفحت نقلتين من الزريبة
ونوديهم بدري. قومي يا بت اكنسي الدار.

وإذا بالبت رقية تقول:

- اقعدي ياما السيدة انتِ.. اقعدي انتِ وانا حاكنس بدالك. وانت روعي شوفي
حتعملي إيه لفكري ياخده معاه.

فقالت أمي:

- كل شيء جاهز من إمبرح، ومفيش غير ان احنا نقعد معاه ونشيع منه عبال
أم الولد الغريب وأم الولد السيد الصفطي ما بيحوا ويقولوا إحنا جاهزين..
ونكون شوينا الدرة وأكلنا معاه.. أهى ساعة زمن وما حدش عارف الوجوه
حتقابل ولّا ما تتقابلش.. مكتوب علينا البهدلة والغربة.. إيه اللي زانقه عليها؟!
لكن، على رأي المثل «إلي مكتوب على الجين لازم تشوفه العين». قومي
اكنسي، وافرشي، يمكن حد يبجي يسلم عليه.. إلهي يسترها معاكي. إنت
بنت الحبايب، والحبايب همّ اللي بيحوا ويقعدوا وباه.

وانتهت أمي من كل شيء، وانتهت أمي من كنس ورش المنزل، وصحت
إخواتي، وأخذت كل منهن تتئاب وتمسح عينيها بيديها، وتبربش بالجفون
المتشابكة، وسمعت صوتًا ينادي من بعيد، من الخارج: - يا بت يا خسكية.. يا
بت يا خسكية.

أصوات وأصوات، وأختي جالسة في مكانها لا ترد، وأمي تقول: - يا بت شوفي
مين اللي بينادي.

وأخذ الصوت يقترب، فعرفنا فيه صوت البت زينب بنت عمي علي الجوهرى.
واستمرت تنادي، فزعقت أمي في خسكية قائلة: - قومي يا بت يا مكسورة
الرقبة، قومي على حيلك شوفي مين اللي بينادي!

وإذا بالبت زينب تقف على الباب وهي تقول: - صباح الخير.. فين البت
خسكية؟

فترد أمي:

- صباح الرضا، خشي.

ولكن زينب قالت:

- خليها تيجي معايا لحد الغيط.

وظلت أختي ساكنة، وزينب تدخل وهي تواصل الكلام، إلى أن وقعت عينها
عليّ، فشهقت، وقد احمرت وجنتاها خجلًا، وحاولت أن تخفي وجهها بعيدًا
وهي تقول: - يا كسوفي.. إيدي وسخة من مطرح السبخ، وهدومي مقطعة.. يا
جُرستي!

وهرولت عائدة وهي تخفي وجهها براحتها.

كان كل شيء يعد، والبيت يمتلئ بالناس والجالسين في الحوش.. الكل داخل
يسلم.. والدقائق تمر سريعًا، وأمي تعمل بنشاط في تحضير كل ما أحجته،
وإخواتي يطلن النظر لي كلما دخلن من حجرة أو خرجن من أخرى وشفاهن
تتحرك: - دقائق وحيمشي، ونرجع نقعد زي الغلابة، لا حد يخش ولا حد يطلع.

- دقائق والقفة تنشال.

ورقية تخرج مسرعة ثم تعود أسرع مما خرجت، وهي تقول: - يا خالة السيدة،
أنا خدت إذن من أمي عشان أروح أوصل فكري وياكم، وأشيل القفة.

فترفع أُمي يديها إلى السماء داعية للبت رقية، وتعود فتعري شعرها وهي تقول: - إلهي يجعل في وشك القبول يا ابني! إلهي يجعل في وشك جوهرة وفي حنكك سكرة! إلهي يجعل لك في كل خطوة سلامة يا فكري يا ابن بطني وحشاي!

دعوات.. ودعوات.. ورقية جالسة بجواري تؤمن على دعواتها قائلة: - مفيش أحسن من دعا الوالدين.. أمك بتدعي لك.

وأنا أقول همسًا:

- من يوم ما ولدتني وهي بتدعي، لو دعوة جازت لطلعت السما السابعة، لكن ربنا لحد دلوقت ما استجابش.. دي لو كانت كل الدعاوي دي من أُمي ومن الناس استجابت ما كناش بقينا قاعدين كده دلوقت، لكن ربنا ما فتحش باب السما، باب السما مقفول.

فترد رقية بانزعاج:

- متقولش كده، استغفر أحسن تنسخت!

- أنسخت؟! أنسخت إيه؟ هوّ انا قلت حاجة؟ أمال ما بيسخطش الناس اللي بيموتوا العمال إيه؟ هوّ انتِ مش كنت ماشية ويايا إمبرح، ما شفتيش الراجل اللي كان ماشي وسط الغيط ويغني ويبستغيث بالله، ما سمعتيش كان بيقول إيه؟ كان بيقول «البين عملني جمل واندار عمل جمّال».. والبين ده مش هوّ صاحب الأرض اللي بياخذ الزرع ويحجز على البهايم؟ مش هوّ اللي بيشتكى منه؟ حد عمل له حاجة؟ ربنا لحد دلوقت ما سخطش صاحب الأرض ده إيه؟

وقطع همسي لرقية دخول الولد الغريب، ومعه شلة من الأولاد، وطلعت أمي عليه من قاعة الفرن تجري، قالت: - خلي بالكم من بعض.. إلي معاه لقمة يديها للتاني، هوّ ما راحش إلا عشانكم!

ورد الولد الغريب:

- إحنا مع بعض هناك.. إلي معاه حاجة ما بيحوشهاش عن التاني.. يلاً نقوم بقه نساfer عشان ناخذ وقتنا بدري.

فقال أمي:

- مستعجلين ليه؟ خليكم معانا شوية! هوّ حد عارف الدنيا حيحصل فيها إيه.. الدنيا مكركبة.. الدنيا مقلوبة.

وهنا دخلت أم الولد الغريب، بينما أمي كانت تحني رأسها في الأرض وهي تحاول أن تخفي عينيها عني، وأم الولد الغريب تتوجه إليها هامسة: - ما تعيطيش كده يا ولية، ما تعيطيش كده قدامهم.. العيال رايعين على السفر، قومي وضبي لهم الحاجة، حيشتغلوا بالليل، حيقفوا على الممكن، ولا فيش حد منا وباهم.. كل ما خدنا وقتنا بدري، كل ما كان أحسن، ويكون عندهم فرصة للراحة.

وتقف أمي ساهمة تجز على أسنانها، وتنظر إليّ خلسة.

ويأتي أخي من برّه، فتقول أختي:

- أخويا حيسافر!

وتتقدم رقية وعيناها على القفة. ونسوان تأتي من برّه على الهيصة، وأطفال
تنادي على بعض في الحارة: - تعالوا يا ولاد فكري حيسافر، حيمشي دلوقت.

ويتكبيوا على الباب، وأمي تنظر لهم في أسي. وكاد نفسي يختنق من
السلامات وعبطهم فيّ، ومن زحمة النسوة الواقفات.. والوقت يمر،
والشمس تملأ السما، وأخويا على المصطبة قاعد بينبش بالعصا في الأرض،
ويده الأخرى على خده، وأصابعه تتحرك حركة لا إرادية، وأمي تزعق: - نادي يا
بت لخالاتك، قولي لهم فكري حيسافر، و...

وتدخل خالاتي، كل واحدة شايلة مقطف على راسها ودخلوا على القاعة،
وأمي من ورائهم تنادينني: - تعال اقعد جنب خالاتك، جايبين لك القشدة
وياهم.. كل.

فقلت:

- أنا شبعان.

- يا واد كل.

- أخذها معايا.. حُطيتها في القفة.. آكلها هناك.

وأخويا يزعق:

- الساعة بقت عشرة، يلاً قبل الدنيا ما تحرّر.

وإخواتي البنات تتقدم، ورقية على القفف واقفة، وأمي تخرج تشيّل البنات،
ورقية تمشي في المقدمة تمسح دموعها بطرف كمها، وأمي تاخذني في
حضنها تبوسني من كل حة في وشي، وأخويا ياخذني في إيدته، ونسوان تيجي

تبوسني في السكة، وأمي ورايا ماشية بتعيط وإيديها مرفوعة للسمما تطلب
أن أعود لها سالمًا، ونسوة كثيرات يشاركن أُمي في الدعاء: «إلهي ترجع لها
بالسلامة.. إلهي ما ينحرق لهاش قلب عليك.. اتجدعن يا ولد...»، وأطفال
يتعلقون بأذيال أمهاتهم ينظرون لي في تساؤل مستغربين من زحمة الناس،
ومن السلامات.. أشياء غريبة لم يروها، وشخص لم يروه تحتضنه أمهاتهم
وتبوسه.

وعند مشارف القرية، توقف الموكب، وجاء آخرون.. الكل يسلم، والبعض
يبكي، وأختي تزعق لي وعيناها دامعتان، وأخويا ياخذني بجواره، ورقية تهمس
في أذني: - إوعى تنساني!

وأخي يقول:

- اتجدعن، خليك راجل. أنا سمعت من الولد الغريب إنك ضربت واحد من
أهالي المحلة حب يستكردك وياخذ منك المقص، وانت ما حكتليش!

- وإيه يعني؟ نسيت، من الزحمة.

فارتسمت على شفثيه ابتسامة عريضة ودخل بيني وبين البت رقية قائلاً: - يَلَّا
يا عم جهز المهر، حوشه، حنجوزك البت رقية، هيَّ على أدك، دي بت
شاطرة، كل ساعة عندنا في البيت، ما بتسألش إلا عنك.

هذا، ورقية تداري وشها بالشاش، وتقبض على يدي بشدة، وهي تكاد أن تقول
«أنا موافقة.. قول له أنا موافق»، وجذبتني نحوها، ووضعت يديها على كتفي،
وإذا بأمي تناديني وتمشي بجواري.

لم تتوقف أُمي عن الكلام طول الطريق، وكانت رقية تنصت لكل كلمة تخرج من فمها، وكأنها تنتظر كلمة الزواج، ولكن أُمي كانت تزودني بنصائحها، كانت تقول: - امشي مع أكبر منك، أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة.. ما تمشيش إلا مع اللي أكبر منك، منه تستفيد.

لم تكف عن الوعظ طول الطريق، وأردت أن أقول أني عملت بهذا الكلام محاولاً إسكاتها، ولكنها كانت مسترسلة دون توقف: - خَلِّي بالك من نفسك، لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته هانك. الخلف «العِرة» يجيب لأهله اللعينة.. ما تشتمش حد عشان ما حدش يشتمك.. امشي في سكتك عدل
يحتار عدوك فيك!

مظاهرات طنطا

وفي أوائل الطريق بالقرب من طنطا لم نجد أحدًا خارجًا من شوارعها.. كان كل شيء هادئًا بلا حركة.. لا ناس داخله، ولا ناس خارجه.. لا ناس تبيع، ولا ناس تشتري. وقالت أمي: - الله! هوّ حصل إيه؟ هيّ طنطا مالها؟ هوّ فيه حاجة! هوّ السوق اللي عند وابور الجبان مفيش فيه ناس ليه؟ الناس راحوا فين؟ إللي بيعوا الغلة والسمنة، راحوا فين؟! الأبواب مقفلة، والشبايك مقفلة! همّ في المولد؟ المولد لسه ما جاش! الله! الشوارع مليانة طوب كده ليه؟ هوّ فيه عاركة؟ الطوب مالي الدنيا كده ليه، والشبايك نص مفتوحة؟!

وسألت أمي وأجاب أخي:

- إنت مالك؟! إنت بتسألني على اللي ملكيش فيه ليه؟! يمكن يكونوا نايمين.

- نايمين ليه؟ الضهر لسه ما ادنش؟

وعادت أمي إلى الحديث وإخواتي ينظرون في تساؤل.. وإذ بي أسمع أصواتًا ترن كالرعد، آتية من بعيد.. أصوات تدوي في السماء.. وملت بأذني لكي أسمع.. وكلما سرنا خطوة، اقتربت الأصوات منا وازدادت قطع الزلط في كل مكان.. في الشوارع والعطف.. وعلى الأرصفة.. والمحلات مغلقة.. والدكاكين ضلفها مقفولة.. والشوارع خالية حتى من الباعة المتجولين.

كان كل ما بالمدينة مُغلَقًا.. لا أصوات ولا نسوة ولا باعة.. ولا أحد سوانا في الطريق وإخواتي تتلفت! ورقية تسأل: - البلد مالها كده؟ دا مفيش حد! دي

طنطا كل الناس بتيجي لها وتبيع فيها الحاجة!

وأخي يقول:

- ما تمشوا ساكتين يا ولاد! إنتم مالكم؟ مالكم كده؟!

والأصوات تقترب وتقترب كالموج.. كالرعد.. وملت بأذني من جديد محاولاً أن أسمع، وكدت أن أقول لأمي: «اسكتي ياما.. اسكتي.. بطلي شوية.. عاوز أسمع».

وإذ بعساكر تملأ الطريق بالقرب من ميدان الساعة.. عساكر كثيرة واقفين شايلين البنادق على الأكتاف وآخرون بأيديهم العصي، وعلى رؤوسهم برانيط من حديد، وجندي يقترب من حاملي البنادق قائلاً بصوت جهوري: - اقفي يا ولية انتِ وهيَّ عندك.. اقفي باقول لك لاحسن آجي أمرمغك في الأرض!

وتقف أمي مذهولة:

- إيه ده؟ جرى إيه يا واد انت وهوَّ جاك قطع لسانك.

والتف حولنا آخرون رافعين العصي بأيديهم.. ووقفت مذهوشاً.. أنظر في وجوههم وما يحملونه على الأكتاف.. ولم يعطونا فرصة الكلام، بل بادرونا قائلين: - يلاً يا ولاد الكلب.. يلاً يا مَرّة.

وأمي ترد:

- مَرّة في عينك قليل الأدب! هوَّ كل واحد لبس حته بنطلون بيتأمر؟! هوَّ بيروح العسكرية إلا ابن أم... ابني حيسافر، رايح يشتغل في المصنع.. هوَّ انتم واقفين زي زبانية جهنم كده ليه؟

ويقول أخي:

- إيه يا عسكري انت وهوّ؟

وإذا بالأصوات تقترب، وعساكر تتجمع، وعربيات مليئة بالعسكر، وناس راكبة قدامهم وعلى كتافهم حاجات بتلمع، وأمي تقول: - جاتكوا شوطة.. جاتكوا شوطة تلمكم! إنتم واقفين زي قطاعين الأرزاق! إنتم حتعطلوا الواد عن شغله!

ورقية ترد:

- يلاً ياما السيدة نرجع.. دي القيامة رايحة تقوم!

وعسكري يقترب وآخر يلعن:

- يوم ملوش شمس.. يوم أسود.. خدي ابنك يا ولية وامشي!

وأمي تصرخ:

- حتعطلوا الواد عن شغله!

وتقدم آخر يدفعها جانبًا وهو يقول:

- خديه يا ولية من هنا وامشي، الدنيا كلها واقفة على رجل!

وتدخل جندي ثالث موجّهًا الحديث إلى زميله قائلاً: - ما تزقهاش كده يا جدع

انت وهوّ.. هوّ انتم ملكوش أهل؟ دي زي أمكم!

وعساكر تتجمع يدخلون وراء بعضهم طوابير.. وأمي تتوسل: - خلي الولد يروح

شغله.. خليه يسافر.. دا يتيم.. حيقعد في المحلة لوحده!

وانا واقف في وسطهم أنظر متلفتًا أتفرس كل من حولي.. متسائلًا.. ورقية
تجذبني من جنبهم.. وتقول: - تعال هنا ابعده.

وإذا بالأصوات البعيدة تقترب، في وضوح وصخب أكثر هذه المرة، والعساكر
تجري، ومنهم من أخذ في تصويب البنادق، وأصبحت الشوارع كلها عساكر..
وأمي تتساءل.. وجندي يهمس: - خدي ابنك يا ولية من هنا وامشي.. الأزهرية
عاملين في البلد دوشة!

وفوجئنا بالطوب ينهال من على أسطح المنازل، فرفعت رأسي، ووجدت
نساء تطل من فتحات الشبايك.. وسرعان ما جذبتني أُمي للوراء وهي تقول:
- قطيعة.. قطيعة الشغل وصحابه.

تعال.. أنا مش مستغنية عنك تيجي لك طوبة، تضيعك، ولَّا عصاية تاخذ أجلك!

توت.. توت.. توت! الصفاير تضرب وتضرب، وأتومييلات تتجمع وعساكر
تركب بسرعة وأتومييلات تجري.

ووقفنا من بعيد ننظر.. وإذا بعالم ترش الملح ما ينزل.. عالم ماشيين ورا
بعض.. وناس محمولة على الأكتاف.. في اتجاه شارع المديرية.. وأعلام
مرفوعة.. وعالم لا يعد.. خيل إلِّي أن القيامة قامت والناس كلها ماشية..
أصوات من الأعماق تجلجل في السماء، وتهز أركان المنازل.. تتخللها زغاريد
من الشبايك وهتاف: «يحيا الوفد ولو فيها رفت».. وإذا بي أجد نفسي
مدفوعًا في اتجاه الناس.. ناتئًا نفسي من أُمي.. وأُمي تجري خلفي وأخويا
يزعق.. وجاءني صوت أُمي: - تعال يا ولد.. تعال يا ولد.. إيه النهار الأسود علينا
ده؟ حوش يا أخويا يا اللي واقف.. الواد يتوه مني.. يا خرابي يانا!

وأختي خسكية تنادي هي الأخرى، والبت رقية تزعق.. وإذا بصف من العساكر
من حاملي العصي.. يقف في الطريق.. وأمي تلحق بي، وتمسكني من يدي..
وعيناها مبللتان بالدموع.. وتخاطبني في صوت متقطع: - إيه يا وله؟! إيه اللي
جرالك؟! هُوَ انت شيطان؟! الدنيا مقلوبة.. مدور الجري على فين؟!

هَوَّ انت هناك كده؟! أنا خايفة عليك.. تعال قُطع الشغل وصحابه!

وأنا في إيدها تسحبني سحبًا، ماشي أبص ورايا وأسمع الهتافات، وأسمع أخي
يقول: - تعالوا من هنا.. من الشارع الثاني.. يمكن نلاقي حتة مفيش فيها
عساكر واقفة.. تعالوا من شارع الحلو، يمكن نروح وما نلاقيش حد يحوشنا
في السكة.

واتجهنا إلى حيث أشار، وإذا بالشوارع والعطف مليئة بالعسكر حاملي
البنادق، ولا أحد من الأهالي.. والعربات تجري حاملة ناس متعورة ودمهم
سائل.. والضجة تهدر.. وأمي تصرخ: - حصل إيه يا ولاد؟!

وإذا بواحدة تطل من الشباك:

- خدي ابنك وامشي يا ولية! الدنيا مقلوبة! الناس في الشوارع والأزهر بيهتف
والعساكر كلها بتضرب علشان بيهتفوا للوفد وبيقولوا النحاس... يرجع!

وأمام الباب كانت العساكر تملأ الطريق.. لولا واحد على كتفه ضباير عمالة
تلمع.. هو اللي أخذنا.

أمي اترجته وقالت له:

- الولد حيسافر.. ساعدنا لاحسن حيتأخر!

فنظر لي في عطف، ثم أرسل معنا عسكري أمسكني بيده وسار بنا في
إحدى الحواري القريبة من المحطة.. وبالقرب من المحطة سمعنا الهتافات:
الشعب.. الشعب.. يحيا الشعب

طبق من فضة ومن نحاس.. إحنا وراك يا نحاس

حبيب الأمة.. النحاس.. زعيم الأمة.. النحاس

إحنا وراك.. يا نحاس

والأصوات تقترب، وتصبح أشد صراخًا.. وأمي تنصت وتتساءل: - إيه ده؟ إيه
الغاغة دي كلها؟!

ويجب أحد الواقفين:

- الحكومة لغت الدستور.. وعملت حزب اسمه «حزب الشعب» زي ما
الإنجليز عاوزين!

وآخر يتطوع قائلاً:

- دول رخصوا علينا القطن! خربوا بيتنا! عهدهم أسود وسنينهم سودة!

وآخر يقول:

- حخلوا كل ثلاثة يقسموا المليم.. صدقي قال كده.

وتعود أُمِّي وتَسأل:

- والناس دول بيصوتوا ليه؟

فيرد آخر:

- دول ما بيصوتوش.. دول بيهتفوا.

- بيهتفوا ليه؟

- النحاس خليفة سعد.

- يا حلاوة.. حيرج تاني.. همَّ بيطلبوه.. إلهي ينصرهم على صدقي.. إلهي

يحمي لهم شبابهم ما دام بيطلبوا الوفد.

ويقول آخر:

- إحنا طول عمرنا مع الوفد.. ولا ننتخب غير الوفد.

وإذا بأصوات ترتفع ودخان يتصاعد.. أتومييلات ولعت.. وبنادق تضرب

والرصاص يئز في الجو.. والنساء من على أسطح المنازل تصرخ وتستغيث..

وأمي تلطم: - آه يا ابني حتروح لوحك فين؟ تعال يا واد البلد تاني.. هوّ انا

مستغنية عنك!

والولد الغريب يقول:

- لا.. إحنا حنساfer، مفيش حاجة راح تحصل.

وأمي تحصنني، وأخي بيوسني، وإخواتي البنات ينظرن لي من خلال الدموع،

ورقية تنظر لي هي الأخرى وهي تبكي، والبا جور يدخل سريعًا ويتوقف في

تباطؤ، والناس تتزاحم في الركوب، والهتافات من بعيد تدوي، وأخويا ينط من

الشباك يحجز لنا مطرح.. وأقعد على الكرسي وأمي تتكلم، وأنا أنصت
للتهافتات التي تزلزل الأرض: طبق من فضة ومن نحاس.. إحنا وراك يا نحاس
وقطارات من كل مكان تدخل بسرعة إلى المحطة وتتوقف، وناس تراحم في
الركوب، والضجيج يزداد.. ضجيج المسافرين، والتهافتات الآتية من الخارج
تغطي على هذا الضجيج، والقطارات تصفر صفاير متقطعة.. وتزداد
الصفاير وتعلو، وهي تعكس نغمًا حزينًا.. والركاب ينصتون. وإذا بأصوات
ترتفع من الشبابيك تهتف على نغم صفاير القطارات: تي.. تي.. يحيا النحاس

تي.. تي.. خليفة سعد

هتافات مطابقة لزميلاتها الآتية من بعيد، والنساء يزغردن زغاريد متواصلة..
وانقلبت القطارات كلها إلى هتافات.. وحتى صفير القطارات كان يشارك
التهافتات في اللحن في نغم واحد يلهب الحماس. وتلتهب الأيدي بالتصفيق..
وإذا بالجنود يقتحمون المحطة بسرعة حاملين البنادق يتقدمهم رجال على
أكتافهم أشياء تلمع.. وأعطوا الأوامر للجنود باحتلال الأرصفة.. وتوجهوا إلى
قدام.. وما زالت البواجير تواصل الصفاير.. والتهافتات تتزايد من كافة
القطارات.. حتى أُمي وإخواتي الواقفات على الرصيف أخذن يزغردن.. وأنا
واقف أهلل من الشباك كما يهلل الكبار وأهتف مع الهاتفين.

وفجأة، أخذت القطارات ترسل صفاير طويلة حزينة، معلنة بدء تحركها بأمر
من الضباط.. ودقت الأجراس من كافة الأرصفة معلنة بدء سير القطارات
التي أخذت تتحرك بطيئة بطيئة، والتهافتات تعلو وتسرع، وأمي تزعق: - انزل
يا واد انزل، الظلم حيروح، والنحاس راح يبجي!

وأخي يجري بمحاذاة الشباك وإخواتي يجري وراءه والقطار يصفر في نغمة
رتيبة: تي.. تي.. النحاس

ورؤوس تطل من الشبابيك تردد الهمسات، ورقية تجري في المقدمة يدها في
يدي، والقطار يسرع، وأمي تلوح بيدها بعد أن أعيها الجري.. وتركت يد رقية
بصعوبة واندفع القطار بعيدًا.. ونظرت من الشباك، وعلى البعد كنت ألمح
أمي وإخواتي يلوحن بأيديهن حتى حجبني عنهن الأشجار والمباني.

في القطار

كان القطار مزدحمًا، والركاب معظمهم من العمال، ولا مكان لقدم وطرفات
القطار مزدحمة.. كل واحد ممسك بجلباب الآخر.. والعرق يتصبب من
الوجوه.. كل واحد منهم يحاول أن يطل من الشباك.. وقف مترصصة قفة
فوق الأخرى.. وكفت الأصوات عن ترديد الهتافات.. وحل التعب بالناس..
وحاول الواقفون أن يريحوا أنفسهم، فلا مكان للراحة.. الدكك مليانة.. يا دوب
كل واحد قاعد بجنبه.. والازدحام على أشده.. وحاول البعض الجلوس على
القفف.. فتعالت أصوات الاحتجاج والشخط من كل مكان: - قوم يا اخويا انت
وهو حتفرتوا لنا العيش!

- محالب المخلل حتتكسر!

- إنتو بتزعقوا كده ليه؟ دي كلها ساعة ورايحين تنزل!

- كفايا بقه دماغنا وجعنا!

- خمسة لأجل النبي يا جدعان يا هوه!

- ابعدي يا جدع انت وهو.. ابعدوا عن الشباك.. خلوا رحمة ربنا تنزل!

- رحمتك يا رب.. اللهم ارفع غضبك عنا وارض عنا يا كريم!

- وسع يا جدع انت وهو شوية.. ميل على زميلك كده!

وتحدث ضجة:

- ما تقعد ساكت.. إنت حتستولى علينا!

- ما تعرفوش ربنا إلا وقت الزنقة.. هو انت مش شايف؟!

- شايف إيه؟!

- الرحمة هو انتو عاوزين تقولوا إيه.. هو علشان ما انتو قاعدين جنب الهوا

يعني.. تعالوا هنا وشوفوا!

وآخر يقول:

- سييك منهم!

- ما توسعوا شوية!

- حنوسع فين ما انتش شايف الباجور على بعضه!

يرد الولد الغريب:

- دا فيه عربيات ورا فاضية.. ليه الناس ما بتركبش فيها.. ما فيهاش غير شوية

أفندية لابسين طرايبش، شفتهم بيركبوا في المحطة ومعاهم نسوان عينيها

خضر وجتتهم عريانة!

فيرد الولد السيد الصفطي:

- وانا شفتهم في المحطة ما كانوش بيهتفوا.. كانوا واقفين يبصوا من

الشبابيك، ولما الهتافات زادت رزعوا الشبابيك قفلوها!

فرد أحد الواقفين:

- دول أصلهم من الأغنيا.. من اللي عندهم أرض، حيهتفوا ليه؟ همّ غلابة زينا؟
دول اللي بيحجزوا على الأرض لما الفلاحين يتأخروا عن دفع الإيجار!

فقلت:

- يعني همّ دول البين اللي كل الدنيا بتدعي عليهم؟

فأجابني أحدهم:

- أيوه يا سيدي همّ دول.. ما يرضوش يركبوا ويانا.. دول ما بيعرفوناش..
يخافوا على هدومهم تتوسخ مننا.. وعشان كده ما يهتفوش.. إللي كانوا
بيهتفوا همّ اللي طول عمرهم بيدعوا في صلاتهم إن ربنا يريحهم منهم.. دي
العساكر جات مخصوص على الأرصفة لأجل تحميهم.

وجلست في مكاني، وملت على الشباك، وتصورت أمي وهي تلوح لي بيدها،
وقلت في نفسي: «زمانها بتعيط علشانني».

وإذا بالولد الغريب يهزني من ذراعي: - جيت العصاية؟ قعدت تقول حاجيب
معايا عصاية.. وأديك لا جيت ولا حاجة.. حتقول لعبد العظيم إيه؟

- حاقول له إيه؟ حاقول له طنطا مقلوبة، والدكاكين كلها مقفولة.. والأزهرية
عمالة تهتف في البلد.. حاقول إيه؟ حاقول له نكتب شكاوى.. نبلغ الحكومة
والنيابة.. العيار اللي ما يصيبش يدوش.. عندنا في البلد بيعملوا كده.. لازم
احنا كمان نعمل كده.. ولا يهملك الظلم حيروح، والنحاس راح يبجي!

كنت أتكلم بينما القطار يطوي الأرض طيًّا ويزيد من سرعته.. وسألت نفسي:
«ليه الباجور بيجري.. بيجري على آخر الشوط كده؟ هوّ مستعجل ليه؟!»

الواحد مش شايف الأرض من السرعة.. مش مالك يشوف الأرض مزروعة إيه؟ هوّ حد قال للبا جور يجري؟! يمكن حد قال له.. علشان كل واحد يلحق يشوف شغله.. يا خبر أبيض أمال ليه كل شيء في بلدنا ماشي على مهله.. الحمير ماشية بالخطوة.. الجمال والجاموس ماشيين بالخطوة.. والرجالة ماشية هيّ كمان على قدهم.. مش معقول يسيبوهم علشان يفضوا من عليهم الأحمال.. في القرية كل شيء يسير على مهله، أما هنا فكل شيء يجري بسرعة.. الباجور يسرع، والعمال تطلع من البيوت تجري، والباعة المتجولين شايلين الحاجات على رؤوسهم وعمالين يمدوا، والأتومييلات والحناطير شايلين ناس وعمالين يجروا».. وتساءلت: «أنا كنت مستعجل ليه؟ ما كنت استنيت كمان يومين في البلد بعيد عن الجري والدوشة؟».. وأخيرًا قلت: «وعلى إيه، مهما قعدت هارجع ثاني.. أحسن كده اللي جيت.. مش أمي قالت الخلف «العرّة» يجيب لأهله اللعينة.. أحسن اللي جيت علشان ما حدش من الرؤساء يشتمني ولا يضربني».

ونظرت من القطار، ووجدت من بعيد المباني العالية والمداخن المتعددة والدخان يتصاعد منها في الهواء.. والمباني التي تنشئها الشركة.. وعمال المباني واقفين على السقالات يعملون في جد.. رأيتهم من الشباك والقطار يزحف.. وقلت في نفسي: «كل هذه المباني لا تخلو من العمال.. عمل متواصل.. عمال تعمل بالليل، وآخرون بالنهار، لا مكان فيها لأحد يرتاح.. مين عارف حصل إيه دلوقت جوّه العنابر؟ حد مات؟ حد متشعلق في السقف والدم يبشرشب على الممكن ما هو بيموت كل يوم عمال؟ آدي احنا رايعين نكتب شكوى أول ما حا قابل عبد العظيم راح أقول له.. وحا قول للشيخ علي لما أروح له البيت.. حا قول له الواحد هنا بيموت ولا موة الكلاب، لازم نبليغ

النيابة عشان المحامين تيجي وتقف في المحكمة وتدافع عن العمال ونقف
احنا كمان نشهد».

وتوقف القطار، ونزل العمال سريعًا، كل منهم يحمل قفته.. وتوجهت نحو
البيت لأستريح من عناء السفر استعدادًا للعمل بالليل.

أحلام

كنت أظن عندما دخلت المنزل أن أحدًا لم يشعر بي.. وأن وجودي لا يحس به أحد.. فسواء غبت أم حضرت فلا أحد يشعر بي.. ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه ولم يخطر على بالي طوال الطريق.

كنت أظن أنني سأدخل المنزل وأدخل غرفتي وأغلق بابها خلفي، كما كان يحدث عادة وأنا، وأصحو كلما حان موعد الذهاب إلى العمل.

ولكن عندما دخلت المنزل فوجئت بالأطفال يطلون من شبابيك الدور الثاني ويهللون عند رؤيتي داخلًا بقفتي.. ومن خلفي الولد الغريب والولد السيد الصفطي يحملان قفتيهما أيضًا، وظننت في أول الأمر أنهم يهللون علينا.. لو معي نقود لكنت أحضرت شيئًا يحمل قفتي ولبدوت في نظرهم شخصًا محترمًا، إنهم بلا شك يحبون المظاهر، إنهم لا يحملون لنا من العواطف والاحترام مثل ما يحملون لبعضهم البعض، إنهم ينظرون لنا باشمئزاز باعتبارنا غرباء، إن الأمهات مسؤولات بلا شك عن كراهية الأطفال لنا من كثرة ما يتناولننا به من أحاديث أمامهم.

وفتحت الحجر، وإذا بالأطفال تتقدمهم أمهاتهم يقفون بالباب.. وأمهاتهم يدخلن قائلات:

- بالسلامة يا ولاد!

والفرحة تطفح على وجوههن، والبسمة تملو شفاههن:

- كنتوا فين يا ولاد؟! إحنا قلبنا عليكم البلد، كل ما نخش ونطلع نخبط على الباب ما نلاقيش حد! هو انتو روّحتوا إمتى وازاي؟ إحنا حطينا لمبة الجاز على السلم طول الليل علشانكم من يوم ما طلعت لكم العفاريٲ.. مش كنتم تدونا خبر انكم مروّحين علشان نشيلها؟

كان الأطفال ينصتون لحديث أمهاتهم، وكانت الفتاة التي تعوّدت أن تأتي لإيقاظنا من النوم تقف بعيدًا عند الباب، تلك الفتاة التي بكت يوم أن زرنا المرضى في المستشفى.. كانت عيناها لا تفارقنا، ونحن واقفون نجيب على أسئلة الأمهات، وكيف سافرنا ليلاً دون أن نجد أحدًا ساعة السفر.. كانت تنظر في صمت وهي مستندة إلى الحائط، وبين الحين والحين ترفع خصلات شعرها الناعم المدلى على جبينها.. وتبتسم بين الحين والحين واضعة راحتيها على فمها كلما سمعت شيئًا يُضحكها في حديثنا.. ولا تكف عن اللعب في شعرها ورفعها عن جبينها في دلال.

وخطرت لي فكرة كثيرًا ما سمعتها من أمي: «مَن قدّم السبت لقي الحد قدامه».. لقد أنقذنا هؤلاء الناس يومًا، ووقفوا بجانبنا يوم أن طلعت لنا العفاريٲ.. لقد أضاءوا لنا اللمبة، وكنسوا حجرتنا، وسقوني «طاسة الخصة» وحصنوني يومها. هم اليوم يسألون عني ويتوددون إليّ، لمَ لا أقدم لهم شيئًا مما أحضرته معي؟ لمَ لا أقدم لهم الأرز المدسوس والذرة المشوي؟ أو أقدم لهم قشدة من التي وضعتها أمي في القفة؟ لا بد أن يفهموا أننا لسنا «لمامة» كما يقولون عنا.. سوف تتغير نظرتهم لنا، فأطلب منهم أن يأكلوا معي مما أحضرته.. نأكل سوا عيش وملح.. العيش والملح ما يخونه إلا ابن الحرام.. أقول لهم اتفضلوا.. ولكني ترددت، خشيت أن يرفضوا أن يأكلوا من يدنا شيئًا.. إنهم في البندر ربما لا يحبون أن يأكلوا مما صنعه يد الفلاحات في

الريف.. الفلاحات اللاتي يعشن طول يومهن في الوحل وأيديهن ملطخة بالسبخ.. لو قالوا هذا فماذا أقول؟ سوف أقول لهم إن أمي قبل أن تبدأ في العجين تغسل يديها وإخواتي كذلك.. إنهم على أي الحالات سوف يتأفون.. وقلت في نفسي: «هذا لا يمنعني من أن أقدم ما عندي.. إنهم قد يرفضون الأكل أمامي ليبينوا أنهم ليسوا بحاجة إلى ما يقدمه أمثالي من الغرباء.. وعندئذ سأتحايل عليهم».. وقلت: «وإذا رفضت النسوة سوف أعطي للأطفال، فالأطفال لا يرفضون أبدًا، إنهم يتطلعون دائمًا لكل ما في يد الغير.. هكذا كنت أفعل أنا عندما كانت والدتي ترفض أخذ شيء من أحد، كنت أبادر أنا بأخذه.. وبعدها كانت أمي تقول لي هات.. هات لما أدوق، وكثيرًا ما سمعتها وهي تثني أمامي على من طهت الطعام الذي كنت أخذه.. فلم لا أفعل وأتقدم بالعزومة.. أقوم بالواجب.. سوف تغمز الأمهات لأطفالهن ألا يأخذوا مني شيئًا.. ولكنهم سوف يأكلنه مع الأطفال عندما يخرجون.. وسوف يثنين على أمي في غيبتها.. إن أمي عندما عملت الفطير كانت تعلم أن غيري سيأكل منه.. وهي لذلك تهتم بصناعته، فهي تحب أن يثنى الناس على عملها.. وسوف يثنى عليها هؤلاء النسوة عندما يأكلن مع أطفالهن الفطير الذي اهتمت أمي بعمله».

وجمعت أطراف شجاعتي وعزمت عليهن.. قائلًا «اتفضلوا يا جماعة».. تمامًا مثلما كانت أمي تفعل عندما كانت تقدم شيئًا لكل من يزورها.. وتلكأت النسوة، وأسرع الأطفال بالجلوس.. وألححت عليهن.. وأخيرًا جلسن.. ولكن الفتاة رفضت وظلت واقفة رغم إلحاحي.. وكانت عيناها تتبع يدي وهي تخرج ما بالقفة من أشياء.. حاولت أن أتباهى بما أقدمه.. وأبين لهن أننا لسنا «لمامة» كما يظنون.. وشعرت بالاعتزاز بما قدمت.. وأخيرًا أكلت النسوة وبان واضحًا على وجوههن استحسان الطعام الذي قدمته.

ومنذ ذلك اليوم صرن يعاملنني وكأنني أحد أبنائهن، وكثيرًا ما كن ينادينني للجلوس معهن في حجراتهن.. كما بدأت غرفتي لا تخلو من الأطفال.. وبعد فترة ليست بالقليلة، وبعد أن تناولنا الطعام في ذلك اليوم الذي قضيناه معًا في أحاديث شتى عن القرية وعن أمي وإخواتي وعن طنطا وما فيها وعن السيد البدوي.. هممن واقفات وهن يرددن:

- يَلَّا يا ولاد.. يَلَّا سيبوه يرتاح.

وقالت إحداهن:

- ربح يا ابني علشان تروح شغلك.. حتقف طول الليل على المكنة!

وخرجت النسوة والأطفال أمامهن، وبقيت الفتاة واقفة.. وكدت أن أقول لها اتفضلي، ولكنني خشيت أن ترفض، وكنت أريد أن أعطيها من الفطير والقشدة فهي لم تأكل مثلما أكل الآخرون، ولكنني تراجع، فقد كانت أمها لا تزال واقفة في الحوش.

وأخيرًا أقفلت باب الحجر، واستعد الولد الغريب والولد السيد الصفطي للنوم، وأخذت مكاني بجوارهما قائلاً:

- لازم تصحوا قبل الميعاد أحسن تروح علينا نومة!

وحاولت أن أنام، ولكن صورًا عديدة حالت بين النوم وبين عيني، وحاولت التخلص من تلك الصور فوضعت قطعة من القماش على وجهي، وتقلبت على وجهي مرة أخرى، ولكن الصور كانت أقوى من أن تزاح.. كانت صورة أمي في المقدمة، تصورتها وهي تجري خلفي بين الجنود بعد أن انتزعت يدي منها وجريت نحو الجموع المحتشدة عند المديرية لأعرف حقيقة ما يقال،

وكان الدافع لها هو الخوف، كانت تخاف أن أتوه وسط هذا المُلْك المحتشد.. ثم صورتها والجنود يدفعون بها جانبًا وهم يوجهون لها السباب وهي لا تبالي بهم.. وتصورتها وهي تتوسل إلى الرجل الذي كان يضع على أكتافه أشياء لامعة وهي تصيح: «مالكم واقفين زي زبانية جهنم كده ليه؟ ما تسيبوا الناس تروح شغلها».. وتصورتها وهي واقفة على المحطة تقول: «انزل يا واد.. انزل الظلم حيروح والنحاس راح يبجي».

وسألت نفسي عما كانت تقصده أُمي بهذه الكلمات.. يعني إيه الظلم حيروح والنحاس راح يبجي؟ يمكن تقصد الهتاف ضد صدقي وضد الإنجليز وعلشان كده فرحت.. ما هو الحاج محمود الصعيدي والرجالة اللي معاه كانوا بيتكلموا في الموضوع ده في البلد وأخوبا كان قاعد.. كانوا بيتكلموا عن رخص القطن، وعن إلغاء الدستور، وعن حزب الشعب، وأُمي كانت قاعدة من بعيد تسمع ولم يكن باديًا عليها أي شيء من فرح! لماذا زغردت أُمي على المحطة؟ هل زغردت لما سمعت الهتافات أن صدقي راح ينشال والنحاس راح يبجي؟ وهل فرحت لأن القطن راح يغلا؟ هل فرحت لأن الأرض اللي كان صدقي راح يديها للملك رايحة تبقى لأصحابها؟ وأُمي راح تاخذ إيه؟ حتاخذ حته أرض؟ وأم الولد الغريب والولد السيد الصفطي رايحين ياخدوا إيه همَّ روخرين.. حته أرض؟ لاحنا ولا همَّ عندنا أرض، ما عندناش حاجة! وقلت في نفسي: «يمكن حيدونا! وعلشان كده هيَّ فرحانة لما سمعت الهتاف إن صدقي ينشال.. والإنجليز تطلع.. وإمتى الحاجات دي راح تحصل؟ النهارده؟ يعني أُمي لما حتروّح حتاخذ حته الأرض؟ مش معقول! وهوّ صدقي راح يرضى؟ أمال هوّ جايب العساكر دي ليه وعمال يضرب في الأزهرية؟ وهي طنطا وحدها اللي حتشيل صدقي والإنجليز وياه؟ أمال المحلة الكبيرة مفيش فيها أي هتافات ليه؟ كل حاجة فيها ماشية، لا بيوت ولا مصانع مقفولة، وكل الناس رايحة وجاية في هدوء!

هَوّ مفيش هنا أزهرية؟ لو كان فيه لكانت المحلة كل شيء فيها وقف»..
وقلت: «بقه طنطا لوحدها حتشيل صدقي والإنجليز؟ مش معقولة! والإنجليز
حتطلع كده بالدعاء! لو كانت المظاهرات دي في كل حتة، لو في المحلة وفي
كل مكان، كان صدقي حياقي عساكر يجيها مينين علشان تسد؟! لو العمال
تشترك والمصانع تقف والدكاكين تنقفل والبيوت لا حد يطلع ولا يخش،
حيبقى صدقي يعمل إيه؟ وحتعمل إيه الإنجليز وباه؟ حيجيبوا عساكر مينين
تقضي كل البلاد؟ وساعتها لما ما يلاقيش حد معاه حيتغلب وبنكسر! هيّ أمي
مش كانت بتدعي باستمرار وترفع إيديها للسما وتقول «اللهم ارفع غضبك
عنا».. يعني الواحد يقدر يقول إن ربنا رفع الغضب وراح ياخذ البين اللي كان
بيحجز كل يوم على الأرض؟ يعني راح ياخذ أصحاب الأرض؟ والأرض حتتوزع؟
وأمي راح تاخذ أرض؟ لو حصل كده بيقى الواحد راح ينسبط.. يعني حيموت
كل الظلمة.. ولو حصل كده بيقى الواحد كده لما يروح الشغل لا حياقي مدير
يخش المصنع يضرب بالشلوت، ولا رئيس يمنع العمال من الذهاب للدورة،
وحتيجي النيابة وتحقق لما الممكن يموت حد من العمال.. لو حصل كده تبقى
أبواب السما انفتحت وكل شيء أصبح عال».

وإذا بالصور تتداخل أمام عيني، وتبهت الأفكار، وتنقطع، وتختلط في رأسي..
ثم غبت تمامًا، حتى نمت دون أن أشعر.

مختارات الكرمة

1 - مليم الأكبر - عادل كامل

2 - الناس في كفر عسكر: أولاد عوف - أحمد الشيخ

3 - النزول إلى البحر - جميل عطية إبراهيم

4 - دنقلا - إدريس علي

5 - مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس - أحمد حجي

6 - الشبكة - شريف حتاتة

7 - ملك من شعاع - عادل كامل

8 - إجازة تفرغ - بدر الديب

9 - رابعة ثالث - علي الشوباشي

10 - رباعية أيام الطفولة - إبراهيم عبد الحلیم

11 - حديث شخصي: أربع تنويعات - بدر الديب

12 - الرحلة - فكري الخولي

13 - هوامش الفتح العربي لمصر - سناء المصري

14 - الباب المفتوح - لطيفة الزيات

15 - أوراق شخصية - لطيفة الزيات

16 - الشمندورة - محمد خليل قاسم

تم التحميل بواسطة

[abjjad_free@](#)